نهضة الامة وحياتها

تأليف

﴿ الاستاذ الحكيم ﴾

الشيخ طنطاوى جوهرى

﴿ ثمن النسخة ١٠ قروش صاغ ﴾

طبع بمطبعة اللواء سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م



المقدمة

نحمدك يامن أحكمت نظام العالم والامم . وأتقنت الخلق والابداع في الذرات والنسم . ونصلي ونسلم على واسطة نظام عقد هذا الوجود صاحب الشرع الابين والحكمة العالية .

وبعد فقد وضع هذا الكتاب الجلل والسفر العظيم حكيم من حكماء هذه الامة . وعالم عصري من أبناء الملة . وقد نشره بادىء بدء في أعداد من اللواء الاغر رسائل تزرى بالجمان . وفصولا تتيه على اللؤلؤ والمرجان .

أعجب كل قارىء قرأ هذه الرسائل الموسومة « بنهضة الامة وحياتها » في اللواء الاغر وطرب كل من أمعن النظر وأنعم الفكر فيها بأسلوبها الحكيم وفلسفتها العالية ومراميها السامية ومواضيعها الحيوية الهامة .

أقول حيوية هامة وكيف لاتكون كذلك وقد استوفي فيها واضعها الحكيم حفظه الله جل ما يهم الامم الاسلامية والشعوب المحمدية معرفته والوقوف عليه مما له كبير مساس بتنظم حياتهم الاجتماعية وأمورهم العلمية

والادبية مما يذكرنا بمصنفات الامام حجة الاسلام الغزالى وابن رشد والفارابى مؤلف المدنية الفاضلة وكثيرين غيرهم ممن خدموا الاسلام وأعلوا كعب تعاليمه فى التعاليم وشرفوا أبناء الملة السمحاء بين الملل .

المؤلف حفظه الله حكيم وليس حكيما كحكيم بل هو من أولئك الافراد الذين عرفوا كيف يوقظون النفوس ويطبقون ويستنتجون ويستخرجون فكانوا في مؤلفاتهم ومصنفاتهم كمشكاة فيها مصباح يضيء على العالم الاسلامى بنور لطيف لايمكننى أن أصور لك جماله وجلاله وعظم ماتجنى النفوس الاسلامية من فوائده الجلى

* *

يضم هذا السفر بين دفتيه ثلاثاً وخمسين رسالة أو بحثا جمعت فأوعت مما يهمنا معشر المسلمين في جميع أقطار المعمور معرفته والاطلاع عليه فهو كما ستقف عليه صور حال الامة أجمل تصوير وأرشد الحكام أيما ارشاد . ووصف الامم المظلومة أحسن وصف . وقال فى المدنية وعلومها ماشاء أن يصوغ بليغ قلمه . وجال جولة فى علوم الاسلام والازهر ورجال الدين استغرقت شطراً من الكتاب

وأفاض فى شرح المجالس النيابية ببيان لم ينسج على منواله الى الآن ناسج دقة واجادة فى انتخاب الاكفاء من رجال الامة بالتطبيق على ذلك التركيب العجيب من بنية الانسان وتشريح هيولى جسمه .

وجاءنا في فصل تأليف الكتب وتصنيف الاسفار بالمعجب والمطرب وبيان التأليف عند الامم وكيف يؤلف التاريخ ثم الشعر ودرجاته .

وعمد حفظه الله فصلا جميلا غريباً في بابه لطيفاً فى أسلوبه بالنسبة الى

مايجب أن تكون عليه الامة في نظام الجندية والقرعة العسكرية

وهناك تلك الرسالة الجليلة الموسومة بالرسالة « القازانية » شرح فيها المؤلف حال علماء الاسلام فى الاقطار قديما وحديثاً ومايجب عليهم الآن تعد من أحسن ما كتب فى هذا الباب وأتى عليه الى اليوم قلم كاتب .

***

هذا بيان موجز لما تضمن هذا السفر العظيم الذى جمع فيه مؤلفه الحكيم حفظه الله ثمرات العلوم البشرية وزبدة الاحوال السياسية والحقائق الاجتماعية ونظام الامم والدين والاخلاق والحكمة العملية والنظرية مما تراه مستفيضة به صفحاته تنم على فضل واضعه وتضلعه تفثاته وان لم يشأ ان يصرح بكريم اسمه

هذا النهج فى التأليف العصرى كما يرى الامة في حاجة اليه وافتقار شديد الى بث مثل تلك المعارف والافكار بينها خصوصا وهو أسلوب لم يسلك سبيله كما ترى الا الاولون مثل حكيمنا واضع هذه الرسائل مصنف هذا السفر الجليل الذى فيه للامم الاسلامية موعظة وذكرى ولابناء الشبيبة روضة عقول وبستان أذهان بل هو أسمى من ذلك . هو كنز كل قارىء وذخيرة كل مسلم عصرى فاقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم .

صديق المؤلف

صالح حمدى حماد

القاهرة في ١٠ رجب سنة ١٣٢٥ (١٩ أغسطس سنة ١٩٠٧)

المقالة الاولى

من نهضة الامة وحياتها

النصيحة

الجمعية الانسانية جسم أعضاؤه أفرادها صحته الهدى داؤه الغي دواؤه النصح والارشاد . هل يقوم الفرد الواحد بعمله أو يتم وظيفته في الحياة الا اذا صح الجمع وتم نظامه وكمل . فلا سعادة للفرد الا بسعادة مواطنيه ولا نظام في منزله الا اذا انتظمت سائر مصالح بلاده وقامت على أساس متين . سائل نفسك وحادث ضميرك أيلذ لك الطعام أو يسوغ التنزه وقد صفر البلد ونقص العدد وحاقت الاحزان وانتهبت الجيران وابتلي مواطنوك في الاموال والانفس والثمرات فاذا سمعت سمعت باكيا أو نظرت رأيت كئيبا حزينا أفلا تتقطع الانفس حسرات ويتبدل الفرح ترحا واللذة ألما ؟ ذلك ما يدعو اليه الوجدان ويوحيه الضمير ويبرهن على صحته العقل ويقرره في قياسه المنطق ويفقهه العالمون

اذا لم يأمر الآمرون بالمعروف وينهى الناهون عن المنكر خسروا الدنيا والآخرة وبأوا بغضب يحارب ضمائرهم وخسارة تنقص أموالهم وقتل يحصد رؤسهم وانتهاك لحرماتهم وصبت اللعنة عليهم والخزى والعذاب المهين . بهذا يفهم ماورد في الحديث « لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فان اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فان اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه » وورد في حديث آخر « لا ينبغي لامرىء شهد مقاماً فيه حق الا يتكلم به فانه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقه »

تقويم اعوجاج أولياء الامور فرض على كل قادر وليكن بما في قدرته

وما استطاع اليه سبيلا . وما مثل حال الامة الا كمثل ميزان القبان فساقه ذات الذراعين القصير والطويل المعلقة بالرافعة كاولياء الامور والامة المحكومة كالاشياء الموزونة من البضاعات التي وقع عليها السوم والهداة من أرباب الجرائد والمجلات كالصنجة (الرمانة) التي تعادل بها الاشياء الموزونة موضوعة فوق الذراع الطويل (ولنسم الاولى ذراع القوة والثانيـة ذراع المقاومة) فاذا قام الهداة بارشادهم وأوقفوا الامراء عند حدهم اذا ظلموا وعلموهم اذا جهلوا وذكروهم اذا نسوا كان العـدل وانتظم الامر واستوت ساقة الميزان على حد الوسط وسـبح لسان العدل الشاخص فوق الساق بحمد أولئك الهداة وملأ الآفاق شكراً لهم مع الشاكرين . هذه حال الامة اذا استقام حكامها وهدى علماؤها وانتظم شملها كحال الميزان وقد وضـعت الصنجة في مقابل الموزون في الدرجة المطلوبة بالعـدل فاذا ألجم المرشدون أو جبنوا عن النصح والارشاد سقطت الامة الى الدرك الاسفل من البوار والخراب فهي كحال الموزون اذا رفع مايعاد له من الصـنجة (الرمانة) وما يوازنه فهناك تـكون الامة في أسـفل سافلين ويشمخ الحاكم بأنفه ويتجبر ويتيـه رأسه في السماء ورجلاه على أولئـك المظلومين المحقورين كما ترى في الميزان المحسوس اذا رفعت صنجته ارتفعت الساق الى أعلى وخر الموزون صريعاً تحته . وعكس ذلك اذا مال الهداة على القائمين بالامر فدقوا أعناقهم وأذاقوهم حتفهم فأوردوهم النكال وأصلوهم النار اذا طغوا وبغوا فاذن يصبحون تحت الامة فتطحنهم بكلكلها وتدوسهم بأرجلها كما ترى اذا وضعت الرمانة وتطرفت الى نهاية الساق فتنزل الى الثرى . فهذه ثلاث أحوال لكل أمـة خلت أو ستأتى . وهل فهمت من هذا قوله في الـكتاب

« ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » وهى الاحوال الثلاثة التى ذكرناها الزيادة والنقصان والعدل

من هذا نفهم ما قاله كسرى وقد سئل بم انتظم ملكك فقال « بالعدل » لانى نظرت فى هذا العالم فوجدته قائما بالعدل فبنيت ملكى عليه فكان وطيداً

لم يأل الناصحون من الامم جهدا في غابر الازمان فى النصح والارشاد ولم يبالوا بما ينالهم من الاذى والموت قياما بما عهد اليهم وما توحى به ضمائرهم

ألا أنبئك « بديشليم » ملك الهند قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون اذ طغى وبغى وتجبر فوقف بيد يا حكيم البراهمة وعظيمها وقام مقام الخصم الالد مدافعا عن أبناء أمته الضعفاء في منزلة بين المنزلتين اما استقامة الامور وانتظام الجمهور وأما سفك دمه واذاقته طعم الموت الزؤام واحتساء كاس الحمام . وأبى الفيلسوف البقاء على الذلة والهوان أو الخروج من الاوطان فنال بغيته بعد ان خاطر بمهجته وأبقى له أثراً يذكر بعده فقل لى رعاك الله اذا لم يكن هذا الحكيم فكيف يكون العدل ومن ذا الذى يذكر الظالم بظلمه والباغى ببغيه لحيا الله الحكمة والحكماء ومن معهم . وهاك دولتنا العربية أتدخل فى خلدك ريبة من عدل الخلفاء الاربعة أو ليسوا هم عنوان العدل ونبراس الهدى وعلم السعادة ومع ذلك لم يذرهم الناصحون ولم يدعهم المرشدون واذكر في الكتاب قصة أبى موسى الاشعرى اذ كان واليا على البصرة وكان اذا خطب يدعو لعمر ولا يذكر أبا بكر فاغتاظ منه أبو محصن العنزى يوماً وهو يخطب وقال له فى وسط الجمع (أين أنت من صاحبه تفضله عليه) فعمل أبو موسى بنصيحته وذكر أبا بكر فى خطبته مع عمر من بعد ثم شكاه أبو موسى لعمر فاستحضره فقص عليه القصص فبكى عمر وقال للعنزى أنت

والله أوفق من أبي موسى . فلله در تلك الايام ولله درهم من رجال لايخافون في الحق لومة لائم . ترى النصحاء وقفوا في وجوه بني أمية واستعذبوا التعذيب ورضوا بالموت كما وقع لحطيط الزيات اذ قال للحجاج انك من أعداء الله في الارض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة وعبد الملك بن مروان أعظم منك جرماً وأكبر منك اثما وانما أنت خطيئة من خطاياه وسيئة من سجاياه . فأمر بقتله فقتل شهيد الحرية وهو في الثامنة عشرة من عمره

هكذا ملوك العباسيين كم وعظهم الواعظون وأنذرهم المنذرون . هذا أبو جعفر المنصور وهو المشهور بالعلم والفضل . دخل عليه عبد الرحمن ابن عمر الاوزاعي ومما قال له ياأمير المؤمنين أخاف أن تسمع النصح ولا تعمل به فصاح به الربيع وانتهره بالسيف فقال المنصور هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة وسار الاوزاعي في نصحه ووعظه وزجره لامير المؤمنين وانذاره للخليفة المنصور

وهذا هرون الرشيد أعطى قوة وملكا لاينازعه فيهما ملوك زمانه أرسل خادماً يحضر عود الغناء وقت الفراغ فأحضره وبينما هو سائر يقصد باب الخليفة اذا رجل فقير يلتقط النوى من الارض نواة نواة يجمعها ليبيعها ويعيش من ثمنها فقال الخادم تنح عن الطريق يارجل فرفع رأسه وأمسك بالعود فكسره فأخبر الخليفة بذلك فاستشاط غضبا ثم أحضره وسأله فقال ياأمير المؤمنين (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) وأنا رأيت منكرا فأزلته فما تريد مني فخلى سبيله وأمر أن يوصل بثمانمائة دينار فردها ذلك الفقير وقال ليردها الخليفة الى من أخذها منه . هذه حال الدول الشرقية الكبرى وملوكها ونصحائها قديما وهذه دول أوروبا ونصحاؤها أخبارها

معلومة بين القارئين

لولا الهداة والمصلحون فى الدول العربية والمحررون والحكماء في الدول الغربية لغلب العزيز أذلها وأكل الكثير أقلها وأضحت طعمة للآكلين فريسة للقانصين فأسرع اليها الفناء

المقالة الثانية

﴿ اذا سلبت الامة حريتها أسرع اليها غالبا الفناء

يعرف الانسان بأنه حيوان ناطق وحيوانيته جسم مستو وقامة معتدلة وأعضاء وحواس وادراك والناطقية قوة امتاز بها على سائر الحيوان وهى روح نورانى مجرد عن المادة تنزل من سماء العظمة والجلال واستوى على عرش جسمه فصرفه فى الارض خليفة الله أمينا على العالمين من هذا افترق الناس ثلاث فرق لارابع لها في حقيقة الروح والجسم فقال قوم ان هو الا جسم مقدر وهيكل مدبر والروح أفرازه والعقل صفته مبدؤه الولادة نهايته الموت

وهؤلاء لاتراهم يعولون الا على الاجسام وتوابعها واللذات وشوائبها ويحرصون على الحياة حرص النهمين. يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من عذاب الخزى فى الحياة الدنيا أن يعمر يقولون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا مرور الدهور وكر العصور

وتقلب الشـــمس وطلوعها من حيث لاتمسى

وشروقها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس

وقال آخرون ان هناك روحا نستقل عن الجسم اذا اضمحل فقالوا

الانسان انما هو روح وجسم وآخرون قالوا الانسان انماهو الروح والجسم مركبها والحياة سيرها والعمر طريقها والسنون مراحلها والولادة مبدؤها والموت وصولها لمستقرها فتلقى عصى التسيار نزلت (أى النفس) عالم الانسان بكبريائها وعظمتها وشرفها وحريتها التى هى أصل جبلتها متسمعة بالعلو والقهر فهى شعاع من النور امتد من الله واتصل بهذه الاجسام الارضية فشعر بشرف أصله ورفعة منزلته وعظم جلاله فان سيم الخسف واستنزل بعد عز من مراتبه وأودع فى سجين الرق والعبودية والذلة والغلبة نقصت ملكته العقلية وأخذ يحبو مع الحيوان تحت أمرة القاهر المسيطر عليه من أبناء جنسه وضعفت الصلة بينه وبين مبدعه الاول وأضحى يشابه الحيوانات المنزلية ويشارك البهائم فيستمد من رؤسائه ويعول في رزقه على امرائه ولا يسجد الا لعظمائهم نراه يترك التدبير لرؤوسهم والعمل لايديهم فيحصر همه فيما لديهم من حطام الدنيا

الامم المغلوب على أمرها لايطلق عليها اسم المتوكلين أولئك هم الخاملون الخامدون الا انما المتوكلون قوم فك العقال عن عقولهم وكسرت الاغلال عن أيديهم فأخذوا بالعقول يدبرون ومن الله وآلائه يستمدون ويستنتجون ويخترعون وسارعوا الى الخيرات وهم لها سابقون وأؤلئك هم المقربون الذين يتقنون الزراعات والصناعات فعقولهم مع الله بلا واسطة الغالبين المدبرين وأيديهم مطلقة فيما لديهم من المواد الحاضرة فهؤلاء هم المتوكلون . مثل الامم الحرة كمثل الحيوانات الكاسرة من السباع والنمور والبزاة والصقور ولن ترى الصولة والقوة والتدبير وعجائب الذكاء والحيل المنقولة فى الكتب الا عن هذه . والى هذه المشابهة ورد في الحديث (لو

توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا)
فغدوها ورواحها بأنفسها وتمييزها بغرائزها هو عين التوكل عند الانسان .
على هذا ترى العزيز اذا ذل والسيد اذا استعبد ساءت حاله وضنى جسمه وقل
نسله فترى النمور والاسود وأمثال الطيور الجارحة من البزاة والصقور اذا
سجنت فى الاقفاص تركت السفاد حرصا على نسلها من الذلة والعار وهكذا
ترى الامم العزيزة الجانب اذا غلبت على أمرها أسرع اليها الزوال . هذه
أمة الفرس كيف كانت تملأ السهل والجبل حتى اذا غلب على أمرها
وافتتحها العرب أخذ الفناء يسرع اليهم كالشيب يصيح فى جوانب الشباب والبلى
يسرع في الثياب فتناقص عمرانهم وقل عددهم حتى قيل ان سعد ابن أبي
وقاص أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة وسبعة وثلاثين ألفاً فما لبثوا ان
تلاشوا رغما عما كان الصحابة والتابعون عليه من العدل وحسن السيرة ولكن
هى النفوس العزيزة الجانب لاترضى الا بهلك أو ملك بهذا يحل اللغز
المشهور المذكور فى المحافل والنوادى وعلى صفحات الجرائد وهو (لم نرى
المخترعين والمكتشفين من رجال أوربا اذا جاؤا بلاد الشرق وعلموا أبناءه
لم نر لهم اختراعا) فترى من لاتبصر له يجيبك ان الشرقى عموما والمصرى
خصوصا سلب الموهبة العقلية والفطنة الكمالية أولا يعلمون ان النفوس
اذا انقبضت عن الامل كمشت فى أعمالها فترى الاوروبى تتسع آماله ويأخذ
الحاكم بناصره ويعلم ان حكومته أب شفوق وأم رحيمة فيعمل واثقاً بنجاح
عمله مؤملا حسن جزائه وعلى العكس فى بلاد ضربت عليهم الذلة
والمسكنة فترى النابغين والمفكرين الذين لا يتملقون في بيوتهم منزوين وعن
العمل معرضين لانقطاع الآمال . خبرنى بالله أى عامل كوفىء على حسن

عمله وأى خادم لبلاده أخذ بناصره اللهم الا بعوامل غير رسمية على العاملين يخشون قرناءهم فى الامم الضعيفة أشد من خشيتهم لغيرهم لما أصل في قومهم من الحسد والتخاذل الذى يؤصله فى النفوس الذلة المتوالية على ممر الزمان في الاجيال المتعاقبة .. قلنا ان النفوس عزيزة فاذا غلب على أمرها زالت من الوجود فلعلك تقول هانحن نرى أمماً مغلوبة مقهورة تعيش وتتناسل بل قد تنمو وتتكاثر قلنا ذلك لايحصل الا لاحد أمرين . اما نزولهم في الحيوانية أو النباتية كامم من الزنوج يتناسلون ويتكاثرون . واما انيكون المربى « بالكسر » يزيد فى المربى « بالفتح » ليعتمد عليه فى مهام الحياة فيكون الامل والعمل سببين لبقاء أولئك المستعبدين فى الحياة واعتبر ذلك فى المماليك المستعبدين للملوك العباسية وبنى أيوب بمصر فهؤلاء كانوا يترقبون الملك في مصر وقد تم لهم فعلا

ولا بقاء لامة مغلوبة بغير هذين الا بقاء محدوداً الى أجل معدود فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون وغلبوا على صناعاتهم وتجاراتهم وطارت منهم الآمال وذهبوا مع الذاهبين الاولين

ياقوم ماأجمل الشقاء مع الحرية وما أقبح الحياة مع الذل فان لم تكن فى الحياة سعادة فليكن الفناء . ياقوم انى أخاف ان يمسكم عذاب من رحمة الترف ونعيم السكرة والغنى فتستحلوا شرابها وتستمرئوا طعامها ثم لاتلبثون ان يأتيكم عذاب ذهاب المال وضياع التجارة بغتة وأنتم لاتشعرون ولن ينفعكم ان تقول نفس خاسرة كاسلة بخيلة ياحسرتا على مافرطت فيه من الاموال وفعلت من الاثم لحاق بى الخسران وقد كنت من الساخرين بعلوم الاولين واكتشاف الغابرين وهل يغنى عنكم أن تلقوا التبعة على القضاء

والقدر فيقول الكسول لو ان الله هدانى للعمل وفسح لى فى الاجل لكنت بنيت المجد باكتساب المفاخر ونيل المحامد فاذا دنا الاجل وفات العمل وهدمت الحصون ودنت الامة من المنون فهناك لا ينفع مال مكنوز ولا ولد مترف فى نعيم

ألا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب الخزى فى الحياة الدنيا والسعير فى الآخرة أنفقوا المال للكليات وانشروا العلوم باخلاص واعلموا ان الامة لا تقوم الا على دعامتين ولا تقف الا على رجلين سأذكرهما فى المقالة الثالثة وهل ينفع الغبى ماله اذا دهى الامة الخطوب وحاقت بها الكروب وماذا نفع المستعصم آخر ملوك العباسيين ببغداد اذ ضربه هولاكو التتارى وأسره وانتهب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والجواهر المكنونة ووضعها في أوانى المائدة بألوان مختلفات وأمره ان يأكل منها وهى لا تؤكل تقريعاً له واذلالا ثم قال له هولاكو هذه الاموال انتهبتها من خزائنك وأنت بين يدى ثم قتله وأخذ ملك الاسلام الواسع

فهل خطر ببال هذا الملك يوماً أن ينفق ماله على الجيوش والسلاح فى الحروب والخيل والكراع فضلا عن بيت المال . فرأس مال الامم الحرية وسيادة الدستور وما عداه فتبع له ولتترقب في المقال الآتى الامرين اللذين بهما تسود الامم وتحيا حياة طيبة

المقالة الثالثة

وعدنا فى القول السابق ان نشرح ماتمس حاجة الامة اليه من الاصلاح ومايلزم لها من الامور العامة فنقول اذا تأملت المواليد الثلاثة وما نتج

منها وما أحاط بها رأيت قانونا مسنونا بخط حروفه كبيرة يقرؤها ذوو الابصار الناظرة والقلوب الواعية ويعجز عن ادراكها متناول الغافلين. ذلك ان كل نتيجة تصدر من مقدمتين وكل مولود فانما ينشأ من أبوين وكل ثمرة محصولها من متضايفين

على هذه السنة درجت كل أمة في الارض فتربت في حضن أبوين. وولدت بين مولدين فأبوها عظماؤها السابقون وأبطالها المشهورون وكبارها الغابرون وأمها ماأحاط بها من علوم وعمران وسياسات ونظامات وما تعلمه من مخترعات المخترعين ومبتدعات المجدين ومكتشفات الدول والممالك

فلمعرفة اسلافها وفضائل أجدادها تقرأ تاريخ قومها وتدرس دينها وتبنى مجدها مؤثلا وترفع عزها ممنعا وبالسير فى الارض ودرس علوم الشعوب ودستور الامم ونظام الدول تغذى جسمها ويبزغ سعدها وترفل فى عزها المكين فان نبذوا الاول تخطفهم الناس من حولهم وضرسوهم بانيابهم ووطأوهم بمناسمهم ومزقوهم كل ممزق وبددوهم أيدى سبا حيارى لامأوى لهم ولا معين سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب العار والخزى على النفوس فى الدنيا شديد ذكر الآباء والاجداد وتاريخ القوم ودينهم عصمة من التفريق والتمزيق وذهاب العصبية القومية وحصن حصين وان استمسكوا بالجدود واعتصبوا عصبة واحدة ونبذوا ماوصلت اليه الجمعية الانسانية من المعارف والصناعات . صاروا كنبت البيداء وحشيش الصحراء تجافاه الغيث وتحاماه الوابل والطل فاكتنظه الحر وأضناه الصقيع والبرد فرعته الامم الجياع وأضحى طعمه الآكلين . لاغنى للامة عن دين قومها ولا مناص لها عن

محاراة جاراتها ذلك هو الصراط المستقيم . ان لم تدرس الامة تاريخ رجالها وآثار قومها تنازعتها الامم وتناوشتها الدرل كل منها تسلب عقول رجال وأفئدة شبان بمحاسن قومها وفضائل رجالها فيرى الناشيء ان لا قوم له ولا رجال فيحفظ أشعارهم ويذكر فى الفخر رجالهم فيحقر أبويه لما يراهما يجهلان آثار من تربى على لسانهم ونشأ على ذكر رجالهم ومفاخرهم ونثرهم وشعرهم ولا يجول بخاطره يوما مادوّنه أسلافه وحفظه التاريخ لهم وهل درى أولئك الذين يعجبون بشكسبير ويسبحون بحمد نظائره من أهل أوروبا ويطربون لاشعارهم ان فى أهل أوروبا من يتغنون بقول عنترة فى الحنين الى الاحبة والاوطان

ألا قاتل الله الطلول البواليا   وقاتل ذكراك السنين الخواليا
وقولك للشيء الذى لا تناله   اذا ما هوا حلولى ألا ليت ذاليا

وقوله في الفخر واحتقار الحياة

نديمى رعاك الله قم غن لى على   كؤوس المنايا من دم حين أشرب
ولا تسقنى كأس المدام فانها   يضل بها عقل الشجاع ويذهب

وقوله فى الشجاعة والكرم والعفة

لى النفوس وللطير اللحوم ولل -   وحش العظام وللخيالة السلب

وقوله فى العفة

واغض طرفي ان بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها

وبقول أبي الطيب

الخيل والليل والبيداء تعرفنى   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وهكذا يقرأ القوم هناك في التاريخ مايروى أن معاوية هزم بفصاحته

وذكائه جند ملك الروم اذ طلب منه الجزية لما اشتجر بينه وبين على رضى الله عنه القتال واحتدم وطيس الحرب فأرسل اليه يقول كف هذا واقصر والا ضالحت صاحبي (يعنى عليا) وكنت أول جندى يحضر اليك فاكبلك أسيراً فقامت كلمته مقام جيش مدرب منظم فانظر كيف هزمه بالمقال ولم يحتج لجيش منظم من الرجال

وترى القوم يخرون سجدا لسياسة جعفر البرمكي وقد سأله الرشيد يقول ان عاملنا عرض علينا ان يفتح برزخ السويس فاطرق رأسه ثم رفعها وقال كيف تهد رفيع مجد بنيناه وشامخ طود رفعناه أنا باأمير المؤمنين اذا مرجنا البحرين يلتقيان جالت الافرنج جولات فيها وسلبت منا ملكاً اراق المسلمون فيه دماءهم وافنوا رجالهم فكف هرون عن فتحه فانظروا كيف صدق التاريخ على جعفر ظنه بعد الف سنة وتزيد في التاريخ وأصبحت كلمة جعفر الآن حكمة الحكم وعبرة العبر وظهر سرها المكتوم وهل الامة الا كهيكل انسانى هيئته وشكله من آثار الآباء وغذاؤه ولحمه وجماله مما حوله من الاغذية والمواد مما يكتنفها من الامم والدول والممالك ولنمثل سلف الامة بعمود امتد الى السماء واتصل بالارض ومنه اتجهت الاقطار حوله واتصلت أقطارها بمحيط دائره فالعمود سلف الامة والسماء دينها والنقطة تحت العمود (أى مركز الدائرة) هى الامة . وأقطارها علاقاتها المتواصلة مع الامم . ودول الارض قائمة محيط تلك الدائرة . وكل قوس بين قطرين أمة من أمم الارض فأنت ترى المركز الذى أردنا به أمتنا المصرية والامم الاسلامية يستمد من طريقين طريق الآباء وشعورهم وآدابهم وطريق الامم المعاصرة لنا فاذا قتلع العمود الممثل لتاريخ الرجال وما يكتنفه من أصول عقيدتهم القومية

تنازعتها تلك الاقطار الممتدة الى المحيط فتنتهب كل أمة فريقاً من الناس ولا
تظن انا نضرب هذا جزافاً فاجلس في نادعام وحادث افراداً مختلفين تربوا
في مدارس متباينة تر هذا يميل لايطاليا وهذا لبريطانيا وذلك لفرنسا والآخر
لالمانيا وهم في ذلك معذورون لا يلامون اذ لا يحب المرء الا ماعرف وهؤلاء
ماعرفوا الا أولئك الذين أحبوهم فالحب تابع للمعرفة فكيف تجمعهم وشيجة
الآباء والجدود أم كيف تضمهم قوة الشعور العام وهم ماعرفوا تلك السبيل

أما وربك لو ان هؤلاء شملهم تعليم عام ونظام شامل بدراسة التاريخ
على شكل بهيج جميل لكان اختلافهم اتحادا واستفادوا من الامم مابه كان
الغذاء لا الداء ولو ان هذا العماد بقى ثابتا وأزيلت الاقطار وفصمت العرى
فيما بينها وبين الامم انقضت عليها عاجلا أو آجلا فافترستها ومزقت جسمها
تمزيقا وتبرتها تتبيراً بهذين الاصلين مراعاة الامم وتاريخ الآباء بقاء الامم
وحياتها وتبقى الامة وسطا بين عاملين يتجاذبانها فيكون عقلاؤها شهداء على
الامم ويكون تاريخهم وآباؤهم ممدين لهم شعور تاريخهم وروحهم الفعالة
(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيدا) أدرك المأمون هذا الوسط والعدل فلم يعتزل الامم بل ترجم
كتب اليونان فلم تمنعه فلسفته من بلاغة قومه وذكرى عشيرته وعز العرب
ونخرهم وكان يستشير من لهم معارف واطلاع على سياسات دول الفرس
والروم بل كان معاوية يستمد من سياسات الفرس ونظاماتها فكان غلمانه
يقرؤون له في جنح الليل وطرف النهار ماساسه الاكاسرة وهو يستمع له بل
كان عمر رضى الله عنه وهو من أجل الخلفاء الراشدين يقتبس من نظام
الفرس يشهد لذلك الديوان والتاريخ الهجرى بل حفر النبي صلى الله عليه

وسلم الخندق باشارة سلمان الفارسي ووصفه لذلك فى بلادهم

فهذا حال سلف الامة وهو الوسط (أمة وسطا) ولو انك الآن استبدلت شكل الدراسة الدينية بشكل جديد يناسب الامم الراقية أو استعنت عليها بما أبرز الله من المصنوعات اقال قوم هذا هو الكفر المبين كان هؤلاء أحرص على الدين من صاحبه واعتبر هذا بحال بخارى اذجاءهم تاجر من أنفسهم يقول ان الروسيا أصرت على أخذ بلادنا وأشار على أميرهم أن يتعلموا ضرب المدافع ويشتروها فاستحسن الامير فكفر العلماء التاجر وأفتوا بقتله فما لبثوا خمس سنين حتى جاس الروس خلال الديار وكان وعداً مفعولا ففارن بين هؤلاء وتمس صاحب الشرع كيف أخذهو بالاحسن فحفر الخندق وكيف وقفوا وقوف العير في الطريق .

ولقد سألهم سائل هاهم الروس دخلوا البلاد وأهلكوا العباد فما كان جوابهم الا أنهم قالوا انما دخلوها ظاهراً ومادخلوها باطنا كأن المسئلة نحوية أو فقهية تؤول على غير ظاهرها ولئن سألت عن الحق في ذلك فلنجيبنك بتوجيه عنايتنا الازهر الشريف فى المقالة الرابعة وما بعدها

المقالة الرابعة

﴿ الازهر والتعليم فيه ﴾

الازهر مدرسة عظيمة كبرى أشهر مدارس العالم تهم الامة المصرية خصوصاً والعالم الاسلامى عموماً . فى الازهر وتوابعه من أبنائنا ما يبلغ نحو الخمسة عشر ألفا فمنهم القضاة والمفتون والمدرسون بالمدارس الاميرية والمفتشون والعلماء وخدمة المساجد وأئمتها والمؤذنون والوعاظ وهؤلاء هم روح القطر

وقلبه فاذا صلح صلحت البلاد واذا فسد فسدت فأهميتهم عظمى فهم مسؤولون والحكومة مسؤولة عنهم أمام الله والناس والرأى العام والامم جمعاء ومن العبث بل من الجهل الفاضح أن يسئل عن الازهر أهله الذين درجوا فيه فشبوا وشابوا ودنوا من الموت فلم يخرجوا الى دنيا غير الدنيا فكيف يعرفون القصور أو التقصير ولئن سألتهم ليقولن هذا نظام سماوى وأمر ربانى تنزل من سماء الآباء والاجداد

وأهم مايدرس فيه الآن التوحيد وقواعد العربية (٥ علوم) والفقه وأصوله والمنطق وماعدا ذلك من الحديث والتفسير والجدل والمناظرة وعلم الاخلاق فهى ثانوية وبعضها يدرس تبركا

التوحيد

هذا الفن يدرس بطريقة جدلية اضطر قدماء العلماء لاتباعها لما كان جهلة المتفلسفين في الازمان الغابرة يشوشون على علماء الدين بأقاويلهم فدونوا هذا العلم للرد عليهم وكانوا يذكرون ان الذات هى عين الصفات وان الله وصفاته شيء واحد وان العالم قديم لا أول له وان الافلاك التسعة ذات أجرام مخالفة للعناصر الاربعة وان الكواكب السبعة يصدر منها السعود والنحوس فى بروجها وهكذا من الاشياء التى تضر بالعقيدة .ومن العجيب انهم كانوا يقولون بقدم الارض والعناصر بل وكل نوع من أنواع الحيوانات ولا جرم ان هذه الآراء كلها قد أبطلتها الفلسفة الحديثة وبنت على أنقاضها فلسفة أخرى حديثه مطابقة تمام المطابقة لما يطلبه الاسلام واعلم انهم لا يزالون الآن في الازهر يردون على مثل هذه الآراء المدفونة تحت الثرى وتنسرب تلك الآراء الى عقول الشبان ولا علم لهم بالعلوم الحديثة التى

أبادت القديمة وبنت على هيكلها قصرا مشيدا جميلا مشابها لما بناه الاسلام ومن العجيب أن ترى الرازى فى تفسير القرآن يحاج أولئك المتفلسفين القائلين بقدم الارض ومن عليها ويبطل دعواهم وهكذا أكابر علماء الاسلام ولم يعلموا فى زوايا الازهر ان أقوال أكابر علمائنا أصبحت الآن هى المذهب الوحيد فى انحاء المعمورة فواحسرتا على أمة خمدت نارها ولم تجد من ينقب عن حالها وينقذها من التهلكة والتخبط والوقوع فى المهواة ولا أشبه تعاليم التوحيد الآن الا بتعليم الصين الذى وضعه حنجتزى الصينى المسمى كونفشيوس قبل الميلاد بستة قرون فتراهم يقرأون كتبه التى مضى عليها قرون وهم لا يعلمون ماحولهم من علوم الامم وانما يشرحون ويحشون كأنهم لها عابدون وكذلك يشبه بعض المشابهة لتعليم اليهود قبل ظهور يوشع بن جمال سنة ٦٤ من الميلاد لقصوره فى الكم فانتشل الصين من هذه الوهدة الآن ماصدر من المنشور الامبراطورى فى هذه السنة بالتوسع فى المعارف ونبذ تلك التطويلات التى لا فائدة فيها وهكذا يوشع بن جمال استبدل طريقة اليهود بأحسن منها ولكنه لم يأت الى الآن بالفائدة المطلوبة وأما الصين ففى الغيب آثارها والمستقبل يظهرها وما أدرى ماسيتم فى الاسلام . لقد كثر المصلحون فيه ولقد نبذ العلماء كل مصلح فى حياته فاذا مات قدسوه وسموه حجة هذا الغزالى وكتبه بين ظهرانيا يقرأها الخاص والعام أمر باتباع الكتاب والنظر فى الخليقة وافهم أن هذا هو التوحيد وقال ان فن التوحيد سلاح لا غير ولا يجوز ان يقرأه الا القليل (وذلك كان فى زمانهم أما الآن فقد حدثت أقاويل أوروبية فوجب دحضها) وقام بعده ابن رشد وناضله فى بعض النقط ثم اصطلح معه على ان هذا الفن فيه خلل وهاهو كتابه مطبوع يقرأه الناس خارج

الازهر لافيه ويقول ان التوحيد يرجع فيه الى القرآن فما للناس لا يقرأون واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا عالما نبذوه حتى اذا مات رحموه وعظموه والموت خير من حياة محاطة بالجهل والآلام . أمر ابن رشد العلماء بعده ان يدرسوا علوم المخلوقات والطبيعية والرياضة ويطبقوها على القرآن ويأمروا علماء الدين بمعرفة العلوم والعلماء بغير الدين ان يتعلموه وان كلا منهما مقصر لجهله بعلم الآخر

ومما استدل به على فساد تلك الطريقة قوله كيف يستدل بالاخفى على الاجلى وهذا البرهان عويص مع ان معرفة الله جلية واضحة لا جهل الجهلاء مع انك تراهم لا يكادون يخلصون الى الله فى المعرفة الا بعد الجهد الجهيد مع التشويش ويدخلون في الاعراض والجواهر وان العرض لا ينتقل ولا يكمن والقديم لا ينعدم وهكذا من المطالب السبعة التى تراها بلا محصل الا مجرد خيال في خيال وكلام فى كلام فلو ان هذا الزمن صرفه الطالب فى معرفة ما أرشد اليه القرآن من النظر فى الحكم التى أبدعها مبدعها وسنها واضعها كما أرشد اليه محكم التنزيل لخرج من الازهر بعد خمس سنين من يضرب بهم المثل فى العلم والقدر وفاقوا نظائرهم فياليت شعرى هل ينبذ المسلمون هذا القول الآن كما نبذه الذين من قبلهم ؟ انا لا أظن ذلك كيف ومولانا العباس أجل وأعلى مكانة وأرفع شأنا وقد تربى تربية الملوك العظام وهو أدرى بالزمان والمكان والحال وانذكر سمو أميرنا بما وقع للعلامة ابن رشد وقد طلب الاصلاح الذى نطلبه الآن من الملك الاندلسى يعقوب المنصور بالله في أواخر القرن السادس الهجرى فما كان جزاؤه مع قربه من الملك وسمو مكانته وحب الملك له الا أن أصدر منشوراً بايعاز العلماء بابعاد الحكيم من

العاصمة ونفيه في قرية صغيرة قرب قرطبه وأمر الملك باحراق كتبه مع انه كان يقرأها سراً وذلك للتقرب من العلماء ليبقوه في الخلافة ولقد كان قبل اضطراب أمره يخاطب الحكيم بلفظ الاخ وكذلك يخاطبه بالاخوة وما كان عاقبة هذه السياسة المبنية على المحاباة والجبن الا أن المسلمين حرموا علم الرجل وحمل اليهود تلاميذه علومه الى أوروبا ونشروها هناك فاحدثت حركة عجيبة وأضحي أهل أوروبا قسمين قسم يتعصب للقديم وقسم يميل لتعاليم ابن رشد وهكذا تغلبت فلسفته عليهم فخرج منهم لوثر الالماني وهو المصلح العظيم وكان ما كان من عظم ملك الغرب وضعف الشرق ولم يظهر في بلاد الشرق بعد هذين الحكيمين مصلحون اللهم الا في هذا العصر وعندنا أمل عظيم أن يكون مولانا العباس أول المصلحين ليقرن اسمه باسم أكابر الملوك ان شاء الله تعالى

المقالة الخامسة

﴿ أسباب انحطاط التعليم في الاعصر الاخيرة ﴾

﴿ ايضاح لما مضى ﴾

ألمعنا فيما مضى الى نبذة مما جرى بين ابن رشد والخليفة يعقوب المنصور الاندلسي ولنذكر الآن نبذة من منشوره الذى أصدره فى بلاد البربر والاندلس وهاك بعض ماقاله بخلدوا فى العالم صحفا مالها من خلاق مسودة المعانى والاوراق بعدها من الشريعة بعد المشرقين وتباينها تباين الثقلين يوهمون ان العقل ميزانها والحق برهانها ـ وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقا ويسيرون فيها شواكل وطرقا ذلك بأن الله خلقهم للنار وبعمل

أهل النار يعملون ليحملوا أوزارهم على ظهورهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء مايزرون ونشأ منهم فى هذه السمحة البيضاء شياطين انس يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون الا أنفسهم ومايشعرون ـ يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب وأبعد عن الرجعة الى الله والمآب (اه)

وجميع المنشور على هذه الصفة المطربة للعامة المفرحة لبسطاء أهل العلم المقتنعين بظواهر مايعلمون وهم عن الآخرة هم غافلون

وبينما ترى مسلمى الاندلس فرحين بهذا المنشور ترى من وجه آخر مسلمى الشرق فرحين بما يسمعون من ذم حجة الاسلام الغزالى ونبذ كتبه فى بلادهم وهجرها وكان القرن السادس محصوراً بين الحكيمين مات الاول فى آخره والثانى في أوله وقد أنذرا المسلمين وحذراهم من الاهمال ونبذ العلوم فكذبوهما واتحد الشرقيون منهم والغربيون على نبذهما وعاندوهما

فان كنت في شك مما ذكرنا فاقرأ باب العلم فى الجزء الاول من الاحياء للغزالى أوالرسالة التى وضعها ابن رشد فى التوحيد وحادثنى فى شأنهما ثم عرج على الازهر تر التعليم فيه لايزال على الطرق التى نبذها الحكيمان مهما اختلفت آراؤهما وتباينت أقوالهما

ضاق الخناق على العلم في الشرق بعد الغزالى فأخذ يهرول من بغداد ومصر وأفريقيا وانطلق بعدو الى جبل طارق فعبرت أفراس صباه ورواحله البحر الابيض واستقرت فى الانداس حتى انتهى القرن السادس الهجرى فقيدها يعقوب المنصور ففك أغلالها وأطلقها من عقالها تلاميذ ابن رشد

وأغلبهم من اليهود الذين كانوا يقطنون الاندلس أيام شباب العلم والدولة والملك فأخذوا ينسلون الى برونسيناوالاقاليم المتاخمة لجبال البيرنيةوأضحت العربية غريبة فى بلاد الاعاجم فكان أول مترجم للفلسفة الرشدية للعبرانية موسى وصموئيل ابناطيسيون وقد هاجراهما وأسرتهما الى لونل في فرنسا ثم أخذ بناصر هذه الفلسفة الرشدية المضطهدة الامبراطور فردريك الثانى أمبراطور المانيا وكان محبا للفلسفة فعهد الى كثيرين ان يترجموا الفلسفة من اللغة العربية الى العبرانية واللاطينية فدارت الفلسفة الرشدية دورتها الدموية بالبلاد الاوروبية اذ اكتسحت من البلاد الاسلامية

ودارت دورات في شرايينها وأوردتها في القرن الثالث عشر المسيحى والرابع عشر والخامس عشر وكان ما كان من جدل وعناد ثم أخذت طوراً آخر فى القرون الاربعة الاخيرة وأخذت التربية أدوارها الى الآن

هذا تاريخ العلم وسير حياته وأين كان مولده وكيف كان مهاجره

فياشرق مطلع الانوار ومجمع العلم ومحط الرحال أين أنوارك الباهرة وأين علومك الزاهرة خلقت حليف التقوى رفيق العلم رضيع الحكمة فلما نقضت عهودها وأخلفت وعودها عاقبك الله على خطيئتك ليكفر سيئاتك وجزاء سيئة سيئة مثلها

قطعت صلة علم حجة الاسلام الغزالى فى آسيا فوجه اليك التتار فتبروك تتبيراً وجاسوا خلال الديار ونهبوا الاعمار وأخلوا الديار — كان لم تغن بالامس — ولكنك لم تجل الحكيم من بلادك ولم تهجه من أرضك وخلا بنفسه عشر سنين من عمره الذى يبلغ ٥٣ ولله لوعاش ٧٥ كابن رشد لنكلت به تنكيلا ولكن سلم بالموت وسلمت من أذاه ولوانك تطاولت عليه بالاذى

ونفيته من بلادك وأجليته من معاهدك لاجلاك التتار كما أجلى الاندلس قوم غلاظ شداد بامر الملك فريدريك والملكة ايزابلا الاسبانيين وكأنهم لما عادوا الحكمة وأجلوها من عقولهم أجلوا من أرضهم

ليس هذا القول خيالا مجرداً أو مثلا مضروبا كلا فللرقى أسباب وللخراب أسباب ولا ريب ان القرن الثالث عشر المسيحى وما بعده أخذ الغرب فيها يخصب بتلقيح الشرق مع ان الثانى تبرأ من العلم وتدلى الى الشيخوخة فأودى به المهلكان ـ الحروب الصليبية والتتار ـ وأثخنوا فيهما قتلا وأسرا وختمت الرواية بجلاء الاندلسيين وموت الشرقيين فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم وأشباحهم كأنها أعجاز نخل خاوية

لو كان للحكمة مجال وللعلم هيبة لادرك عقلاؤهم ماأنذرهم المنذرون وحذروهم

أنذر الحكيمان بنداد وقرطبة وحذراهما نخالفا أمرهما فهل ترى لهما الا آثارا مبدلة ودولا معطلة حل بهما ماتعلمون

ظهور الحكماء فى الامم اما انذار بوقوع الواقعة أو تبشير بسعادة مقبلة وكان القلوب الانسانية زر كهربائى تضغط عليه اليد الالهية فيكهرب الاعصاب فينطق اللسان بما سيكون

ولئن أنذر الحكماء السابقون وساء صباح المنذرين فلعل فى اشراق صباح اليوم بطلعة أنوار تتلألأ بين ظلمات ليل الجهل مما نراه يتزايد آناً فآناً علامة سعادة المستقبل والبشرى

ياقوم ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم للحق وتعتبر بالحكمة ياقوم هل قدت القلوب من الصخر أوخلقت من الحجارة وكم تفجر النهر من الحجر

ونبع الماء من الصخر آما آن للغطاء أن يزال عن الاعين وللغشاوة آن تماط عن الحدق وللوقر أن يزول عن الآذان ياقوم حيا كم الله هاهو الزمان قد استدار كهيأنه يوم شرفنا الاول ـ هاهو نسيم الشمول حيا العقول فتعرضوا له

ان لربكم فى أيام دهركم نفحات الافتعرضوا لها هانحن نذكركم بما لنا فسارعوا لبذل المال وحوز العلم ولا انقلب هذا التبشير بعد هذا اليوم انذارا (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) ولكن أرى ان الزمان قد أقبل فرأيت القول ذاسعة فقلت

والى هنا وقف بنا جواد القلم لنوفي حقه في المقال السادس

المقالة السادسة

﴿ التعليم في الازهر بأجلى مظاهره ﴾

ذكرنا فى المقال السابق ان نبذ الحكمة أدى الى ضعف العقول فتخاذل الرؤساء فخضب وجه الارض بالدماء عقابا من الله على الجهل فانزوى العلم فى المساجـد وعكف العلماء على العلوم الدينية وجمدوا عليها وهم معـذورون فى ذلك ولولا الثقـة بالجزاء الاخروى ماأقاموا له وزناً فهـم مشكورون لاملومون

فلا عجب اذا كان التعليم فى الازهر على ماهو عليه الآن لاسيما وقد ابتلى بالمماليك البرية والبحرية فى تلك القرون ومابعدها فعملوا مافعلوا وزلزلت مصر بهم زلزالا شديداً لاسيما بعد دخول السلطان سليم

واقد وجدت شبها بين تعليم الازهر وبين تعليم الصين وقدماء المصريين ولـكنه الى التعليم الصينى أقرب منه الى المصرى القديم وهو يخالفهما معا فى

كثير من أصوله وأحواله — فتراه يشبههما فى شحن العقل بالمعلومات الكثيرة مما لا يقوى النفس العاقلة — والازهر وان كان فيه حرية حزبية بالاعتبار جديرة بالشرف فهى محصورة فى اقوال مدونة فى الكتب كما سنفصله بعد وتمتاز الصين بالاعمال اليدوية والحكمة العملية مما لا أثر له عندنا

يذكر عن الاوروبيين أحاديث الحرية وظهور الافكار وان لا حجر على أحد فيما يقول ويقولون ذوو الآراء لهم شأن عظيم وجلال في قومهم بل هم كعبة الزائرين ومحط رحال الطالبين ـ فان شئت فقل هذا جميعه عند ابن الازهر يتمتع بمناقشة أستاذه والكتاب الذى يقرؤه ولكم يحاكم المتن وشارحه ومحشيه وتقريرها ثم حاشية أخرى وشرحاً آخر وربما تتناول العبارة عشرة كتب تضم عشرين قولا فيحكم بينها ويقضى بما يفتح عليه

هذه حال الازهرى فى تدريسه يسعى لهذه الغاية فمتى أحكم تلك الملكة وعرف كيف يحكم بين الشيوخ الغابرين في أقوالهم المتناقضة وآرائهم المتشعبة بحيث يكون ثابتاً في آرائه ماضيا فى عزمه قوى الجأش ثابت الحكم كان له القدح المعلى وأخذ المقام الاول فيما بين القوم

هذه هى الفضيلة التى عليها يدور محور نظام الازهر ولن يقرأ فن من الفنون العربية أو الفقهية أو الاصولية أو المنطقية الا والمسمى الحقيقى له هذه الملكة وتحصيل هذا المقصد الشريف ـ فاذاً صار كل مايرومه القارىء اصالة وبالذات هذه الملكة وأما قواعد اللغة والبلاغة والنحو والفقة فانما ترسخ فى ذهن المرء بالتتبع لتلك الملكة وبالطبع لا يبقى الا القليل

هذا هو الاصل والمحور (وقد بلغنا ان فيه الآن حركة كبرى

حولت الوجهة الى الاحسن الاجمل وانما نحن نكتب بحسب عادته السارية)

هذا هو الاصل الذى يفاخر به ابن الازهر كل من على الارض فهو يقول انهم ليس لهم بعد فى النظر ولا طول الباع في فهم مايقال وما يكتب وليسوا بقادرين على المناقشات والمباحثات مثل ماأقدر عليه فهم حافظون وأنا المتعقل — هذه هى الصفة الراسخة التى تحتاج الى عقول كبيرة لتنظر فيها

هذه وان كانت فضيلة فى حد ذاتها مشحذة للاذهان — ولقد ظهرت ثمرتها في أناس نبغوا واختلطوا بالامم الاوروبية في زمن محمد على باشا وهكذا قوم آخرون فى الاعصر الاخيرة فلقد أفادوا الامة ونفعوها بما مزجوا قوة الفطنة بالعلوم العصرية — ولكن يحتاج القول فيها الى بيان شاف .

ذلك ان تلك الحرية محصورة فيما يدرسون وليس الا على الكتب التى درست يعولون

تراهم ينفرون مما لايقرأون . ويحجمون عما لايعلمون . ويقدسون كل مايرون فيها ويسمعون . على ان المتون واختصارها والحواشى وهوامشها لا تخرج الملكة الناجمة عنها الا ناقصة مبعثرة كما قرره العلامة ابن خلدون بل الكتب يجب ان تكون سهلة التناول . أما تشحيذ الاذهان والقدرة والملكة والتعقل التى يفخر بها فأفضل ماتكون بممارسة الاحكام واستنباطها من الكتاب والسنة وقياس المسائل العصرية الحاضرة المتجددة كل يوم وقياس الحاضر بالغائب

ولعمرى لو أبدل كتاب الاشمونى فى النحو بديوان شعرا ونهج البلاغة أو ابن خلدون مع نظم بعض النثر ونثر بعض النظم لخرج التلميذ شاعراً

ناظما حكيما فى مدة قراءة الاشمونى مثلا وهى ثلاث سنين

هذه العقول طيبة جيدة — أما وربك لو انهم أقاموا التعليم الصحيح ونبذوا ماقلدوا فيه تقليداً لخرج منهم الفطاحل وكبار الرجال فى سنين معدودة وأيام محدودة

ملكة الانشاء تحصل بما يقرأه المرء في حياته من الكتب سقيمة العبارات أو صحيحتها — وهل يؤمل فيمن اعتاد العبارات المنسوجة نسيجاً اعجمياً فى الشروح والحواشى الا عبارات تشبه هيئة لغة الفرس في نظمها واشعار شكسبير فى اعتياص اعرابه؟

يدخل الازهرى بين جدران الازهر فلا يسمع الا تمجيد العبارات الصعبة وتقديس الواضعين لها فهل يعد هذا يجد حديثاً نبويا يقول — تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف لك صدقة ونهيك عن المنكر لك صدقة ؟ — كلا — وانما يقول نقرؤه تبركا كما يقرأ القرآن . وتفسيره تبركا اللهم الا آية اشتبه اعرابها . فيعطيها فضل عناية للاعراب لالروحها ومغزاها ويمر مروراً كطيف الخيال اذ العناية موجهة الى ماصعب مناله نحو « ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم » الخ

ابن الازهر في حرية كما قدمنا ولكنها حرية محصورة كحال السمك فى الجابية يسبح فى قليل من الماء كيف يشاء أو كحوت في غدير صغير فهم مختارون في الجبر ومجبورون فى الاختيار . كيف لاوأنت تراه قصر نظره على كتب ألفها المتأخرون قصرت عباراتها عن البلاغة ومعانيها على أمور جزئية يظنون ان الفقه وحده هو أهم مافي الدين وحرموا النظر فى هذه

الحكم المشاهدة للناظرين في العالم وجماله ولا حظ لهم من هذا الكتاب المفتوح (وهو العالم) الا قليلا وسنشرح في المقال السابع بعض تفصيل لما تقدم فلينتظر البيان

المقالة السابعة

﴿ حال التعليم فى الازهر ووجوب اصلاحه ﴾

أخلص القلوب وأنقاها وأحبها الى العلم وأنقاها قلوب أولئك الذين يهرعون الى الازهر من كل حدب ينسلون وتفوسهم مخلصة يعظمون القرآن والحكمة يرون أن الله هو المجازى لهم على اخلاصهم للعلم والتعليم

من معجزات الحوادث وعجائب القدر أن يظهر فيهم العلماء وينبغ فيهم نابغون وهم متروكون فى زوايا النسيان بعيدون عن العمران لا تواسيهم حكومة ولا ينظر اليهم ناظر . قام اخلاصهم واعتقادهم مقام المال والمرشدين والاعوان . أهملوا فلا نصير لهم ولا معين ومع ذلك فتراهم ثابتين على عزمهم مصممين على عملهم كأن الله خلقهم لذلك بفطرهم

أليس من غرائب هذا العصر المبنى على المال أن يكون الازهر حياة مصر الادبية أليست دار العلوم من ثمراته أليس كل كاتب نبيل أو مترجم فانما هم آثار من الازهر الشريف ؟ اذا كانت هذه حاله وهو على ما نرى فكيف به اذا مدت الحكومة له يداً وساعدته بالمال وواسته برجال من أهل العلم والحكمة ومن درسوا فيه دراسة تامة وعرفوا قسطا من العلوم العصرية حتى أشرفوا على التعليمين وأحاطوا بالمكانين فافادوا اخوانهم الاولين ما اقتبسوه من العلوم والحكم وأروهم ان كثيراً من آراء علماء الاسلام هى

السائدة الآن في أوروبا — اذا تم هذا فما يكون حال الازهريين بعد سبع سنين ؟ جنة عرفان دانية الافنان تؤتي ثمراتها كل حين ويؤثر هذا فى نظام الحكومة تأثيراً حسنا وتسير البلاد سيراً حثيثا الى مراقى الفلاح والنجاح

انى أعرف من الذين نبغوا في الازهر ثم تخرجوا من دار العلوم من يعتقدون ان العلوم العصرية هى التى كان يحاول علماء الاسلام بثها بين المسلمين وقد رأيت لهم فى ذلك كتبا كثيرة كلها براهين وحجج واضحة جلية ناطقة موضحة قضايا اكثر العلوم تطبيقا على الشريعة الاسلامية مما لا مجال للشك فيه

هؤلاء أقرب لاخوانهم ومن المحال ان يقبل ابن الازهر الا ممن يفهمه بلسانه ودينه ومن أقرب السم من أولئك المدرسين المتخرجين من دار العلوم ؟

ان العلاقة بين الطائفتين أقرب من كل علاقة سواها . حدثنى أبو زيد السروجى قال . دخل أحد مدرسى دار العلوم الازهر فلقى شيخا فلما كلمه قال يابنى ما هؤلاء يعيبون على الازهر طرق التعليم ويريدون ادخال علم الطبيعية ؟ فقال ابن دار العلوم أما اصلاح التدريس فانى أراه ضروريا ألا ترى اننا كنا نسمع حضرتكم فى أغلب الاوقات تنادون بالويل والحرب من الحواشى والتقارير أليس كذلك فقال الشيخ نعم . فقال . وأنت مع ذلك تستمر فى تتبع الحواشى والتقارير وانى على يقين ان المانع من تركها ما وقر فى أذهان الطلبة ان الشيخ كلما أغرب فى التعقيد وأطال فى التقرير كان اكثر علما وأطول باعا فى العلوم — فكأن هذه العادة الراسخة ان تزول ما بقى على الارض عالم أو متعلم فى الازهر لما بين العلماء من التناظر ؟ فقال الشيخ صدقت ثم

قال له أما علم الطبيعة فانه شيء وهمي سرى الى الاذهان من كلمة قديمة تذكر في الكتب منقولة عن أناس كانوا لا يسندون صنع هذا العالم الى خالق ويقولون انه قديم واذا سئلوا قالوا انه خلق بطبيعته — ومن العجيب ان هذه الطائفة قديمة المهد جدا قبل ارسطاطاليس وسقراط ومن بعدهم وهذا قول نبذه حكماء اليونان الذين نقل ابن سينا حكمتهم الى اللغة العربية ثم هذه الحكمة كانت ذات شعب من النور يخالطها الدخان فاصبحت الآن صافية تسر الناظرين (فقال الشيخ أو أنت تقول بهذا يابني . فقال نعم) ألا يتذكر سيدي قوله تعالى (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) فقال الشيخ ومالنا ولهذه . فقال هذه هي الطبيعة التي تدرس الآن في أوروبا وبلاد الاسلام وهي التي ذكرها الغزالي وابن رشد . هذه الآية تفهمنا ماء الآبار والعيون النابعة في الارض وانها انما جاءت من المطر فينزل على الجبال وفي السهول فيجري في مجار مختفية فتكون الينابيع والعيون والآبار وبينها اختلاف كثير بحسب المعادن التي تمر عليها وما يصادفها في سيرها . ترى الثلوج المتراكمة فوق الجبال تتأتىء شيئاً فشيئاً فتكون الانهار الدائمة هذا معنى الآية ثم قال . أستاذي اني أعتقد اعتقاداً جازما ان معرفة هذه العلوم فرض واجب لانها هي نفس التوحيد . هي نفس مايطلبه القرآن . هي نفس الشرع الاسلامي أنا في غاية العجب من هذا الانقلاب والكفران المبين . كيف يكون ماهو توحيد كفرا ؟ ان الكفر كل الكفر هجر هذه العلوم . ألم يقل الله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام

مختلف ألوانه كذلك انما يخشي الله من عباده العلماء) فقال الشيخ وماهذه الآية . فقال ان الله سمى من عرف هذه العجائب والحكم علماء وخصهم بالخشية ووسمهم بانهم عباده وكيف يكون العلم الذى يطلبه الله وسمينا به علماء كفرا ؛ أم كيف . يحل الضلال محل الهدى . فقال الشيخ وما الضلال فقال أليس مما يقرأ في الكتب ان سبب حرارة ماء الآبار في الشتاء وبرودتها فى الصيف ان الشمس تغرب عندنا وتطلع عند قوم آخرين فيغلى الماء فيصير حاراً فى الآبار مع ان هذا مناقض للآية السابقة القائلة بان الينابيع في الارض من ماء السماء أليس من العار أن نخالف الكتاب المقدس والعالم أجمع فياليت شعرى اذا كانت الشمس طالعة على أستراليا فكيف تتعدى حرارتها الى بئر فى مصر — ان هذه لمن أكبر مصائب الاسلام والمسلمين أن نخالف العقل والنقل . يقول الله الماء منزل من السماء ويجرى تحت الارض ونحن نقول أن هذا من بحر آخر تحت الارض فهذا جهل منا بالقرآن وبما في هذه الدنيا من العلوم فقال الشيخ — هل هذه هى العلوم الطبيعية جميعها وربما كان فيها أمور أخرى تضر بالدين ؟ — فقال له — ان العلوم الطبيعية ترجع الى معرفة النبات والحيوان والانسان والمعدن وغرائبها كما ذكرها علماؤنا وعجائب النور والكهرباء والمغناطيس ونواميس الضوء فى سيره بقوانين تدلنا على عجائب عين الانسان ومناسبتها للمنظار المعظم والحكم الباهرة وكل هذه تدل على حكمة القادر المبدع وهى التوحيد الحقيق ومنها الكيمياء التى تحلل الشيء الى عناصره الاولى وقد أبرز السر المكنون عند علماء الاسلام في قوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) فعجب الشيخ من ذلك البيان وقال زدنى من هذا فكان الوعد غدا ومتى وقفت على ماسيدور بينهما أقص لكم

المقالة الثامنة

﴿ محاورة بين الشيخ والعالم المصرى ﴾

حدثنا عيسى بن هشام قال أخبرنا الحرث بن همام قال أنبأنا أبو زيد السروجى قال دخلت الازهر مرة أخرى فالفيت الشيخ أخذ يبتدىء الحديث مع العالم المصرى فقال انك بالامس لم تجز ان يكون ماء الآبار من بحر متصل بالجهة الاخرى من الارض فلم تكن الحرارة هناك واصلة الينا وأقمت دليلا صادقا فما السبب اذن ؟ فقال العالم العصرى ماء الآبار ثابت على حرارة واحدة صيفاً وشتاء وترى الجو يختلف فيهما حراً وبرداً والاجسام الحية طوع الجو المحيط بها فيكون الماء في الصيف أقل حرارة من الجو وفى الشتاء أكثر فتتأثر اليد فى الاول بالبرودة اذا وضعت فيه وفى الثانى بالحرارة فهذا هو السبب وعليه ترى الآبار والانهار تتطاير منها صباحا ابخرة متصاعدة لملاقاتها لبرودة الجو فكأنها ضباب صغير يراه الناظرون كطريقة تكوين السحاب والضباب والبرد وأمثالها

ولعمرى ان من حرم هذا النظر والفكر فقد أعرض عن الحق واشترى الضلالة بالهدى فصفقته خاسرة وتجارته بائرة فذلك هو الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون فغضب الشيخ وقال ما الضلال الذى تعرض به ؟ فأخذ العالم العصرى يلاطفه ثم قال أنت تعلم انهم يقولون ان الضباب يخرج من دابة تتنفس بخاراً فيملأ السهل والجبل والبر والبحر ولقد بنوا على هذا الاساس انه نجس معفو عنه لعسر التحرز عنه فكيف تبنى مسئلة فقهية كهذه

على خرافة ينبذها صغار الطلبة فى أحقر الامم ؟ أم كيف نبخس هذا الدين حقه وندخل عليه مالبس منه ؟ لعل الذى ظن هذه الخرافة نظر فرأى ثوره يتنفس صباحا فيلاقى الهواء الخارج منه الجو فيصير قطرات كالضباب فقاس هذه عليها أولا يعلم ان الدنيا كقدر والارض قاعه والبحر ماؤه والطبقة الباردة غطاؤه والشمس ناره والابخرة المتصاعدة دواماً بخاره حتى اذا لامس الغطاء وهو هنا الطبقة الباردة تجمد على درجات متفاوتة فكان منه السحاب والضباب ويتكون الثلج والبرد باختلاف الطبقات والحرارة وملامسة البرد

ثم قال العالم المصرى بعد شرح طويل الحق أحق أن يتبع . ان علماءنا السابقين الهادين كانوا على نور وتقى ولقد حفظوا وضيعنا وعلموا وجهلنا وأحيوا وأمتنا . الست تراهم يقولون عند الكلام على الطهارة . المياه التى يجوز التطهير بها سبع مياه ماء السماء وماء البحر وماء النهر وماء البئر وماء العين وماء الثلج وماء البرد ثم يقولون ان الماء المشمس فى البلاد الحارة مكروه استعماله على درجة مخصوصة لضرره بالاجسام ؟ . ألم يذكروا كراهة الاغتسال من الماء الراكد فى كثير من الاحوال ؟ . كانوا يعتنون بالمياه وملاءمتها للصحة وعدمها . فاشدتك الله . كيف يصبح ابن الازهر معرضاً عن ذلك كله اذ الشيوخ اعتادوا ان يفهموه أن قسم المكروه في الشرع لايعاقب عليه المرء الا عقاباً خفيفاً فى الآخرة فتهاون الطالبون في أمر المياه فترى المتدين يتوضأ من الماء راكداً أو غير راكد مفيداً للصحة أو غير مفيد لايراعى أحوال الجسم حتى درج المتأخرون أجمعون على الوضوء والاستحمام من الماء الراكد الممتلىء ميكروباً المضعف للاجسام المميت للضعفاء ؟؟

هذا التعليم ضار بالعقول والاجسام وكيف يحتاط القدماء فيمنعون الماء المشمس لضرره بالاجسام ولا يكون عندنا اليوم نموذج قليل من قانون الصحة حتى نعرف المياه الضارة والنافعة ليعلم الطالبون أن الضرر العاجل اللاحق بالاجسام يجب الابتعاد عنه وينبغي الاحتراز منه كما هي القاعدة الشرعية كل ماأضر بالجسم ينبذه الشرع

ترى العامة في المدن والقرى أقرب الى حفظ الصحة من المتعلم فالاولون لايتطهرون بما تعافه نفوسهم والآخرون يقولون مازاد عن خمسمائة رطل ليس ينجس بشيء وان امتلأ بالعفونات والميكروبات واخضر لونه أواحمر بما نبت فيه أو مادعت الضرورة اليه — أو لم يعلموا أن الطهارة غير كافية وحدها فلنا أجسام ان لم تصح فلا عبادة لنا

حدثني حكيم عظيم من حكماء المسلمين السائحين في أقطار الاسلام انه زار بخارى فوجد القوم يتطهرون من مصنع (صهريج) مملوء ماء قد تغير طعمه ولونه وريحه بالقاذورات ففتكت بالقوم فتكا ذريعا وسرت فيهم الامراض سريان الجهل بالعقول فوعظهم الشيخ بالتباعد عنه فقالوا هذا المصنع كله بركة وما عملنا الا كما عمل آباؤنا الاولون فقال لهم أولو كان الآباء لايفكرون ؟ فقالوا انها طاهرة والماء لاينجسه شيء فقال لهم ولكن الصحة يجب حفظها وكيف يقام دين بلا صحة وقد أشار الأئمة الى كراهة تلك المياه ايقاظا لمراعاة الصحة كأنهم نبهوا الناس الى أمر الصحة ولكن اكثر الناس لايعقلون . فقال الشيخ لا بأس بقانون الصحة اذا كان مختصراً مفيداً. ولكن هناك أشياء اخرى تضر بالعقيدة الدينية في العلوم العصرية فقال العالم العصري ليكن الموعد غداً فانصرفا ليلتقيا غداً وان موعدهم الصبح أليس

الصبح بقريب ؟

المقالة التاسعة

حدثنى محدثى بالسند المتقدم قال اجتمع العالم العصرى والشيخ فقال الشيخ وعدتك أمس بذكر شيء مما يضر بالعقائد الدينية والآن أذكرها فقال نعم فقال الشيخ انكم تقولون ان الافلاك تسعة وسمك كل فلك عظيم جداً والافلاك متماسكة متصلة ويقولون ان سبعة منها فيها السيارات السبعة وفوقها فلك الثوابت وهو الكرسى وأعلى منها الفلك الاطلس وهو العرش بلسان الشرع — أليس يخالف العقيدة الدينية وهى مسألة الاسراء وكيف يكون المعراج وقد حكمتم على الافلاك انلاخرق فيها ولا التئام وانها دائمة ازلا وأبداً لاأول لها ولا آخر فهى أول وآخر فهذه تخالف عقيدتنا من وجهين مسألة الاسراء وقدمها اذ لا قديم الا الله فتبسم العالم العصرى وقال . من أولئك الذين يعتقدون ماتقولون ؟ أعلماء هذا العصر؟أولئك الذين اقروا هذه الهيئة قوم من اليونان ابتدعوها بما خيلت نفوسهم وليس يعلمها أحد على وجه البسيطة الا متفلسفوا الازهر وحدهم يقرأونهافتضر العقائد وتباعد عن الدين ويؤولونها تارة ويسلمونها أخرى وهم فى عزلة عن العالم لايعلمون ماذاجرى فى الدنيا وما الذي عرف الامم وما الذى قال علماؤنا السابقون واللاحقون . ياأستاذى هذه من اغرب مايحدث في دهر الدهار وما يرويه الراوون . ألم تعلموا أن أكابر علماء الاسلام حاربوا هذه الهيئة أزمانا وحاول الفخر الرازى منهم التفكير فى هيئة جديدة تلائم هيئة القرآن وقد أتمها فعلاوقال رحمه الله بعد ان ذكر وجوها عدة ان الاقرب للقرآن ان

الكواكب تسبح في الافلاك كما هو نص الآية . «وكل في فلك يسبحون» وقال مثل قوله ابن العربى فلقد رأيته يقول كشف لى فرأيت الكواكب تسبح فى فضاء واسع وهذا بعينه ما اكتشفه العلماء المحدثون كما هو رأى العلماء قبل بطليموس فطاح ما كنتم بالازهر تدرسون وضاع مايضاد الدين وأنتم لاتعلمون ؟؟ ولو سألت أصغر تلمذ في أى مدرسة من مدارس الدنيا وقلت له هل الافلاك تمنع الاسراء وهل هى قديمة لانبهر من سماعه هذا السؤال وعده قولا غريبا

يقول علماء العصر ان هـذه الدنيا ستتبدل وتتغير ويأتى خلق جـديد (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) ولو سألت دولة الغازى مختار باشا لشرحها لك شرحا تعجب منه وتعلم ان الامم الراقية سبقتنا مراحل فانى تصرفون ؟فنحن كما في المثل المشهور (التمس من محبيه النجدة فى دفن أبيه فتولى وجرى)

فقال الشيخ اذن كأنك تلزمنا بقراءة الهيئة الجـديدة وكيف نقرؤها وما للدين والعلوم ؟ وهل تريد ان يكون ابن الازهر يعلم كل شيء ؟ أتريد ان يكون فلكيا مهندسا طبيبا يداوى الجراح والعيون فيلسوفا ؟ وهل يتقن المرء الا فنا واحدا في هـذه الحياة القصيرة ؟ فقال ومن ذا الذى يريد ذلك وهو المحال ان تلاميذ المدارس ليقرأون من كل فن طرفا في المدارس الابتدائية والثانوية حتى اذا وصلوا الى المدارس العليا حصروا هممهم في فن واحد على حسب ماتتوجه اليه رغباتهم . ترى المهندس يعرف مبادىء علوم الطبيعيات والطبيب يعرف مقالات الهندسة الثمانية وذلك ليكون بينه وبينهم علاقات وصلات والاعاش بين أقرانه غريباً نافراً وحيداً . فمبادىء العلوم صلة بين

رجال الامة على اختلاف مشاربهم وتباين أغراضهم — أيحسن بابن الازهر وهو العظيم القدر القديم الشرف أن يجهل مبادىء العلوم ويعيش فريداً طريداً اينبذ الناس وينبذونه ؟ فهذا سبب أول والسبب الثانى ان العلوم بينها وشيجة نسب ورحم وقرابة فوجب صلتها وما العلوم الا كشجرة ذات ساق وفروع لها علاقات يستمد بعضها من بعض فمن وقف على علم واحد ولم يدر مبادىء العلوم الاخرى ضاعت ثمرة علمه وتقر المتعلمون الآخرون منه . وهل تنكر سيدى مايذكره علماء التفسير في مئات من الآيات القرآنية على الفلك والطبيعة — أولا تتذكر مانقله الشيخ الجمل فى حاشيته على الجلال (التى تدرس فى الازهر دراسة رسمية) عن العلامة زاده فى تفسير قوله تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) فانظر كيف شرح اختلاف الليل والنهار هناك بطول البلاد وعرضها فكل بلد كان أقرب الى خط الاستواء كان اختلاف الليل والنهار فيه متقاربا ويشتد الخلاف بالتباعد عن خط الاستواء الى جهة القطبين فيكون أحدهما ١٤ ساعة و ١٥ أو ١٦ وهكذا حتى يصل أطول نهار عند القطبين ستة أشهر وهكذا أطول ليل . فتكون السنة كلها يوما وليلة كما ان كلا من الليل والنهار عند خط الاستواء ١٢ ساعة وهناك ترى أعجب مايدرسه الناس وأغرب الحكم وأعجبها وترى الشمس وأنت فى تلك الاقطار الثلجية تلقى أشعتها الجميلة فتنعكس على ذلك الثلج الناصع فتبرز ألوان زاهية زاهرة بهجة لتسر الناظرين وتأخذ بالالباب وتراها فوق الرؤوس تدور دورة رحوية (كما تدور الرحى)

والسائحون يشاهدونها تتم دورتها كل ٢٤ ساعة مرة وبين أيام خط

الاستواء والقطبين درجات تختلف ما بين ١٤ ساعة كما في مصر و ١٥ وهكذا الى شهر وشهرين وثلاثة في جنوب الروسيا شمالا وفى الاقيانوس الهادى جنوبا حتى القطبين

هذا كله اختلاف بالعرض — وأما الاختلاف بالطول فترى ان مصر تطلع الشمس عليها قبل مراكش ومراكش قبل أمريكا وأمريكا قبل أستراليا وأستراليا قبل الهند وهكذا — هذا تفصيل ما أجمله الشيخ زاده فى الحاشية التى تدرس فى الازهر الآن وأنا تلقيتها عنك . فقال الشيخ : صدقت هذه حقيقة تفهمنا معنى القرآن

ثم قال العالم المصرى حينئذ التوحيد الحقيقى معرفة مثل هذه فمن أراد معرفة الله فلتكن بهذه العجائب المدهشة — أليس هذا هو اختلاف الليل والنهار . أليس هذا هو الذى يطالبنا به الدين والقرآن

طاحت هذه الامة وضاعت فلا صلة بين رجالها ولا مرشد لعقلائها — هذه الحقيقة يعلمها طلاب العلوم في المدارس ولا يعلمون ان هذا مطلوب دينهم ويجهلها عالم الدين وهو المأمور بها . أليست هذه احدى الكبر وأشنع العبر وأفظع ماجرى للبشر (فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) فشا الجهل فى هذه الامة فطاحت بهم الطوائح وأودت بهم الحوائج وتقطعت الافئدة بين الجوانح فلا معين ولا نصير وسنذكر ماجرى بين الشيخين فى المقال العاشر

المقالة العاشرة

اجتمع العالم العصرى والشيخ الازهرى فابتدأ الشيخ يقول — ذهب الزمان وضاعت الآمال . فقال العالم العصرى ماذا جرى ؟ فقال ظننت فيك الصدق والاخلاص والعلم والورع والغيرة على الدين والسير على سنن المتقين حتى اذا خبرتك خابت آمالى ووقعت فى أوحالى — ألم تر كيف تصدق بعلم الفلك وهو الذى اختلت حركاته واشتبكت دوراته من أزمان ان وقفت الشمس ليوشع فتى سيدنا موسى عليه السلام فاضطرب في سيره ومشى متعثر فى خطواته فقال العالم العصرى عجبا أو مثلك يعتقد مثل هذا أيها الشيخ ؟ ان هذا تكذيب للقرآن ومنافاة للحكمة والدين

انا لا أذكرك بعظمة الشمس وبعدها والكواكب وعظمتها وسرعة حركاتها وان شمسنا كوكب صغير منها ومع ذلك فهى أكبر من الارض نحو مليون و٣٠٠ الف مرة ولا عظام أمر النجوم اقسم الله بها فقال «اقسم بمواقع النجوم» ثم أعظم القسم واكبره فقال « وانه لقسم لو تعلمون عظيم» ولو تأملت حركات الارض حول الشمس وحول نفسها وكذا الشمس حول كوكب آخر لعجبت عجبا والف عجب ورأيت من الحكم مالم يخطر على بال المقلدين ولرأيت حركة الارض حول نفسها أسرع من قنبلة المدفع مرة ونصفا فى دورتها اليومية ومائة مرة في دورتها حول الشمس وثلاثين مرة فى دورتها مع القمر والشمس حول آخر وقلة المدفع تجرى فى الدقيقة نحو عشرة أميال فلو رأيت حركة الشمس مع كواكبها وسياراتها وهى تزف كعروس حول نجم آخر وهى تجرى في الدقيقة ٣٠٠ ميلا وتمر أسرع من

المدفع ٣٠ مرة لهـا لك المنظر — فمن ذا الذى يتصور مثل هذه العظمة ولا يخر لمن يراها ساجدا ويخضع لحـكمة قاهرة وعظمة باهرة وأذن يفهم قوله تعـالى « والشمس وضحاها والقمـر اذا تلاها » فهو تابع لهـا في الحركة مشايع لهـا فى سيرها يزفها حول نجم آخر هو والمجموعة الشمسية

أنا لا أذكرك بمثل هذا فهو واضح لامنالك من العلماء الذين مارسوا التفسير ووقفوا على خفاياه — بل لا أذكرك أيها السـيد بقوله « الشمس والقمر بحسبان » مقدر فى علم الميقات ساعات ودقائق وثوان لا تتغير ولا تتبدل فهو واضح لديك معلوم بالبداهة — ولم أكن لاذكرك باختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان واستدلاله على حكمته وعظمته بهما وبنظامهما وحكمهما

وان الخجل ليمنعني والحياء ليلجمني ان أقول ان من أشد الجهل والتباعد عن العقل الذهول عن آية الـكتاب (هو الذى جعل الشمس ضـياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السـنين والحساب ماخلق ذلك الا بالحق يفصـل الآيات لقوم يعلمون) فـكيف يكون اختلال الدوران والمنازل مقدرة وعلم الحساب مقدمتها والجبر رائدها والهندسة نبراسها

ولا جرم ان هذه معلومة عند أسفل الطبقات ألا ترى الساعـة التى فى جيبك كم هى الآن فقال ٣ بعد الظهر فقال العالم العصرى نحن ماعرفنا الزمن الا بالساعة المبنية على حساب الفلك وهو مبنى على سير الـكواكب فلولا انتظامها في سيرها ماصحت صلاتنا ولا صومنا وافطارنا ولتعطلت حركاتنا فى ذهابنـا وايابنا — ولو اضطرب الفلك لاصطدم القطار وطاح البخار وأضحت الدنيا قاعا صفصفاً

لم يغب عن الفلاح فى حقله نظام النجوم والشـمس فاهتـدى بف

الشواخص اذا تناوب العمل مع شركائه بل عقله الطائر في وكره فنرد اذا انبلج الفجر ولمع النور وتبادل العمل مع انثاه في حضن يبضه فى ساعات محدودة مقدرة تبع سير الضوء فى النهار والليل

لم أرد ان أذكرك بما مضى كله لوضوحه وضوحا جليا لدى العجماوات فضلا عن الاناس — ولكن أريد ان ألم لك بمسالة السنة الشمسية والقمرية وماأشار لهما الكتاب الا لنتبين الهدى من الضلال فى آية (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) — يقول زيد لعمرو وهو فى حقله جالس وفأسه بجانبه هل صمت رمضان مرة أخرى فى الشتاء فيقول نعم فيتناقشان الحساب كم بين المرتين من الزمن فيتراوحان فى التقدير مابين ٢٠ و٣٠ سنة ولتقريبها أفرض أن أول يناير من سنة كان ابتداء شهر عربى ثم تربصنا يناير الثانى اذن نجد أنه قدمضى ٣٦٥ تقريبا ونرى القمر دار ١٢ دورة وزاد نحو ١١ يوماً أى أنه أتم الدورة الثانية عشرة قبل أول يناير من السنة الثانية بأحد عشر يوماً فالسنة المبتدئة بيناير والشهور القبطية التابعة لسير الشمس المنضجة للثمار والبقول والزروع اذا مضت ثلاث وثلاثون سنة منها زادت السنين العربية سنة تقريبا ٣٣ × ١١ ═══ ٣٦٣ يوماً وهى قريبة من السنة — فالفرق ثلثمائة سنة يبلغ نحو تسع سنين

هذا يؤخذ من قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا)

ومارأيت في هذه الحياة أعجب ممن يظن الهدى ضلالا والسعادة وبالا والخير شراً — يقول الكتاب (قل أنظروا ماذا فى السموات والارض) ويقول قوم — النظر كفر — (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وهم يقولون لاتقدير الآن فقد آن أوان خراب الارض وليذهبن الاسلام

ويذهب السلام ويعم الخراب ولا يبقى الا الكفران — اللهم غوثاً من عذاب الخزى المهين

المقالة الحادية عشرة

قال الشيخ للعالم العصرى هاأنا أيقنت بأن علوم الفلك وما يتقدمها من الرياضيات مطلوبة للدين لسببين — توحيد الخالق — وأعمال الحياة — وان لاسعادة في الحياة ولا نور في الدنيا الا بمزاولة هذه العلوم والقول بالمنافاة كان غفلة من الغافلين وسهواً من القائلين ولكن أنا اليوم سائلك عن علوم الطبيعة فقد أجملت فى مقالك السابق وأدمجت فيه ادماجا فقال العالم العصرى هل أتاك نبأ الاحجار الساقطات ونظامها فى سقوطها فلو أنك راقبت حجراً نزل من سقف عال أو جبل شاهق لرأيت ثم حكمة نطق بها الكتاب وهى انه يسرع فى سقوطه اسراعا مقدراً بالتربيع فلو كان فى الثانية الاولى سرعته أربعة أمتار لكان في الثانية الثانية ١٦ متراً فتربع ٢ فيصير أربعة ويضرب في أربعة وهكذا تراه فى الثانية الثالثة ٣٦ فتربع ٣ فتكون ٩ وتضربها في أربعة وهكذا يتزايد بالتربيع — هذه مسألة نطق بهاالكتاب قبل هذا العصر بقرون كثيره فقال « وكل شيء عنده بمقدار » ومن ذا الذى كان يظن ان في الحجر وسقوطه علما وحكمة وتقديراً وحسابا حتى يعلم مايقول الكتاب « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » .

ألا أدلك على ماتروقك حكمته وتدهش لسماع آياته — هذه مسألة الذكور والاناث في النبات وان لها نواميس في حياتها ونظامها الزوجى وان

الزواج والطلاق ليسا خاصين بنوع الانسان وان للزهرات في النبات أياماً تتراوج فيها وان هذا الجمال الزاهر في وجوهها الباسمة على فروع الاشجار حبالة صيد وشبكة قنص وحيلة محتال لبقاء حياتها كما كان الجمال في الانسان لاجتذاب الافئدة والتراوج الناجم عنه النسل حتى تتم لنا السعادة فى الحياة

كم مرة تنظر النحل والحشرات وهى طائفة على الاشجار تغنى حول الزهرات دواخل فى زهرة واحدة خوارج من أخرى حاملات حبوبا ناعمات كالدقيق من زهرة ذكر واضعاتها في الانثى وربما رأيت الزهرتين في شجرة واحدة وربما كانتا من شجرتين فالنحلة تسبح بحمد ربها شاكرة على شمع جمعته وعسل جنته والزهرة تتقبلها قبولا حسنا بحللها الجميلة ومناظرها البديعة احتفالا بالعرس واقامة للزينة وابتهاجا باللقاء ولعل هذا الزواج زواج بالبريد ولن ترى نحلة يوما ضلت طريقها فى غدوها ورواحها فلو افتتحت العمل صباحا فى مقثأة خيار لم تعدل عنها الى مقثأة بطيخ بل تلازم عملا واحداً لحكمتين شريفتين اقتصادا لزمنها فى عملها فى دخول الزهرة فلا تحتاج لمعاناة أعمال أخرى في زهرات غيرها ووصول الطلع من ذكور هذا النوع الواحد الى اناثه وهذه نطق بها الكتاب فقال في النحل « ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا » فجعل طرقها مذللة مسخرة لئلا تضل في عملها وسيرها ويقول فى الالقاح « وأرسلنا الرياح لواقح » ويقول « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ويقول « ومن كل شيء خلقنا زوجين » واذا لم تدرس هذه العلوم فما الذى ندرس

غفل عن هذه الحكم الغافلون وأدركها المستبصرون وربما ظن قوم ان هذه لم تكتشف الا في عصرنا ولو قرؤا ماسطره الفارابى فى الاعصر

الاولى لايقنوا ان العلم سلسلة واصلة من مبدء الخليقة الى الآن وانه يأخذ أساليب باختلاف الامم والمشارب والاذواق

وكان علماء الاسلام المستبصرون اذ ألفوا السواد الاعظم من اخوانهم عاكفين على الفقه والنحو وجدل التوحيد والخلاف والمناظرة وضعوا مثل هذه الحكم تحت اشارات ورموز ومتى عثر أولئك الغافلون عليها رموهم بالزندقة والكفر مسدلين بذلك ستاراً على جهلهم ثم يدلون الى الامراء فيغرونهم بهم فيطيحون مع الطائحين ثم عثر عليها علماء عصرنا فابرزوها نقية واضحة يفقهها المتوسطون ولا كتف بهذه النبذة فهى تبصرة وذكرى لقوم عاقلين

المقالة الثانية عشرة

ثم قال العالم العصرى للشيخ هل علمت مايدور فى انحاء آوروبا والشرق من قولهم تعصب دينى وان المسلمين متعصبون ودينهم ينفر من المدنية والحضاره وعلوم العمران وهم ظالمون للنساء متباعدون عن الاعمال يأمرهم دينهم بالكسل وينهاهم عن العمل ؟ فقال الشيخ كلا فقال العالم هلا خضتم فى بحار هذه المعانى فابرزتم للناس كنوز العلم المدفون تحت جدران الازهر فكم حض على العمران واتخذ له نواميس وبنى لها أسسا متينة وانبأ عن خراب الدول وزوالها من الوجود فجاء فى الحديث أن من علاماتها أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال وان يختلط نسل الامم وتتخذ السرارى والاماء فتنشأ أجيال مختلطة الدماء وأن يعم الترف فيتطاول رعاة الغنم فى البنيان . ولا ريب أن الترف والنعيم

والاسراف فى الشهوات وكثرة السرارى كانت سبب سقوط دولة بنى العباس فملكهم عبيدهم ومماليكهم كما أنبأ الحديث وكانت نهايتها بعد ظهور حادثة القسطنطينية بدخول محمد الفاتح كما أنبأ بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ولو علمتم الناس ماورد في الحديث أن من امارات سقوط الدول وقيام قيامتها أن تلد الامة ربها فيتزوج رجالها اماء من أمم بعيدة عنها أخلاقا وتاريخا وأصلا وأرضا ثم قرأوا ماقضى به الحكيم الانجليزى اسبنسر للحكيم اليابانى اذ سأله أيتزوج اليابانيون من الاوروبيين فقال « الا لا يتزوجن يابانى أفرنجية لئلا يضعف الولد الناتج من أبوين مختلفى الاقليم والعوائد والاخلاق كالحمل المولود من أبوين مختلفين من الغنم . فلو قرأ الناس ذلك وعلموه لدهشوا من أن نهاية أبحاث علماء العمران في هذا العصر بداية علوم الاسلام لا المسلمين فى القرون الخالية ثم ان كثرة النساء وقلة الرجال كانت من علامة خراب الدول كما ظهر في السودان اذ قتل الظلوم المشوم عبد الله التعايشى الرجال واستحيا النساء فلو مررت في بعض قراهم لرأيت فيها العشرين رجلا وألف امرأة فيكون للخمسين امرأة القيم الواحد فكانت هذه امارة تبدل الدولة من حال الى حال وهكذا كثرة الزنا تقل النسل كما فى بعض أمم أوروبا التى أزالت نظام الزواج . وهلا أفهمتم الناس ماورد في الحث على الائتلاف والمودة بيننا وبين الامم الاخرى من قوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » حتى يخسأ الذين يرموننا بالتعصب الدينى ؟ وهلا برزتم الى الناس فقلتم لهم ماقال الله « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من

المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » فأحل لنا مخالطتهم ومعاشرتهم أكلا وتزوجا ولن يتم ذلك الا مع المودة الصادقة

ولو أبرزنا للناس المنشور الصادر من النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك لعلموا كيف يأمر الاسلام بالاتحاد والائتلاف مع الامم ونبذ الاستبداد فى الاحكام وهذه نبذة مما كتبه الى قيصر عظيم الروم (ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله) يريد اننا نتحد وجهة وعملا فلا يكون أحد سيدا والآخر عبداً بل ان يكون أمرنا شورى بيننا

أيها الاستاذ جهل الناس أمر الاسلام فصاروا يظنون أنه دين الكسل لا العمل ولن تراهم يذكرون الا قوله (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) حتى يظن القارىء انه ليس فى الاسلام الا هذا في الحث على العمل وفيما قررناه فى مجالسنا السابقة من الحث على جميع العلوم من علوية وسفلية مقنع لمقتنع ولنزد الآن قوله (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) وقوله (قل سيروا في الارض فانظروا) وقوله (أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فوسم الذين لا ينظرون فى أحوال الامم بميسم العمى وابّد عليهم عمى القلوب وهل نسير فى الارض الا ببخار وكهرباء ولغات وزاد وأخلاق نخالط بها الامم

ثم قال العالم العصرى للشيخ هل تتذكر شيئاً مما ورد فى الشفقة على النساء ومعاملتهن وحقوقهن فقداتهم الاسلام بظلمهن فقال الشيخ ظلم النساء واتخاذهن لهواً ان كان فهو عادة والا فهاهو الكتاب يقول « وعاشروهن

بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » يأمر بالمعاشرة وامساك المرأة مع الكراهة ويعد المؤمن بالخير والجزاء على صبره ويقول « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » فساوى بين الصنفين فى الحقوق وفضل الرجال ولقد أوصى عليهن النبي صلى الله عليه وسلم في يوم حجة الوداع اذ قال « استوصوا بالنساء خيراً ألا هل بلغت اللهم فاشهد » ولم يكتف بالوصية بل كان أكرم الناس عشرة معهم وكم كن يغلظن فى القول وهو يصبر عليهن بل روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « قالت النساء للنبى صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان فيما قال لهن « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها الا كان حجابا من النار فقالت امرأة منهن واثنين قال واثنين » (اه) فقال العالم العصرى فلو ان مثل هذا النور المبين برز للناس لألجمت أفواه أعداء الاسلام فى الغرب ولعرف جهلة الشرق حقيقة أمر الاسلام فقال الشيخ لن يتم هذا الا باصلاح الازهر وختما جلساتهما بقانون سنذكره بعد

المقالة الثالثة عشرة

اجتمع الشيخان في اليوم التالى فقال الشيخ للعالم العصرى انى بما قرر في المجالس السابقة مقتنع بأن هذه العلوم الطبيعية والفلكية تناسب مشرب الدين بل هى التوحيد بعينه وانى بعد انصرافى من المجلس قرأت الليلة عن أكابر المتقدمين ان العامى يعرف الله معرفة تفوق معارف من قرأ التوحيد بهذه الطريقة المشؤومة التى تحصر المعرفة فى أمور جدلية لا تفيد ولقد صرح

بها صاحب الجام العوام عن علم الكلام ولقد وقر في نفسي هذه الاشياء وتذكرت كثيراً مما كتب الاقدمون في أثناء الحواشي من عجائب هذه الدنيا وتحققت أننا ان رفضناها أضعنا مابقي في أيدينا من هذه الحياة وبهذه العلوم ننال سعادتي الدنيا والآخرة فاقر رأيهما على ماسيأتي

١ يجب ان يدرس في الازهر مبادىء تخطيط البلدان

٢ سير مشاهير الرجال مقتصراً فيها على علو الهمم والسعادة في الحياة وأن ينبذ كل ماشجر بين الصحابة بتاتا ولا يذكر الا فضائلهم وشجاعاتهم

٣ السيرة النبوية واستخلاص صورة منها تؤدي بالناشئين الى حب النبي صلى الله عليه وسلم واعظامه ومعرفة شجاعته وسياسته

٤ جمع الاحاديث الصحيحة التي لها مساس بالاجتماع والحياة والرقي وكل ماله شأن في سعادة الحياة والآخرة ويجعل كتاباً واحدا تؤلفه لجنة مشكلة يرأسها شيخ الجامع للازهر وتقر عليه المشيخة وينشر للملأ وأرباح ثمنه تصرف لمنافع الازهر والعلماء والمجاورين

٥ استبدال بعض كتب المتأخرين بكتب المتقدمين وتؤلف كتب جديدة بعد تحسين العبارات بممارسة كلام العرب

٦ جعل الاصول بهيئة تجعل في الطالب قدرة على الاستنباط

٧ مبادىء التاريخ الطبيعي وشرح الآيات به وليس هذا تطبيقا بل هو شرح وتوضيح وهو يدرس في أربعين درسا

٨ مبادىء الهيئة وهي تدرس في ١٠ دروس

٩ ان علم الهيئة القديمة المختلطة بعلم التوحيد يضر بالعقائد وينافي الدين فيجب ان تنتقى كتب خالية من هذا التعقيد والتشويش

١٠ معرفة مبادىء قانون الصحة وابراز ماتأمر به الشريعة المطهرة من النظافة والاستحمام والتعطر من القوة الى الفعل فان الطالب يقرأ هذه ولكن ضيق ذات يده لاتمكنهمن غسل ثيابه الافى ترعة أو نهر بنفسه

١١ اظهار كتاب السبق والرمى وهو فى الحقيقة أخوفن تمرين الاعضاء وترويضها فان هذا الفن يدرس في الازهر وضيق المكان والفقر المحيط بالسكان يمنعهم من اجرائه فقد ذكر العلماء المسابقة على الخيل والمناضلة بالسهام واعطاء الجوائز وان هذه سنن اسلامية وترى المجاور يقرؤها من أول سنة يدخل فيها الازهر ولا يعمل بها أفلا ندرس منه على الاقل الاخشيشاب « الجمبز » « الجمباظ » وتمرين الاعضاء علما وعملا وهو مهم جداً — وقد وضع العلماء له كتابا مخصوصا سموه كتاب السبق والرمى كما ذكروا كتاب الصيد

— كل هذا فى الازهر وأهله يقرأونه وهم ساهون والذين فى الخارج به لا يعلمون

١٢ النظر فى الكتب وتشكيل لجنة يحضرها جم من ذوى الآراء والعقول الكبيرة من الامة وينظرون فى المعاملات والاحكام واستخلاص قانون مسنون من المذاهب الاربعة يلائم هذا العصر كما فعلت الدولة العلية — وفي فتاوى علمائنا ألف وثلاثمائة ما يكفى كل متشرع ويستبدل به القانون الاوروبى

١٣ طلب مال من الحكومة والاوقاف وأغنياء الامة يعين على هذه الاعمال العظيمة

١٤ الامتحان يجب أن يكون تحريريا وشفهيا في كل سنة من سنى التدريس

لاسيما امتحان العلماء ويكون بدرجات سرية

١٥ عرض هذه الآراء على أولياء الامور ومشيخة الازهر ورجال الامة وعقلائها وخديوينا المعظم فانما هذا رأى اثنين وهو يقبل التمحيص والتنقيح والنقص والزيادة وما قلنا الا بما علمنا وفوق كل ذى علم عليم

المقالة الرابعة عشرة

أنواع السعادات

اذا قنع الفتى بلذيذ عيش ... وكان وراء سجف كالبنات
ولم يقر الضيوف اذا أتوه ... ولم يك مطعما فى النائبات
فقل للنادبات اذا بكته ... الا فاقصرن ندب النادبات

سعادة المرء مايواتيه من موافق لادراكه ومناسب لحاله من ضروب اللذات الملائمة لذوقه والمناسبة لمشربه

ولست أحفل بتلك التي توافق حاسة اللمس مما يواتيها من ضروب الشفوق كالديباج والسندس أو الذائقة من طعم لذيذ أو مايلائم القوة الشامة من العطر والريحان أو الاذن من النفحات المطربات أو محاسن الصور والجمال الملائمة لحاسة البصر فليس قولي في هذه اذ هى سعادات موضعية وقتية يشترك فيها أسفل الطبقات من الامم وأعلاها وأرفع القوم وأدناها بل تتعدى الانسان للحيوان الاعجم — ولست أعني بالسعادة مايلهو به الصبيان في ناديهم من اللهو واللعب والكرة وذلك فى سن مناسب له وقد جعل ذريعة لسواه مقدمة لاعلى منه للعمل والجد — ولست أعنى بالسعادة تلك التى عند الفتيان والشبان من حب الزينة والجمال والبهاء فذلك غير خاص

بالانسان فالطاووس يشركه والديك يزاحمه . وما أردت بقولى سعادة المال وادخاره واجتماع العروسين وزفاف الزوجين فالادخار والاقتران فى شرائع النمل وقوانين النحل وسنن القرود وكلاب البحر — ولم أرد الفخر بالمال والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث فذلك الفخر ظل زائل وأمر طائح

وهؤلاء الذين ذكرتهم وان أحسوا بسعادات فهى وقتية موضعية تزول مع كرور الدقائق وتمر مر السحاب كأن لم تغن بالامس — وهل السعادة الا ماتتجدد بذكراه بهجة الضمير واحساس القلب وشعور العقل وذلك خصلتان مال تنفقه وعلم تنشره

أولئك الذين ينفقون أموالهم وينشرون حكمهم يرون في نفوسهم من سعادة القلب مالا يدركه صبيان الرجال وأطفال الاموال فلو كشف لك عن قلوب أولئك الباذلين وقرأت ألواح بصائرهم لرأيت سطوراً من النور مكتوبة يكاد سنا برقها يذهب بالابصار وهى كما قال ارسطاطاليس (أم حنون) تغنى لهم اذا ناموا وتوحى اليهم اذا استيقظوا ترضعهم لبن الافراح والمسرات مسرات الارواح لاغذاء الاشباح — منفق المال وناشر الحكمة رضيعا لبان وهما اخوان جاء ذكرهما فى الحكمة النبوية وفي البخارى

لاحسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكه فى الخير فهو ينفق منه سراً وجهراً ورجل آتاه الله حكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس

لا يغرنكم أيها القوم ماترون من ذوى غنى ويسار فلن يتمتعوا بما أوتوا فى هذه الحياة الحقيرة — ألا ترون ان سعادات أطفال الرجال حقيرة بل معدومة اذ الالتذاذ المادي يتناقص كلما تزايد العمر ويحل محله السرور

العقلى والفرح الروحى فترى المرء بعد ذهاب شبابه يبحث عن نجاح ابنه وعن قصص ليسلى به روحه وعن ماضى تاريخ حياته فتحيا اذذاك ذاكرته وتضعف مخيلته وقد ركزت هـذه في المرء ليعلم ان السعادة قد انتقلت من حال الى حال وانه انتقل لدور الرجال

واذا أدرك البخيل أن له فرحاً بنجاح ولده فى مدرسـة فليتذكر ان باذل الاموال الكريم اذا افتتحت المدارس باسمه وعمرت الدور بماله فدعت له الارملة فى جوف الليل البهيم ونجح اليتيم فى امتحان الشـهادة وصرفت الجائزة باسمه ثم يمر فيسمع ثناءه عاطراً فى المجالس والاندية والمحافل أفليس مايلقاه من المسرة بكل تلميذ نجح وبكل أرملة غنيت يعادل فرحـه بابنه فيكون سروره مقدار هذا ألف مرة أو آلافا

ولعـمرك لن يفقه مثل هذه السـعادة الا ذائقوها ولن يفهمها الا مجربوها وهل يعرف الشوق الا من يكابدونه أو الفضل الا ذووه

فمـا أسعد ذلك الجواد في حياته اذ يرى ثمرات أعماله بادية رأى العين فيظل في ظل ظليل من مقدمات الجنات ثمراتها دائمة كشجرة أصلها ثابت وفرعها في سماء القلوب تؤتى أكلها كل حين فأينما حل أو ارتحل عظمتـه القلوب وشكرته الالسنة وبجلته الجموع . أذلك خير أم هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلو ان عليه أسورة من ذهب وحوله العسكر المطيعون واحتفل به الخادعون وأحاطت به الخيول المطهمة الحسان وساورته الشهوات من النسـاء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والانعام والحرث والعربات الجارية والحدائق الغناء والكبرياء والجبروت فاعلم ان ذلك محروم من لذاته ليس له نصيب من ثروته وهل له منها الا ماملا الجراب ودارى

الجسم من الثياب ومازاد فينظر له نظر الاعمى الى الآداب ويراها كأنما هي ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها جالسه وحادثه تجده يتأفف من الزمان والمكان والايام وأهلها ومن الخدم والحشم ويذكر الايام الماضية فى القرون الخالية — وقد يسر بالمال غير جامعه فلا تغرنك تلك الزخارف والقصور المشيدة وهون على نفسك فلن يحس مالكها بها متى مر عليه شهر أو شهران بل تصير معتادة له كأنما كان يملكها من صباه فهو في غمرة من الساهين والناس يظنونه فى نعيم — مثل الفريقين اذا ماتا كمثل الاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا — راقب رجلين من الاغنياء -- ترى ذلك الذى أنفق ماله اذا اضطجع على فراش الموت وأحضرت ذاكرته ماصنع فى حياته — أحضرت فيها تلك المدارس المشيدة والصبيان الذين صاروا رجالا عالمين عاملين ثم يتذكرانهم اصطفوا صفا وقد أحضرتهم ملائكة البشرى بين يديه في عالم العقل وطافوا به ثم يعلم أن هذه أول سلسلة ستدوم وتتضاعف أبداً كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة وكل حبة أنبتت مائة سنبلة وكل صبي تعلم فربما تعدى أثره الى مئات من غيره وهكذا وربما ظهر فيهم الحكماء والمصلحون والسياسيون فهل يقدر أحد أن يحصى هذه السعادة عند موت مسديها ؟ وماذا نريد من الحياة الدنيا اذا خرجنا بمثل هذه النتيجة الظاهرة الواضحة فبشراك أيها الجواد فما عشت فانك السعيد واذا مت بكتك الباكيات فى جوف الليل وندبتك النادبات اللاتى لم يرينك قط وتقطعت أفئدة الفتيات عليك حسرات وزرفت لفجعك الدموع وضجت لمنعاك الجموع وتقفل المدارس حداداً عليك وتكتب الصحف بدماء العبرات مداداً

وتغنى النسمات بثنائك وتتعطر الاندية بشكرك ومحاسنك وتدخل الملائكة عليك من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار

أما أنت أيها البخيل بماله الشحيح لولده فانظر من أين جمعت وفيم انفقت ستذهب النفس حسرات ويأكل التراث من لاخلاق لهم تعيش ولا ذكر لك — ذهب الزمان الذى يعظم فيه المثرى لماله وان كان بخيلا ويكرم لجاهه وان كان جهولا — أتدرى لم كانوا يعظمون ولماذا كانوا يهابون؟ كانت الصولة والقوة فى أيديهم والحكام مطيعون لما يرضيهم فيخشى الناس سطواتهم ويخضعون لوشايتهم فكان تعظيم رهبة لارغبة وخوف سطوة لارجاء نعمة — أما الآن فلم يبق الا المعروف والاحسان — هل جزاء الاحسان الا الاحسان — فلن يعظمك ياهذا الا المتملقون ولن يعبدك الا الجاهلون الطامعون

أنظر في قلبك وتأمل فى نفسك — ألست تراك فى أغلب الايام فى هم وضيق — أو لست تحس بغم فى النفس ومرض يعتور الجسم وضيق فى الصدر فاعلم ان الروح والريحان فى الانفاق والاحسان فياحسرة عليك اذا بسطت الاكف لاستلام روحك وجلس حولك خدمك والحشم وأهلك وأولادك فلعمرك انهم يبكونك جهاراً ويفرحون سراً خفيا ينظرون لبعضهم بنظر الشرر ويتعادون باللاحظ ويتباغضون بالمقال يوجس بعضهم الى بعض ماسيجرون من الاعمال فى ميراثك

يموت جارك الفقير فتبكى عليه الباكية وتندبه النائحة ويتجرع غصة موته أولاده لعزته عليهم فهو أسعد منك حالا وأنعم عند الموت منك بالافهناك قلوب تحن اليه ونفوس تصبو اليه أما أنت فانتبه من غفلتك وتيقظ من

رقدتك واعلم ان تراثك ينسيهم ذكراك وحلاوة مالك تدعوهم للمداوات فقد يقولون ما الذى ترك أبوك « المجحوم » أى الذى دخل الجحيم وكلما قل تراثك قلت اللعنة منهم عليك والعكس بالعكس .

ما أشقاك اذا الموت ينشاك وينشد الكفن والنعش يعنيك بهذا البيت

ترى فيئهم فى غيرهم متقسما وأيديهم عن فيئهم صفرات

فلا يسمع بصوت أرملة يشجى فؤادها عليك ولا لسان شاكر لايديك ولا نادى علم يذكرك وانما يستعاض ذلك بذم موجع ورشقك بالسنة حداد — الحق أحق ان يتبع — السنة الخلق أقلام الحق ترى تارك المال لوارثه لاشكر له بل أنهم به يكفرون وبموته يفرحون وتارك المال لمن يتربون به علما وجسما أو هما معا يثني عليه الدهر كله وأهله ولا يحرم رضاء ورثته من بعده على ان اختصاص الوارث بالمال قد يفضى به الى الخمول والكسل والبلادة والجهل ومثل هذا المورث من خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وهذا هو السر فى قول النبى صلى الله عليه وسلم أنا معاشر الانبياء لا نورث ماتركناه صدقة فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

المقالة الخامسة عشرة

التمدين والمدنية

تسترت من دهرى بظل جناحه بحيث أرى دهرى وليس يرانى

سنشرح فى هذا المقال حال الدنيا ونظامها وزخرفها وكيف كان حال المدن وتمصير الامصار وسيصل القارىء فى العلم بها الى ماجهله كثير من

المغترين بظواهر الالفاظ وهم عن معانيها غافلون . اختبيء تحت جناح الزمان وهو طائر فى فلكه . واقرأ هذا العالم سطراً سطراً فلتفرحن بحكم نافعة هى خير مما يجمعون . نسمع الناس يقولون فلان متمدين ويطلقونها على معان متقاربة فيريد قوم انه حسن الثياب والهيئة جميل السمت . ويقول آخرون انه من يأ كل أطايب انطعام وأشهاه ويلبس أحسن الملابس وأبهاها ويرى أخرون ان المترف المتنم فيزيد فى غلوائه ويمرج فى لذيذ العيش من طعام وشراب ولذات أخرى

اذا كانت هذه المعانى دائرة على الالسنة مذكورة في المحاورات وجب تمحيص الحقيقة فيها ليزول اللبس ثم نرد هـذه المعانى الى اصولها وما الحق منها فنقول أصل التمدين انما هو تمصير الامصار وتنظيم المدن وأعداد مرافق الحياة فيها لتنال حظها من أصول حياة دهرها ولها فعل هجره العرب وهو لفظ مدن أى أقام ومنه مدينة جمعها مدائن ويقال مدن اتى المدينة ويقولون الانسان مـدنى بالطبع أى جعل بطبعه اجتماعيا ففقد جمعيتـه ذهاب بحياته فالجمعية طبعه من مبدء خلقه وكلما قلت الجمعية قلت الحاجة وان كثرت كثرت وأول جمعياته أهل الرجل فالمحلة فالقرية فالمدينة فالعصبية فالامة وتتداخل الجمعيات وتتكاثر حسب الحاجـة والعمران لما جبل عليه الانسان من الافتقار الى مالا يتناهى من الضرورى والحاجي والكمالى والزينة كالغذاء وطهيه وأدمه وحلواه وتنحصر حاجاته فى سدجوعته وحفظ جسده فتأمل تر الانسان محتاجا لتقوية جسمه بأن ينسج بدل ماتحلل بالحرارات الغريزية ولما كان بعض الاخلاط يزيد عن الحاجة وجب علاجه فكان علم الطب ولا بد من ثوب يقيه الحر والبرد ومسكن يأويه وسلاح يدفع به عدوه من أبناء جنسه

فهذه خمس مراتب . الغذاء .الدواء . الثوب . المسكن . السلاح . فالاول لصلاح الجسد والثانى لاتمامه والثالث لوقايته مما يحيط به من الجو والرابع يقيه من عاديات الوحوش واللصوص والخامس من عدو من جنسه يفاجئه وما أسهل النطق بهذه الخمس وما اصعب تفصيلهاوما اكثر علومها من لى برسام حاذق يرسم الانسان وما يحتاجه فى خمسة صفوف ثم يرسم دوائر تحيط به عددها ه وتكون هكذا

الاولى لاركان المدنية الاربعة الامارة والزراعة والتجارة والصناعة والثانية للرياضيات من فلك وحساب وهندسة وجبر والثالثة للطبيعيات من المولدات وهى (١) المعدن والنبات والحيوان والانسان ثم (٢) القوانين العامة والكيميا (٣) ثم الضوء ونواميسه (٤) ثم الحرارة وقوانينها والرابعة للبخار ونقله الاجسام وادارته الآلات واحداثه الضوء ونقله البريد والخامسة للكهرباء وتلغرافها وادارتها آلات اعمال الغذاء والملبس والمسكن واضاءتها وحرارتها فهذه هى الدوائر الخمس التى تخدم الانسان فى حاجاته الخمس التى ذكرناها وقد دخل تحتها أكثر علوم المادة

ولنفصل الدائرة الاولى وفيها الاركان الاربعة فالامارة أعلاها وهى اما ان تحكم على الاجسام والعقول والخاصة والعامة فهى النبوة أوعلى عقول الخاصة فهى الحكمة أوالعامة فهى الوعظ أوعلى الاجسام وحدها فهم الامراء وركنا الزراعة والصناعة متآخيان مع التجارة ولازراعة الا بيضاعة كما لا صناعة الا بزراعة وهكذا التجارة وكل منها محتاج لاخويه والامارة من الثلاث بمنزلة الرأس من الجسد بل هى روح المدنية وقوامها فاذا فهمت مافى الدائرة الاولى فلتنظر الشخص الذى فى وسطها فترى له عقلا ولسانا والعقل مركزه

الدماغ وسلطته في القلب وترجمانه اللسان وعلوم اللسان جميع اللغات ومنها علوم اللسان العربي ١٢ علما وما علومه ولغاته الا تعبير عن الدوائر السابقة الخمس ومطالبه الخمسة وترى للعقل خزائن ثلاثا الذاكرة والمفكرة والمخيلة فالاولى لعلم التاريخ والثانية لعلم الحكمة وهي نوعان علمية وعملية فالعلمية الرياضية والطبيعية والالهية والعملية سياسة الشخص في نفسه بعلم الاخلاق وفي منزله وفي مدينته فهذه أقسام الحكمة ويدخلها فن السياسة جميعه والقوة المخيلة التي في مقدم الدماغ محل الفنون الشعرية والنقش والتصوير والتشخيص

الدائرة الثانية الرياضيات

قد علمت ان من لوازم الحياة نظام الجند وعلوم العسكر وهي الصق بالرياضة وهكذا علوم الزرع والحصاد والاخذ والعطاء لاتتم الا باوقات تحدد والهندسة من مستلزمات الزراعة وهل تتم الهندسة الا بالجبر وبقية علوم الرياضيات ولا بد من الفلك لتحديد الزمن فلاغنى عن سفر التاجر والامير والمهندس والطبيب في قطار أو كهرباء أو على دابة واذاً لابد من هذا الفن وهو الفلك ومن علوم الرياضة الموسيقى

الدائرة الثالثة الطبيعيات

وكل هذا لايستغنى فيه عن علوم الطبيعيات من دراسة المعدن والنبات والحيوان والانسان للاستعانة على الزراعة وتربية الماشية والطب ودراسة القوانين العامة كالجذب والثقل والموازين وقضية ارشيميدس لضرورتها في سير السفن والحياة وهكذا مراكز الاثقال ثم قسم الضوء والحرارة وهنا امتزاج علوم الطبيعيات بالرياضيات فلا يتسنى للقارىء فصل بين الرياضي

والطبيعي في هدا الفن وهكذا سير الضوء الذي يحل مرموزه حساب المثلثات وهنا تكون دائرة الطبيعيات ولتجعل أربعة أقسام التاريخ الطبيعي. القوانين العامة . الضوء والحرارة . الكيميا . وترى ان هده كلها تحتاج لآلات فى أعمالها ونقل لاجسامها وأخبار واستخبار عنها فكم للزراعة من آلات لحرثها وطحنها وعجنها وهكذا فنون الطب وأعمال النسج والخياطة والمبانى والحصون والقلاع ونظام الجيش من الكراع والسلاح

فلهدا كله لزم البخار « وهى الدائرة الرابعة ولها أربعة أعمال » نقل الاشياء وادارة الآلات واحداث الاضواء والبريد

وهذه الحركة الحيوية عظيمة جداً فكان من نواتجها أن تسرع أخبارها فكان الكهرباء (وهى الدائرة الخامسة) ولها سرعة الاخبار وادارة الآلات واحداث الضوء وابداع الحرارة فهده أربعة أخرى . هذه هى المدنية فبلغها لاولئك الذين عنها يسألون . يسألونك عن المدنية قل هى خمسة مطالب تحوطها خمس دوائر ذوات أربع شعب تحتها علوم شتى فاذا تخيلت ماتلوناه عليك عرفت بناء هذه المدينة وحفظها لجسم الانسان وما أحاط بجسمه واذن تنشد

تسترت من دهرى بظل جناحه بحيث أرى دهرى وليس يرانى

المقالة السادسة عشرة

﴿ فذلكة التمدين ومنافع المدنية ومضارها ﴾

قد علمت مما مضي معنى التمدين وهو مصدر مدن ورأيت فيه كيف أصبح هذا النظام أمامك كأنه دوائر خمس أحاطت بالانسان وخدمت غذاءه ودواءه وثوبه وداره وحصنه فرجعت الحياة وان تعاظم شأنها وكبر

شكلها واتسع نطاقها الى كسرة خبز وثوب وأمن ولعلك تعرف ماورد(اذا أصبحت معافى في بدنك آمنا فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء) ورب قارىء يسمع هذا فيخال ان التمدين اشباع البطن وستر الجسم والامن على النفس وما أحاط بها . كلا فهناك بهجة للنفس وسرور للقوى المفكرة بتعقل مثل هذه العلوم وكأن هناك تسابقاً بين شهوات الاجسام وقوى العقول فكما يتسابق ذوو الشهوات الى نارها يسبق الحكماء الى نورها وكأن الحزبين فرسا رهان ولئن كان للاجسام غذاؤها فللعقول بهاؤها وروحها ولئن بقى بها الجسم ودوويت بها علله فللارواح فرح بمعرفتها وبهجة بادراكها وهذه الاجسام اذ خلقت عاجزة دبرتها العقول وجعل احتياجها سبيلا لاستنباط الحيل والدقائق والنظر فى الكثائف واللطائف واستخراج الدقائق حتى تعرج الارواح الى عالمها وتدرك اسرار ماأحاط بها حتى سارع الانسان اليوم الى درس الطائر في حركاته وسكناته فيسكن معه فى جنته العالية التى لاتسمع فيها لاغية . وما أشبه العلوم وتداخلها وتشعبها بالامم وتزاحمها هذا وبقى علينا الآن ان نلم بموضوع المدنية من حيث نفعها وضرها فنقول

من التفصيل الذى أدرجناه ترى أن الشهوات المركوزة فى طباع الانسان دعته الى البحث حتى أدرك مافصلناه تفصيلا ولولا هذه الطباع المركوزة في النفوس ماظهر سرور ولا استعمل علم ولم تك حكمة فباتساع دوائر الشهوات اتسعت دوائر العلوم فتسابقت معها شهوات العقول فطلب النفس للغذاء ومحاربة العدو والغلبة عليه أوجبت هذه العلوم فهى من هذا الوجه نافعة غير ان النفع يشوبه الضرر والنور ممتزج بالنار فيتغالى المرء

في استغوائه ويزيد في لذاته فجاء الفساد مع الصلاح والضلال مع الهدى فكانت السموم المهلكة والاخلاق المنحرفة والاهواء المختلفة بل التحقيق أن المدنية ترفع الاخلاق بنسبة واحدة ترفع الخير والشر معا فان غلب شرها خيرها آلت بهم الى الدمار كدولة الرومان وان غاب الخير الشر بقيت الى أجل معلوم مادام القلب موجوداً .اذا عظم بناء هيكل المدنية وتم نظامه لم تؤثر فيه زعازع المفاسد وانما يبقى ثابتا الى أجله فلا يهولنك ماتسمع من فساد الاخلاق والغش والخيانة وعموم السكر في أمم عظمت مدنيتها فاعلم انذلك قليل فيجانب شامخ عزها ورفيع مجدها فالبحر لاينجسه شيء واياك انيفوتك ان بناء مدنيتك يؤوده أقل حمل عليه ويقوض بنيانه أقل سيل يساوره فلئن سمعت عن موبقاتهم فلتقرأ آدابهم وعلومهم تجد ان ماعلموه وما عملوا أكثر من الافساد ومتى زاد الضرر فغلب المنافع آلت الامة للخراب وعلى هذا فلتفهم ماقاله هنرى الفرنساوى في خواطر وسوانح في الاسلام من القاعدة العامة للمستعمرين فى أوروبا وهى (أصحب الخمر معك لتبيد الجنس الشرقى) ذلك لان القوم علموا أن الشرقى غر ساذج يغتر بالزخارف وليس لديه من العلوم والمعارف مايقاوم هذه المخازى ومثل هذا . مايحكى ان فيالممالك المتحدة فنارا على جزيرة صغيرة قرب الشاطىء فبينما هو يدور اذا طيور اختلفت أشكالها وتنوعت ألوانها تراه ايلا فتعد ونحوه طيرانا فتصطك به فتحترق بحرارته فتتردى صريعة لوقتها فهى كالشرقى يرى المدنية الغربية فيبهره نورها فيحترق بنارها كالفراش يفترسه نور السراج لضعف قوته المدركة عن تمييز الخبيث من الطيب فيحترق ويهلك وترى الشرق يؤكل هنيئاً مريئاً لاهل أوروبا كما كانت تلك الطيور الساقطات حول الفنار

باب ثروة عظيمة لشركة الفنار

والى هنا عرفت أحوال المدنية والتمدين مصدر مدن ثم نقول من قال التمدين نظافة المأكل والمشرب والملابس فانما هذا من علم قانون الصحة وهو فرع من التمدين وان قيل هو التنعم فذلك له لفظ آخر وهو تمدين لا لفظ مدن والتمدين ان كان اسرافا فى الشهوات فهو من مفسدات التمدين وان كان محافظة على الصحة فهو فرع منه وان قيل التمدين حسن المقابلة والبشر وجمال اللفظ فهو راجع لعلم الاخلاق وهو من فروع السياسة وهى سياسة الشخص التى هى من المدنية واذ عرفنا المعانى فما أسهل الالفاظ

المقالة السابعة عشرة

﴿ لماذا لم يكثر في مصرنا النابغون ﴾

يسألونك عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون عن ذلك العقل الشرقى والذكاء المصرى والدم العربى ألم يك من سلالة أولئك الفاتحين ألست تراهم لا يزالون على البداوة والفطرة في الجبال المصرية وان منهم لفريقا فى الفلاحة وقل من تحضر فى الامصار والجمهور الاكبر لم يزل على فطرته الاولى يقبل أعظم الرقى لم يمت ذكاءه الترف ولم يستعبده السرف ألم يكن هذا الجيل من نسل الفاطميين والعرب الحجازيين ومن ذا يظلمهم فيقول هم أبناء قدماء المصريين الذين تعاقبت عليهم اليونان والرومان والاشوريون وأهل النوبة والهكسوس (الملوك الرعاة) على ان النسل القبطى أظهر نهضة ترفع رأسه بما أودع فيه من الشهامة التى ولدها فيه الخلق العربى الذى خالطه ثلاثة عشر

قرناً فسعى سعياً متواصلا لم يصل اليه سواه في الرقى والتعليم

وبالجملة فليس المانع من نبوغ النابغين موت الشهامة والذكاء فان ستمائة السنة التى حكمها المماليك لاتسجل على الامة المصرية الانحطاط والضعف فهذه حجة يلوكها بلسانه الفاتح الظلوم أو الجاهل الغشوم

المصرى هو العربى أوالمتعرب من الاجناس المتباينة التى ضمها تحت جناحه أحقابا وعصورا . من يقل المصرى ضاعت منه النخوة وماتت النجدة فهو الجهول بالتاريخ . يتبجح قوم بأن هؤلاء مات آباؤهم تحت السيف والسلاح وضرسوا بأنياب اليونان وفتك بهم الرومان وأصلاهم ناراً حامية الاشوريون وقهرهم الرعاة وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله مع ان ذلك جيل ماض في الغابرين له تاريخ مقدر وزمن محدد مضى وانقضى . تلك أمة قد خلت وانقضت وجاء بعدهم قوم آخرون لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يظلمون

أخلفتها الامة الفاتحة العربية ومن يقرب معها فصارت البلاد كلها عربا اما دماء واما أخلاقا — فما أغفل أولئك الذين يمدون تاريخ هذا الجيل الى أربعة آلاف سنة فى الاعصر الغابرة ويتبجحون بقولهم (وحكامها جلب وهى لمن غلب) مثل قرأوه مضروبا فى الامثال القديمة أطلقه المصريون لما توالى عليهم من فتوح الفاتحين وذل الظالمين ولكن الآن تاريخهم تغير وأصبحوا فى هذه الالف والتى قبلها شعبا آخر وجيلا غير الجيل (كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين)—

والى هنا أثبتنا بالدليل العقلى ان النقص ليس في ذكاء المصرى واستعداده وعقله اذن فلنبحث عن سبب آخر

يقول قوم ان السبب فى قلة النابغين ان الحكومة لاتعين الجوائز لمن نبغوا في فن أو علم ولم ترغب أحدا فى عمل ما ولن يسود الا من لهم صفات مخصوصة غير صفات العلم — نقول هذا وان كان يصلح سبباً ولكنه ليس كافيا بل هو ضعيف والا فكم من نابغ فى الازهر وهو لايجد قوت يومه (النبوغ فى كل شىء بحسبه)

ويقول آخرون ان مواد العلوم فى البلاد قليلة فلايجدالاذكياء مايقوم مداركهم ويسعدهم ويرفع من شأن قواهم — وهـذا أيضاً وان كان يصلح سببا ولكنه ضعيف والا فان أوروبا اذ زرئت بمحاكم التفتيش كانت تقرأ الفلسفة والحكمة وخرج من تحت الصخر ماء نابع واشتعلت جذوة نار العلوم فى أقطارها من تحت سبع أرضين وليس على المصرى غطاء ولا حجاب والابواب له مفتحة وأرض الله واسعة .

ويقول قوم ان المصريين كسالى يحبون الراحة والحياة على الفراش الوطىء ويستحبون الزينة ويحبون المال حباً جماً ويعبدون أصنام الذهب والفضة ولا يخضعون الا للمظاهر — تراهم لايهابون العالم لعلمه ولا يحبون الا ذا السطوة ولئن رأوا عالما بلا جاه أو قوة أو حول أو طول ليس بيده خزائن الحكومة لم يعظموه الا قليلا وربما استهزأوابه وحقروا علمه حتى اذا اعتلى منصبا قدسوه وسألوه واستمعوا اله وأنصتوا لعاهم فى تملقهم يفلحون فكأنهم لايحبون العلم لذاته بل هذه الخصلة يقال انها فى نفوس التعلمين أنفسهم لايعظمون الا أصنام المال وازلام الجاه وأما العلم فطلاء مصقول أو علم منصوب

أقول هذا وان كان له وجود فى بعض الافراد (اذ أغلب المتعلمين

أسمى فكراً وأعرف بالعلم قدراً) فهو لا يصلح سببا أصلا اذ هو مصادرة لاصل الموضوع وكأننا جعلنا الشيء سببا لنفسه فتعظيم الجاهل لما له واختصاصهم احترام ذوى السلطة سبب راجع للجهل واذن لا معنى لجعله سببا لنفسه

والسبب الحقيقى انه الى الآن لم تعكم الامة اصولا تشوقها الى العلم من حيث هو

جالس طبقات القوم «سوى الراقين» ترهم فى مجالسهم لا يذكرون العلم الا قليلا ولئن ذكروه فانما يلوك أحدهم مسألة يحضرها قبل هذه الجلسة يستعلى بها على أقرانه وعامة الجلساء والمجالس غاصة بالنكات المضحكة فهم (الا قليلا) عاميون مكبرون

قوم لم تخالط بشاشة العلوم قلوبهم ولقد تفكرت في دواء ذلك فوجدته يرجع الى ثلاثة أشياء مرتبطة متماسكة — كتب الدراسة وموادها والاغنياء — والحكومة —

ولكم كتب الكاتبون وندد اللائمون على الكتب ولكل سبيل اتخذه وطريق انتهجه — أما أنا فأقول — كتب الدراسة الابتدائية ان لم تكن ملائمة للفطرة التي وضعت عليها هذه الدنيا مشوقة للتلاميذ معشقة لهم باعثة على عشق العلوم المختلفة فهى كتب لا ثمرة لها — كتب الناشئين تبحث عن محاسن الحيوان وعجائب النبات وغرائب التاريخ الذى يتصل بالامة ووصف جمال المخلوقات التى يراها التلاميذ فى غدوهم ورواحهم وحكايات تناسب ما يلابسهم كل آن كما ترى في كتب الامم الافرنجية على تباين مشاربها وكما أوصى به حكماء الاسلام قبل سقوط الدولة العباسية — كتب صغار

الطلبة ان لم تذكرهم بوقائع مختلفة من الرجال الفاتحين ونبذ من تاريخ النبات وجمل جميلة من الحيوان ولطائف من حكم النجوم والفلك كما فعل الافرنج فمن أين يعشق التلميذ الفلك -- أو كيف يشتاق للطب — وما الذى يحمله على الهندسة — اللهم الا مسابقة أقرانه وتقدمه فى الفرق وخوف العار ومقارعة أبناء الحارة والتعالى على أهل البلدة وحوز الشهادة وعلو المنصب وعبادة أصنام الذهب والفضة — أمثل هؤلاء ينالون الا حظهم ثم لا يدخل العلم أعماق قلوبهم ولا ينالون الا ماتكنه الافئدة ويطلبه القلب فيقفون عند حد محدود وأمد ممدود فيعيشون ويموتون ولا حظ لهم الا ما يأكلون ويشربون — هذا هو السبب الحقيق الاصلى في قلة الحكمة والنابغين فى بلادنا فهو الداء وهو الدواء ويلحق به تعيين الجوائز للنابغين من الاغنياء والحكومة ثم الحض على تأليف كتب بهذا الوضع للناشئين — وانى بعد هذا أنا الكفيل بنبوغ أناس من أفضل العاملين في بضع سنين ويومئذ يفرح المصريون

المقالة الثامنة عشرة

متى ينبغ فى مصر النابغون

﴿ اقرأوا الكتاب الاخضر قبل الاسود ﴾

نسائل أنفسنا — أنحن متعلمون — وهل المدارس والمساجد ودروس الدين وحدها جرداء خالية من نور العلم واللغة فتحت الابصار والبصائر. هل البلاد فيها حركة فكرية وعلم شامل يدخل مع القوم فى دورهم والفلاحين فى حقولهم والتجار فى أسفارهم والشعراء فى قريضهم والمؤلفين في فصولهم.

وهل ولج الناس العلم من بابه ودخلوه من مسالكه وفجاجه ؟ كلا . سل العالم منا والحكيم . هل يعرف أسماء النبات المحيط بداره . هل يلم بما أودع فيه من الفوائد الطبية والحكم الخفية حتى يمتاز عن العامة . أم من ذا الذى أخذ بيد طفله فاراه نباتاً فسماه له باسمه الخاص ثم شرح له فوائده ومنافعه الضرورية لحياة الانسان الطبية . اليست هذه هى المعارف الاوليه فى الامم جماء متمدينين ومتوحشين ؟ جالس عثمان بك غالب وسائله عن منافع النباتات الطبية واسمائها وقل له ماذا رأيت فى سياحتك فى صحارى مصر وماذا حدثت به العرب الجبليين الذين نعدهم في عرفنا متوحشين يجبك انه وجد القوم على جانب من الذكاء وحدة الذهن وعلم بالعقاقير الطبية النباتية وأسماء النباتات العربية كما وردت فى كتب ابن البيطار وغيره من النظار وعلماء الطب — فماذا تعلمنا — أليس من المخجل المعيب ان يتمشى الانسان مع ابنه الصغير في حقل اوبستان فيتلعثم لسانه اذا سأله هذا الغلام عن اسم نبات ومنفعته فيقول (يابنى ما المسؤل عنها باعلم من السائل) فواخجلتاه أمام الاطفال ! واسوأتاه أمام الامم جماء — اضحت الاعرابية فى بيت تخفق الارواح فيه أعلم منا بالمنافع الطبية — وأصبحنا أجهل الامم فيما لا يجوز الجهل به — أينبغ طفل ينشأ في أمة هذا مبلغ علمها — ويا ليت شعرى كم من غادفى أوروبا ورائح يشاهد بعينيه ويسمع بأذنيه شغف القوم وولوعهم بما يشاهد في المزارع والحقول ثم لم ينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ليس ذلك من شأن الطبيب وحده وانما هو ملحق بقانون الصحة وهو عام من ضروريات الحياة وليس للاطباء الا ما اعتاص على العامة تلافيه من داء عضال أو مرض كبار وهو مع ذلك حياة الروح وسعادة الحياة — قال العلامة هكسلى اذ قام خطيبا فى جمعية

العمال فى جنوب لنـدره الدنيا كرقعة الشطرنج وما عليها من المواد كقطعه والنواميس والطبائع والحكم المودعة فيها هى قوانين اللاعبين ونحن اللاعبون وخصمنا فى اللعب غريب عن الارض مغيب عنا لاتراه العيون تعرفه العقول علمنا أنه حكيم فى فعله حاذق فى عمله يعطى الحاذق منا فى اللعب ويقصى الجاهل وليس يغفل لحظة عن أولئك اللاعبين فالويل ثم الويل للجاهلين وطوبى ثم طوبي للبارعين النابهين — هـذه حال الارض وهذه أحوالنا مع العقاقير

انى أسائلك أيها القارىء لفتة لكتب أطفال الاجانب تأمل فيها ألست تجد القول فيها موجها للشبيبة ليريهم ماشاهدوه فى حقولهم ويمكن لهم صفات رأوها بأعينهم — أليس من ألزم ما يجب أن يتعلم الاصاغر فضلا عن الاكابر ما أحاط بالناس من المزارع والثمرات ومعرفة أسمائها — كم من نبات مات اسمه — وكم من شجر وثمر عرف العامة والسوقة اسمه وبعض خواصه ولكن المتعلم لا يصغى لاقوالهم لاختلاط صادقها بكاذبها فاشتبه جيدها برديئها فمسح من لوح فؤاده وزيح من سويداء صحيفة قلبه كل ماسمعه من عامة القوم وأخـذ يقرأ فى الـكتب وقلما عثر على اسم نبات فى ديارنا وان قرأه فانما يكون بلسان أعجمى — ياقوم يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى — اللغة العربية مستعملة الى وقتنا هذا برمتها بين الفلاحـين — تيقظوا وانظروا ألفاظهم تروا محاوراتهم عربيـة الا اعرابها ـ أحيوا ماأمتموه وابحثوا عما كنزه لـكم الآباء والامهات بالتوارث جيلا بعد جيـل اللغة حياة الامة فموتها موتها وحياتها حياتها

موضوعنا الآن قراءة الكتاب الاخضر وهو المزارع فكان داعيا

حثيثاً الى اللغة اذ لا كتاب بلا عبارة ومالم تكن لغة فلا قراءة فنحن مضطرون لاتساع دائرة النظر الاولى فى العالم المشاهد امامنا وللعبارة عن ذلك باللغة فاذا لم يكن نظر ولا لغة فبشر القوم بالارجال ولا نابغين — ثم ان ذلك أمر يسير على الحكومة غير عسير — ألا فلتتخذ لها محلا تزرع فيه النباتات مرتبة فى أماكنها كما رتبت فى فصائلها . مكتوب على كل نبات ورقة فيها أوصافه العامة ومنافعه الطبية ثم يؤلف كتاب واضح العبارة يفهمه الناس عامة وتبيح الدخول للعموم وتجعل يوما لتلاميذ المدارس بساعات معينة — أو ليس نبذ هذا غفلة من اللاهين وتغافلا من التاركين وليستعن في مثل هذا بالعارفين فهكذا فلتكن حديقة الحيوانات وانه ليسهل ترتيبها على سنن فصائلها والنباتات على أسلوب ترتيبها .

ياقوم كم من داخل حديقة النبات وجنينة الحيوانات وهو لايدرس الا خضرة وماء ووجها حسنا وما زاد عن ذلك مما امتاز به العلماء فهو عنه من الغافلين — أمثل هؤلاء ينبغون —

هـذا النظر تدريب للناشئين على تمييز الجمال ودقة المحاسن وحسن الاختيار واتساع لدائرة المعلومات وتشويق للعلوم وجلاء للنظر تفتح للاطباء باب الحكمة وللمهندسين طرق العلم وللفلاحين حب الزرع وللعلماء باب الانشاء

تلك سطور يقرؤها ذوو البصائر فيفضلون معانيها على رواية فيكتور هوجو واشعار المتنبي وفلسفة ارسطاطاليس

هذه هى الحكمة الاصلية بل أصل الحكم وما الكتب السود الا حثالة الكتب الخضر وضعت لضعاف البصائر لعلها تحيي نفوسهم فتذكرهم

بما يوحى اليهم فى الحقول والبساتين من كتاب أبدعته يد العناية فكانت الاشجار كلمات والزروع حروفها والازهار نقطا والاثمار شكلا فتوحى الى الناظرين ماتوحى من حكم بالغة وآيات ناطقة

حدائق الحيوانات والنبات كتب مسطورة وآيات منظورة وعلوم مصفونة وحكم مبثوثة ولقد عجبت عند زيارتها وألمت لمشاهدتها اذ لم أر الا تشييد مبانيها وتزويق قصورها وتنميق نقوشها — أما ترتيب وضع الحيوانات كترتيب فصائلها وتنظيم أوضاع النبات كترتيب أنواعها فليس له فيها أثر فقلت اذن لا يستفيد طالب العلم من هذه الا استفادة الجاهل من حقله ولقد قرأت ما كتب عليها فلم أر الا أسماء أفرنجية وأعلاما أمريكية فبكيت على العلم وأهله والشرق وساكنيه وقلت اذا لم تكن هذه الحدائق صحفا مطهرة فيها كتب قيمة رتبت أوضاعها نظمت صفوفها — نجعة الواردين وهداية القارئين فما نفعها اذن للطالبين بكيت على العلم وضياعه وقلت هذا البشنين كان يعبده قدماء المصريين لحكم فيه مودعة طبية ورائحة ذكية هل عرفت اليوم الا فى ثنايا كتب — وهذا الصفصاف قشوره تنوب عن الكينا في خواصها — وهذا الكبر والسريس ذواتا منافع طبية للمعدة وقوتها أفضل من كل ماحوته المخازن المشحونة أدوية غريبة عن بلادنا وعليه اقترح ثلاثة أمور

(١) تنظيم حدائق الحيوانات والنباتات تنظيما علميا مع الاستعانة بعلمائها الخاصين بها لينظموها على مقتضى العلم وتكتب خواص كل نبات وحيوان على لوحة بجانبه وتذكر صلته بما قبله وما بعده فى الوضع بألفاظ عربية صحيحة

(٢) الفات انظار منشىء الكليات والمدارس الاهلية الى هذا الامر

حتى يروا التلاميذ فى كل أسبوع ساعة هذه المناظر بطريق علمى وان ينشئوا أمكنة لذلك الغرض على الموسع قدره وعلى المقتر قدره

(٣) النظر فى ألفاظ العامة فى سائر انحاء القطر المصرى ووضعها في قواميس ونشرها بين المتعاملين ليعلم القوم ان اكثر مافي القواميس العربية علمه آباؤهم فلا يستنكفوا ان يكتبوه ويقرؤه بعد تمحيصه وهذا علمته بنفسى ثم نبذ الدخيل فى الالفاظ ولعمرى أنه لقليل ومعظم ألفاظ الامة المصرية أو ٩٥ فى المائه عربية فصحى يسجد لها صاحب الصحاح

المقالة التاسعة عشرة

الدين والوطن

يتحدث الناس اليوم في الوطن والدين واستبدال الاول بالثانى حديثا نقل عن الاجبت ونرى للقوم حكما عليهما منظوراً فيه لبعض الوجوه وذلك سرى لاوروبا وللشرق مما أذاعتـه فرنسا فى أقطار المعمورة بألا دين لهـا وان الشرف كل الشرف فى حل ربقته والتفصى عن دعوته

الحكم عليهما يستدعى تمحيص معنيهما حتى يتضحا ثم نحكم حكما ثابتا اذ الحكم على المجهول دأب العامة فنقول

الوطن والوطن « بكسر الطاء وسكونها » فى اللغـة منزل الاقامة ومربط الغنم وجمعه مواطن ويقال وطن الرجل به يطن وأوطن به وأوطنه ووطنه واستوطنه أى اتخذه موطنا — هذا مايقوله علماء اللغـة العربية — القارىء اللبيب يعلم ان الذين يستبدلون الوطن بالدين ويمجدونه لم يريدوا المعنى اللغوى — وان أردنا مافى الوطن من منازل ومساكن ومناظر وأودية

وحقول فليس فى ذلك ماتخر له الاعناق سجداً وتخشع له القلوب وتعنت له الوجوه وهذا الشاعر يقول

فانك واجد أرضاً بأرض ونفسك لم تجد نفساً سواها

ويقول الآخر

واذا رأيت الرزق عز ببلدة وخشيت فيها أن يضيق المطلب
فارحل فارض الله واسعة الفضا طولا وعرضاً شرقها والمغرب

فلن يطأطىء النوع الانسانى رأسه ويتنزل من سماء عظمته فيمجد حجارة أو حديداً أو طيناً أو مدراً كلا . ولئن ذكرها فانما ينصبها رموزاً لذوى نفوس عزيزة عنده. وان لهم من الصفات والجمال والعلم والحكمة والشجاعة ماهو حقيق بتقليدهم وحفظ اثارهم وصنع صورهم والسير على منوالهم ومزج حبهم بشعوره ووجدانه أينما حل أو ارتحل حتى يصبح نسخة جديدة لكتاب نفس ذاهبة من نفوس آبائه الذين تربى فى حجرهم ونشأ فى ديارهم واستمطر بسمائهم وشرب من أنهارهم ودرج في طرقهم الا ان الوطنية هذا المعنى لاسواه وهو الذى يعنيه أولئك القائلون من الفرنسيين وغيرهم فهو على التجوز من اطلاق اسم المحل على من حلوا فيه

أما الديانات فانها اذ تنزلت على قلوب بعض العباد رأت ان كل طائفة من الناس أوطنت مكانا عظمت جدودها وقدست آثارها وأضحوا نسخا جديدة لنفوس آبائهم بالتقليد والاعمال بين الاعظام والاجلال فتقاطعت الامم بالتعصب الاعمى ورأوا أن كل فريق يحتقر الآخر اذ يرى الناس كلهم عبيد قومه وخدم عشيرته التى يعرف من صفاتها أكملها ومن مزاياها

أشرفها وهو محجوب عن مزايا من عداها فدعت الديانات الناس الى حصر صفات الجمال والعزة والكمال والشجاعة والقوة والكبرياء والفضيلة والرحمة والانتقام والعلم وبالجملة كل صفة لها على القلوب سطوة وفى النفوس هيبة فى واحد خارج عن المادة حتى يرجع الناس عن هذه السفاسف والصور والتماثيل الى واحد خارج عن المادة مقدس عن الصور ـ ولئن كان فى بعض الديانات صور فهى رمز له وعنوان عليه وتلميح لصفاته وايقاظ لجماله ليغض الناس النظر عن تلك الميزة التى اتخذوها ويرجعوا عن عبادة الآباء الى عبادة من يرجعون اليه بعد الموت يتعالى عن هذه المادة ويتقدس عن الصور وانما هى له رموز لا للارواح الغابرة

ثم أخذت الديانات تعلم الناس محاسن الاخلاق والآداب فللعامة باخافتهم من النار وترغيبهم فى الجنة وللخاصة بتشويقهم الى جمال ذلك الذى فوق المادة وملء قلوبهم بحبه باحضار صفاته الكمالية فيه ودرس هذا العالم درسا مدققا حتى يتسنى له معرفة كثير من شمائله وكلما زاد علما زاد حبا ويصبح الناس كلهم اخوانه لاعبيده وعبيد آبائه ـ هذا مجمل ماعليه الديانات بحسب أصل وضعها ـ ولست فى مقام تعداد محاسن الاسلام ولا غيره من الاديان وليس لنا هم الآن بما يفعله بعض من قاموا بما ينافى هذا الاصل فى كل دين اذ غرضنا معني الوطن والدين

فلنبحث الآن عن حالنا نحن المصريين ووطنيتنا وديننا

يريد قوم أن نستبدل الوطنيـة بالدين فنقول ان الوطنيـة ثلاثة أنواع ـ وطنية ممزوجة بالدين ـ وأخرى ممزوجة باللغة ـ وأخرى ممزوجة بالعلم ـ فالاولى هى الوطنية الصينيـة واليابانية والمصرية القديمة وهكذا

وطنية الفاطمية فى القرن الرابع والخامس والسادس التى لاتزال آثارها مأثورة فى أناشيد الصوفية وأعلامهم وبرازخهم وحفلاتهم وشمائلهم وحلق ذكرهم وهى جميعها من آثار الفاطميين وطرق استعمارهم وفتوحهم ولقد أشبهت وطنية اليابان ألم تر الى قائدهم فى حرب الروس اذ أرسل الى الميكادو يقول حيا الله الملك ان جندنا هم الغالبون وان أعداءنا هم المهزومون وان أرواح آبائنا لهم لناصرون (ولا ذكر القارىء بمعنى الوطنية وهى ذكرى أرواح الآباء) وهى بعينها نداء الناس لارواح من في القبور للاستغاثة والاستعانة ـ ولعمرى ان هذه المظاهر تحدث في النفوس حدسا وتخمينا ان ديانات الامم القديمة كانت واحدة فهذه اليابان والصين وقدماء المصريين يمجدون الآباء تمجيدا دينيا ولهم اتصال بالشمس

فقرعون معناه ابن الشمس واليابان أبناء الشمس وأهل أمريكا الاصليون كانوا يعبدونها ويسجدون لها وأهل سبأ كانوا يعبدون الشمس والكواكب وهكذا فليعلم ان للفاطميين أسرارا سرقت من ديانات البراهمة والبوذيين عبادتها بالسر والتوجه القلبي ومزجها بارواح الآباء والاجداد — والثانية الوطنية العربية للجاهلين قبل الاسلام والثالثة وطنية أوروبا وخصوصا فرنسا

أما وطنية العرب فهم كما قال سديو كانوا يجتمعون فى سوق عكاظ والمجنة وذى المجاز (ثلاثة أسواق قرب مكة وعرفات) للمفاخرة بالشعر فى محافل خالية من التحكم على النفوس يقوم أمامها شجاع يمشى مشية المتكبرين والابصار له خاشعة حتى يقف على مرتفع من الارض فينشد وهم منصتون قصيدة ترفع قبيلته الى حين وكان البيت الواحد ربما رفع قبيلة وخفض أخرى كما فى الحكاية بنى أنف النافة وبنى نمير وهذا الاعشى بكلمات قالها

فى المحلق العربى الصعلوك فى القفر زوجت بناته كلهن بعد بضعة أيام بأبناء الاشراف وذلك بقوله

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار في يفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فكانت تلك الاسواق والمفاخرة والشعر وذكر الآباء والاجداد والاحساب والانساب والكرم تخليدا لتاريخهم وجمعا للغاتهم التى تفرقت حتى لم تكد تفهم قبيلة لغة أخرى ثم أى قصيدة أعجبتهم كتبوها بالذهب على نفيس القماش ثم عاقوها على الكعبة ليطلع الابناء على آثار الآباء كمعلقة امرىء القيس والحرث ابن حلزة وعنترة وطرفة وعمرو بن كلثوم المتوفى سنة ٦٢٢ وهى سنة الهجرة فاستبدل الاسلام تلك الاسواق والمفاخرة بالحج ونزل فى القرآن (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكرا) فهذه هى الوطنية الممزوجة باللغة

أما وطنية أوروبا وفرنسا خاصة فهى وان كانت مزجت باللغة فقد دخلتها العلوم والاختراعات والاكتشافات مع الشجاعة والاقدام والحروب فسميناها ذات العلوم

وهنا وقف اليراع خوف الاطالة وسآمة القارىء وقد أرجأنا الفصل فى الحكم بعد المداولة الى غد وهو قريب

المقالة العشرون

ذكرنا الدين والوطن وتعريفهما وقلنا ان الوطنية ثلاثة أنواع — الممزوجة بالدين والممزوجة باللغة والممزوجة بالعلوم وهذه هى أقسام الوطنية

فيما وصل لهذا الجيل من علوم الاوائل والاواخر ونحن الآن في مقام الاختيار فأى هذه نتخذ

الوطنية الاولى منبوذة لمزجها بالدين وهو الذى نفر منه فرارنا من الاسد والثانية وهى وطنية اللغة فلا ندرى أى الآباء نتخذ وبأى اللغات نتكلم فهل نتخذ قدماء المصريين آباء وتتناسخ أرواحهم ونعبر بلغتهم وهم الذين درست معالمهم وجهلت لغتهم أم آباء بعض الفرنساويين المقيمين بين ظهرانينا أم الانكليز أم الالمان أم الترك وما نسبة سكان هذه الامم جمعاء فى ديارنا بالغة عد أصابع اليدين من الالف وأبناء المصريين القدماء اضحوا من العرب أخلاقا وآدابا ولغة وآراء وعقولا ولئن اصطلحنا على اسلافنا العرب فبأى لغة يكون لاريب انها العربية فمن لنا باسواق عكاظ وذى المجاز ومجنة وامرىء القيس وعنترة والمعارض العلمية والمؤتمرات كما كان العرب يفعلون وأين تلك التماثيل الجميلة والصور البديعة التى تقام كما تفعل فرنسا حتى تتمثل بها أخلاقهم وابراهيم باشا ولازوغلى غير كافيين وديلسبس ليس له حفلات تقام فى بورت سعيد ولئن أقيمت فللفرنساويين

ولئن سلمنا اننا سنتم ذلك كله فى ربع قرن ونعاهد الدول جمعاء على ان ينسلخ من دينه ووطنه ومفاخر آبائه كل من دخل ديارنا ويتكلم بلغتنا على شريطة ألا دين لنا ونكسح الاسلام الى العجم والهند والمغول فسترى فى سنة ١٩٣٠ الفرنساوى المصرى يفخر بقوله عنترة

لى النفوس وللطير اللحوم ولل ... وحش العظام وللخيالة السلب

فيقف الانكليزى المصرى مفتخراً معجباً بقول امرىء القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فيقوم الالمانى المصرى وينشد مفتخراً بقول حاتم الطائى

أماوى ان المال غادر ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر

فيقوم الايطالى المصرى مفتخراً بالنابغة الذبيانى اذ يقول

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش مايضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
كم شامت بى ان هلكت وقائل لله دره

فيقف المجرى يقول مفتخراً بقول الاضبط ابن فريع السعدى

واقنع من العيش ماأتاك به من قر عينا بعيشه نفعه
قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
لاتهين الفقير علك أن تركع يوما والدهر قد رفعه

ولئن سلمنا ان ذلك كله كائن وان الديانات قد محيت من ديارنا ووطنيات القوم ومفاخرهم وشعر شعرائهم وحكمة حكمائهم محيت من ألواح ضمائرهم وحات محلها الصبغة العربية في سنة ١٩٣٠ فهل نعجل بنبذ الاسلام من الآن . أو ليس هذا الجيل يأخذ فى الدمار والانقراض والاخلاق الفاسدة فى تلك المدة

ياقوم ان أوروبا الى اليوم تعد شعوبها بالآداب وذكر الاوطان لتملأ الافئدة جمالا وحكمة ولم تصل بعد الى درجة الاستغناء عن الدين فهذه انكلترا والمانيا والروسيا لاتزال تعد نفسها قاصرة عن الكمال تحت حياطة الدين ولئن رفعنا نفوسنا واستكبرنا عن الانكليز الذين هم تحت وصاية الدين وقلنا اننا أسمى منهم نظراً واحد فكراً وساوينا الفرنساويين فهل وقف القوم عند هذا الحد — أليس فيهم جمعيات تبحث الآن عن دين لهم اما النصرانية

كما يقول الشيؤسوفيون منهم أو العقلية كما يقول الفلاسفة وعميدهم في ذلك رئيس الجمهورية الحالى لعلمه بأنها ستنقرض اذا لم تعمد بدين

ولئن سلمنا ان فرنسا غلبت حكماءها ومسحت الاديان — أفليست الصور والتماثيل المعشوقة لنفوس أبنائهم المذكورة في أناشيدهم المقامة لها الحفلات هى عبادة من أنواع العبادات

ولئن سارت قرنا أو قرنين لتصبحن تلك الصور معبودات أشد من الآن — ولا يستغربن القارىء قولى عبادة فلا يعتبر أرباب الاديان العبادة الظاهرة الا متى توجه القلب الى صفات المعبود وهو الله والسير على أخلاته وما سر عبادة الاسلام الا عشق الاله وحبه والعمل بأخلاقه التي فوق صفات البشر فرجع الامر الآن الى ان الوطنية على أى شكل استبدال لعبادة بعبادة ونسخ دين بدين ولذلك ترى كثيرا من الامم اختلط عليها الامر فقالت بوحدة الوجود ولم تفرق بين المخلوق وخالقه لاشتباه الصفات التي يلقنونها — فما أضعف البشر فكلهم خاضعون ساجدون عابدون ان لم يكن لاله مقدس عن المادة فللوثنية ولن ينفك بشر عن عبادة أما رب وأما وثن

فاذا تركنا الاسلام نصبنا الاوثان فصبرا حتى ننصبها ثم نتركه والا أصبحنا كالغراب قلد الحجلة فأصبح أعرج ممقوتاً

فيأمة ضحكت من جهلها الامم لاتتبعوا كل ناعق — هاهو الكاتب اليابانى يقول عند الكلام على مؤتمر اليابان — ان اليابان مسكينة فقيرة لم تتهذب فحق لنا ان نختار دينا . ثم جامل فرنسا فقال وان فرنسا حازت الادب وتهذبت فاستغنت عن الدين — فهل نحن أرقى من الجميع « استنت الفصال حتى القرعى » أم ندع الدين للآباء والعجائز فتمتلىء الادمغة بالخرافات

والتعصب الاعمى — أو ليس الاجدر بنا أن نقرأ الدين على وجهه حتى يتحاب الناس -- أم تريدون خلع الدين مجاملة للاجانب وهم لا يزالون تحت ورايته -- أم تقولون الاسلام دين تعصب فلماذا لا تعيرونه التفاتة حتى تخلصوه ان كان ذلك ألا يعلمون ان الامة التي لا دين لها ولا آداب تصبح خائنة وتنتزع الثقة من بين أفرادها . أتتشبه بفرنسا ونحن ليس فينا عشرة في المائة يكتبون ويقرأون وليس عندهم اثنان فى المائة مجردين من الكتابة

فاتقوا الله في أمتكم المسكينة الضعيفة واعلموا اذ ذلك ضحك على العقول وجهل بأحوال العمران وخور في السياسة وضلال فى الفكر ألا ان عاقبة الامر أن نصبح ولا دين لنا ويتمسك القوم بلغاتهم وأديانهم ووطنياتهم وأخلاقهم ويترفعون عليكم في دياركم ووطنكم فى نظرهم أحقر من ان تنتسبوا اليه وأنتم أنتم وهم هم وكل حزب بما لديهم فرحون فانتم تخلعون لباسكم وهم يلبسون وأنتم تكفرون وهم يؤمنون

فاعتبروا ياقوم فلن ينسلخ الانجليزى والاوروبى عن وطنيته ولو أشركنا الف شرك وحرمنا مكة وكفرنا بالانبياء أجمعين

المقالة الحادية والعشرون

﴿ مخاطبة الحكمة للانسان ﴾

(في الوطنية والدين)

هذا مقال يوضح أحوال الانسان وتدينه ووثنيته جعلناه على لسان الحكمة تقول — أيها الانسان ـ خلقت فسويت فى أحسن تقويم ثم اجتمعت جماعات يسكنون أماكن منفصلة من الارض وكل بهدل (أسرع) فى حب

وطنه وعشق غدرانه ومسالكه وطرقه وموارده فتغزل بالاطلال والديار بل تغالي فذكر الوحوش والوعر والشيح مما يدب أو ينبت فيها وهذا مذكور فى أشعارك مأثور فى أخبارك ثم رفعتك عن هذه الطبقة الى ماهو أرق وأجمل وهو تقليد الآباء والتمثل باخلاقهم وعلومهم وآثارهم فنصبت لهم الاصنام والصور والتماثيل أولا يذكر الانسان أنه اذا رقت طباعه وجملت أخلاقه وتعالى عن المادة والاحجار رفع رأسه فارتقى الى كامل الصفات والجمال فى أشرف نوع وهم آباؤه فرمز لها بصور تمثلها حتى كان لليونان آلهة كثيرة كآلهة الجمال واله البحر واله البر والحب والحسد وماذلك الا ماورثوه عن آباء في الاعصر الغابرة — تذكروا مزاياهم فمثلوهم فنسوا حظا مما ذكروا به فعبدوهم وهكذا للعرب ودوسواع ويغوث ويعوق ونسر والصفا والمروة وغيرهم وهم كانوا أقواما صالحين فاتخذوا لهم الانصاب تزلفا اليهم وهذه أرقى ماوصلت اليه أيها الانسان ثم قالت الحكمة وكم لك من آلهة عبدتهم جيلا بعد جيل وأرقاهم أولئك المذكورون تبعا لرقيك عن المادة وتجردك من الرذائل ألم تر كيف . عبدت النجم والشمس والقمر والملائكة ثم رمزت لهم بالاصنام وبنيت الهياكل السبعة للكواكب السبعة السيارة التى ظهر اليوم أنها تقرب من خمسمائة اكتشفت في هذا العصر ثم تنزلت بعبادة الاصنام النائبة عن الملائكة والكواكب فقل لى أيها الانسان ألست بعد ذلك رفعتك الى الآباء وآرائهم وأرواحهم فذكرتك بخلالهم وصرت أقارن لك بين نوع الانسان والملك ولعلك قرأت المقارنة المذكورة في كتاب الشهرستانى بين الملك والانسان ومزاياهما والمفاضلة بينهما ولعلك تعرف ان الصابئين عبدوا الكواكب والملائكة وزعموا ان الكوكب

رمز للملك وتنزل قوم فقالوا الصنم رمز للكوكب ألم أخرجك من هذا كله الي تمثل آبائك وأجدادك وهم أقرب اليك من كوكب لا تفقهه وملك لم تعرفه ولم تقرأ عنه شيئاً وأنت مع هذا كله تتشامخ بآبائك وصورك وتماثيلك ووطنك وتعد نفسك أرقى الناس مقاما وأسماهم منزلة وأرفعهم مكانة فتارة تحشر أهل وطنك فترسل ناراً حامية على أمم ممن جاوروك وآونة تأخذ العهد والميثاق على جيرانك وتحاربون غيركم وتسمى هذه (جمعية التناصر بالمعاهدة) ولك جمعية أخرى تسمى « بالمصاهرة » يتصاهر رؤساء القبائل وملوك الدول ويتحدون ويقاتلون سواهم ظلما وعدوانا لاعتقادهم ألا حشر ولا حساب وقد تحاربون قوما فتتخذونهم عبيدا أو تقاتلون بهم سواكم وهذه جمعية « الاستعباد » وآونة تتحدون باللغة وتقاتلون من لا يتكلمون بلغتكم وهذه تسمى جمعية (اللغة) وطورا تتعاضدون لانكم أبناء رجل واحد فلما رأيت ظلمك تجاوز الحد فأصبح الناس فرقا يلعن بعضهم بعضا دعوت ربي أن يهديك صراطا سويا فانزل لك الرسالة والوحي على قلوب خواص من عباده فجاؤك وقالوا ان المعبود فوق الاصنام والكواكب والآباء وكل هؤلاء مربوبون مقهورون أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون فتعارف اذ ذاك أبناء الامم المتقاطعة وتعاونوا وتحاربوا ثم جاء رسل متناسقون وأنبياء متتابعون فاختلف الناس فرجعوا الى التقاطع والتدابر واهتدوا بهديهم ووصلوا اخوانهم وآمنوا بربهم وتدبروا ما أوحى اليهم وكانوا اخوانا على سرر متقابلين فحسنت أخلاقهم وعظمت أعمالهم ثم أعرضوا واستكبروا استكبارا فصاروا أحزابا وتميزوا طرائق وتدابروا حزائق وألبسوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض فاشبه يومهم أمسهم فهم فى دياناتهم متفرقون

تفرقهم في أوطانهم ثم رأيتـك أيها الانسـان بعد ذلك رأيت أن ترتد الى الوطنية فهاأنا شرحتها لك واعلم انك مسكين جهول مقهور لا بد لك من دليل تقلده وهاد يهديك ان لم تجد لك مثالا تحذو حذوه فلاحياة لك ولا علم — أراك تهيء التمـاثيـل والصور لترمز لك رمز الآباء والشجعان والشعراء بتماثيل جميلة وصور بديعة سوف يعيدها بعد حين — على انك تقف عند هذه التماثيل وتتذكر أوصاف صواحبتها أما تعرف ياانسان أن هذه هى العبادة بعينها وكم من فتى يتمثل خيال الشاعر في يقظته تارة وفى منامه أخرى وليتدرجن مع الاجيال كأنه من جبريل أو ميكائيل وليعبدنه عبادة الجاهلين ثم لتشكون من التدابر والتقاطع فترجع الى الرسـل كرة أخرى وهكذا لتعيش بين ذهاب وإياب وأخذ وعطاء مابين ربك والوثن والغيب والشهادة فبينما تهرب من مقدس عن المادة مسيطر على العالم اذا أنت انتزعت من خيالك صورة حكمائك وشهدائك وشجعانك فتذكرتهم كأنك تراهم وياحسرة عليك أنهم لا يرونك تتمثل هذه الصور وتهندس شكلها وتروق رقشها بمـا تراه مواتيا لاخلاق المصورين (بفتح الراء) فنهيم بخيالك وتصبو بتمثالك وتدرك الايام لتفتن بالاصنام ثم تنسى أولئك الارواح فتعبد الاشباح أولا تذكر ياانسان بنى الفرس عبدوا الله ورمزوا لجماله بالنور واسطوته بالنار فلطف وجدانهم بما اقتبسوا ناراً ونورا من عبادة الصابئين العاشقين لجمـال الكواكب ثم جاء آخر حكمائهم فابتدع بدعة وقال لا اله ولا حياة بعـد الموت فاحاطت بهم خطيئتهم وذنوبهـم فهووا الى مكان سحيق واضطرب الملك ففتح الاسـلام ديارهم واستبدلوا الكفر بالايمـان فانظر كيف كانوا متدينين ثم كفروا فتدينوا وعلى ذلك جرت دولة اليونان . وكانت لهم آلهة

متعـددة نخرق سقراط خرقا فى الدين اذ أمرهم بالتوحيـد فاردوه صريعا ثم اعتنقوا مذهبه بعد موته فساروا شوطا فى الحكمة ثم قام آخر حكمائهم فقال لا فضيلة الا فى الدنيا ولا آخرة للانسان فسقط اليونان الى حضيض المدنية ثم اعتنقوا دينا . بعد . انك ياانسان شأنك الخروج من دين فتتردى صريعا فتدخـل دينا آخر وقس على هذا هذه الدول لئن عملت أعمـال السالفين لتعلمن هذا النبأ بهم بعد حين وفى كل حالة أنت عبد مربوب ذليل منقاد يقولون الانسان حيوان ناطق وأنا أقول حيوان عابد لم تتركه العبادة لحظة من عمره فان كنت فى شك فاجلس مع فرنسى وذم له نابليون فلسوف بناصيك العداء ويثير عليك حرباعوانا . الانسان لا بدله من تمثل ماهوكامل . في معانيه وذلك هو الله عند المتدينين وأرواح آباء كرام من صالحى العشيرة عند غيرهم

ألا هل أدلك أيها الانسان على الطريقة المثلى أصلح دينك واقرأه نقيا من الشوائب يتحاب الناس ولا يتقاطعون ثم وقفت الحكمة وقالت

حذر المصريين من كلام الذين هم أرقى منهم مدنيـة وقل لهم اعلموا ان الكلام في الديانات والوطنيات والتناصر وجمعيتى الاستعباد والمصاهرة وغيرها من جمعيات البشر لها كلام آخر في علم الاجتماع ألم تروا ان فى العالم قوما يريدون حل كل جمعية على ظهر الكرة الارضية ويجعلون الناس جميعا اخوانا وتتحد القوى وتنحل العصبيات وهذه قد شكلت لها نواد فيأوربا ولقد قالها الذين من قبلهم من حكماء العرب وفلاسفة اليونان ولم يتم ذلك الى الآن — وهل يتم — واذا تم فسيكون الاموال شأن آخر فنوزع الاعمال والاموال على الناس على حسب استعدادهم ويكون للدنيا شكل غير

هـذا واذ ذاك لاترى حربا ولا ضربا ولا يتفاخر الفرنساوى ولا الانكليزى ولا الروسي بعظمتهم ولا كبريائهم وانما يقف أحدهم بجانب السودانى فيصالحه ويزوجه ابنته ومثل هذه المدنية كتبها الخيال على صفحات الاوهام بمداد المصورة وقلم المفكرة والعقل ينظر اليها ضاحكا مستغرقا وهو يقول سيغتر بمثل هذه الترهات ضعفاء العقول الذين يسمعون القول فيتبعون ظاهره ويجهلون باطنه فيسمعون قول أولئك الاقوام فيصدقون ولا ينظرون تفانيهم فى الحرص على الديانات أو الوطنيات والمعاهدات والمصاهرات مما يدل على المدنية الفاسقة وهذه كانت تسمى المدنية الفاضلة عند اليونان وعلماء العرب وهى الآن تسمى اشتراكية أو غيرها فلها فى كل دولة اسم

ثم قالت ألا حذر المصريين وقل لهم اذا تحققت تلك الامانى وهدمت المعاقل والحصون وكسرت المدافع والسيوف ونسي الديناميت والبارود وتصافح الفرنساويون والالمانيون وتحاب الشرق والغرب وقسمت الاموال بالسوية وصارت الارض كلها جمعية أخوية وصرتم معهم اخوانا وأخدانا فافعلوا ما تؤمرون والا فاياكم ان تكونوا ضحكة الامم وألعوبة السياسيين الخادعين

المقالة الثانية والعشرون

﴿ خطاب الحكمة للانسان فى الدين والوطن ﴾

(١ نصح الانسان)

أيها الانسان انى لك ناصح أمين أشفق عليك من ليل الضلال اذا عسعس وأزج لك صبح الهداية يتنفس تخلد الى المادة فاتشلك الى المجردات والمعالى القدسية فأهديك الى أن تحلق فى الكواكب والشموس

والانوار فتقتحف (تستأصل) قلبك غشاوات الجهل وتستضيء ببوارق الحكمة وكم هديتك الي صفات الكمال فى تقوس قضت وعبر مضت فأوعزت اليك أن صورها فى قوالب الجمال وزوقها بالبهاء واجعلها تماثيل الحكمة ورموز العلوم فاتخذت التماثيل وعشقت صورها حتى تقودك الى حكمها وما استتر تحت حجابها فصغارك ببهائها دبقون (مغرمون) وكبارك لحكمها عاشقون ولكم نسيت الذكرى وعكفت على الصور والتماثيل والكواكب فجاءك الرسل والحكماء وزحزحوك عن هذه الاباطيل فقال ابراهيم للعبرانيين أتتخذون أصناما ألهة أم تظنون الزهرة ربا أم القمر أم الشمس أما أنا فوجهت وجهى لمبدعها ومصورها . جاءت الديانات لتجمع القلوب وتربط النفوس فأتبعتها هواك فأخذت تميل بها ذات اليمين وذات الشمال وفرقت الناس فرقا في الديانات والاوطان فجاءك أخر الاديان فمسح الاصنام وخفف حدة الاوطان واستصغر المادة وجمع القلوب على فكر واحد واحد وهو الرجوع الى ذلك المقدس عن المادة واذ علمت انك سريع التقليد قريب التصوير والنقش حرمت عليك نصبها ليبقى الدين مساعداً للفطرة الى يوم يبعثون

﴿ ٢ — خطاب أوروبا فى رقى الشرق ﴾

﴿ ومحاملته وان الاسلام مسالم ﴾

ثم قالت الحكمة أيها الانسان الدنيا أخذت شكلا آخر من أشكال أفلاكها ودارت دورة سريعة للترقى فهاهى الامم الشرقية جمعاء رفعت رؤوسها واشرأبت للعلوم ولا مناص من تقدمها واسراعها الحثيث وهاهو الشرق الاقصى قام من سباته العميق ينفض الغبار عن ثوبه المتلبد آلافا من السنين

ولقد رأيت أبناء الاسلام وسطا بين الشرق الاقصى والغرب وهو مهرول للسبق فى طريق الرقى ولقد رأيتهم ذوى سماحة ورزانة وسكون ووقار ونظرت في تعاليمهم فوجدت أمراً عجبا وجدت أول كتاب في الازهر يقرأ لصغار الطلبة ويحفظونه عن ظهر قلب هو السنوسية فتأملت فيها لعلى آتيكم منها بخبر التعصب أو جذوة من نار العداوة للاوروباويين فاذا فيها ان كل مسلم بالغ عاقل مأمور بالايمان بجميع الانبياء اجمالا وبالانبياء الذين ذكروا فى القرآن تفصيلا وهم ٢٥ كابراهيم واسحق ويعقوب واسماعيل واليسع وذى الكفل وموسى وعيسى ويقولون ان هناك أنبياء لا نعرفهم فكرت فى هذا وقلت هذه عقيدة القوم ومن حاد عنها كفر وحكم عليه العلماء بدخول جهنم والتباعد عن الجنة ان هؤلاء يريدون جمع القلوب واتحاد الكلمة وكأن الشرائع السماوية المنزلة من قبلهم أنوار طالعة ترضاها شريعتهم وتألفها طريقتهم وآية ذلك واضحة فى كتبهم فانى لما قرأت كتاب الاحياء رأيت ما نقله عن عيسى عليه السلام يبلغ اكثر مما في الاناجيل وتراهم لاسيما الصوفية منهم يحبون عيسى عليه السلام حبا جما ويعشقون حكمة ويعملون بها ويحلون رموز القرآن بحكمه ويقولون باطن القرآن كشريعته من حيث تعلق العبد بربه . نظرت في سلوكهم مع المسيحيين أمراً عجباً رأيت ذلك المكاتب لبعض الجرائد الانكليزية أقلع من انكلترا ووصل مصر وخالط الزراعين فى قرية بقرب الزقازيق فرأى من الاكرام وحسن البشر واللقاء والكرم العربى والسماحة الاسلامية والفرح بلقائه وهو لاصولة بيده ولا حول ولا طول رأى من ذلك ماجعله يثني على الاقوام ثناء عاطرا ويصف الحصر المفروشة والأغنام المذبوحة والخدم والحشم

ويقول أنهم فى جهلهم أذكى وأكرم من نظرائهم أبناء التأميز مع تباعد مابين المدنيتين ثم قالت الحكمة فانا نخور بهم فرحة بآدابهم الناجمة من النفوس العربية والتعاليم الاسلامية فهذه شهادة من ذلك المكاتب أيام ان حمى وطيس الشقاق في هذا العام فى حادثة دنشواى المشؤومة فما بالك بهم أيام سلمهم

﴿ موقف أوروبا بازاء المسلمين ﴾

ثم قالت الحكمة أنا أوصيكم يابنى أوروبا أن تنتهزوا هذه فرصة ولست أقول دعوا أديانكم واتبعوا الاسلام ولكنى أقول كلمة حق للوفاق والسلام في العالم . تقدمنا ان ساعة الرقى آتية لاريب فيها وان الامم المنزوية عن العالم المكذبة بما لا تعلم فما قليل ستبيد وسيصطدم الشرق والغرب فى جهادالحياة فهذه نصيحتى اليكم ساعدواهؤلاء الاقوام بالارشادوالاخلاص

وليعلموا منكم ذلك وامنعوا عنهم الضغط وقولوا لهم احيوا هذه العقائد الكامنة فى كتبكم ولا تكتفوا بحفظها عن ظهر قلب فانها أنوار تشع من قلوبكم الى جيرانكم البوذيين والبراهمة والاوروبيين والامريكان ولتكونوا أمة وسطا كما جاء في كتابكم (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أى عدولا تصدقون بالانبياء وتأخذون الحكمة أين وجدتموها ولتعلموا يابنى أوروبا ان أى أمة منكم ساعدت برجالها وجاهها على رقى هذا الجنس من البشر فانهم سيحفظون لها الجميل في الجيل المقبل يوم يقف أبناؤهم وأبناؤكم في صعيد واحد وتتساوى الرؤوس وتقسم العلوم بينهم بالسوية هذه مصر فكونوا أول سابق لانعاشها وانقاذها من وهدة الجهل ثم قالت يابنى أوروبا ان أغلب أسيا وأفريقيا سيكونون برزخا حاجزا بين الشرق الاقصى وأوروبا

متى علمتموهم وهذبتموهم وساعدتموهم على نشر تعاليمهم الحقيقية : وسيكونون كالافغانستان بين الانكليز والروس وكالدولة العلية بين دول أوروبا والممالك الصغيرة المتخللة دول أوروبا كالبلجيكا والهولندا وسويسره ثم قالت يابنى نظرت بالمنظار المقرب فاكتشفت هذه الحقائق من وراء حجاب فلا تغرنكم ظواهر الامور ولا تخدعنكم زينة الظواهر والغلبة الوقتية واشفقوا على مستقبل الدنيا ثم قالت مخاطبة بنى الاسلام انظروا فى هذا الوجود كله واقرأوا سطور مابهر من جماله ولتعلموا ان نقوش السموات وابداع الارض فهقت (امتلأت) بالحكمة ولئن اتخذ أقوام تماثيل عن جمال الاخلاق فماهى السماء وبروجها والارض وفجاجها امارات وحكم وعلوم ونعم فلا تدعوا علما الا قرأتموه ولا ندروا فنا الا درستموه واعلموا ان الخمول والضعف كانا حبالة عتيقة فوهنت فاستمسكوا بعروة العلوم الوثقى وقوموا للامر قانتين ولتعلموا ان الديانات (حبل يربط به) الامم وزمامها — أروني أمة بقيت بعد ذهاب دينها ولم تسقط فى مهاوى شهواتها والعلوم الكونية صلة نسب بينكم وبين جيرانكم لحبكم للانبياء وعلمكم بما يعلم الناس وشيجة نسب وصلة سبب

خطاب النوع الانسانى

ياانسان همومك متشعبة وغمومك محدقة ولن تسلم يوما ما من نكبه تصميك أو وصمة تشينك أو ترديك فالى من تلجأ بقلبك الا لبخع نفسك (للانتحار) ان سقط جسمك فالارض مأواه ولئن أزعجت روحك فعلى من تعتمد حتى تخفف الاشجان ؟ كم من رجل قلبت أتراحه أفراحا بالفكرة في ربه أو تشكلت أفراحه أتراحا اذ يرى سرعة التقلب وذهاب الدنيا وألا

حياة الا الخيال ولا وجود الا الوبال والى ماذاتوجه روحك عنـد هرمك
ومرضك ثم ودعت الحكمة السامعين وتبرقعت بالجمال واحتجبت بالجلال
فقام الجمع وودعها وانصرفت والقلوب معها

المقالة الثالثة والعشرون

عجائب الرشوة

ومن عجب أن يدلي المرء بالرشا   الى نابه في الشرق وهو ذليل
وأنت تراها في المغارب أسديت   الى خامل يدلى بهن جليـل

الرشوة هى حمى الربع وداء المفاصـل في جسوم الامم جمعاء لم يتجنبها
المتوحشون ولم يتخلص منها المتمدينون — ريح صرصر عاتية — تقتلع الجدور
وتذر الرماد فى العيون — توقد نيران الشهوات فى أفئدة المسلط الغشوم —
وتوقفه موقف السائل المحروم على أبواب الفقراء والمساكين فترى القوم فيها
صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية — لايعى الحاكم العدل ولا ينال المحكوم
الحق — يحشر بها الرعاة الى صـعيد الظالمين ويساق بها الرعايا الى هاوية
الهـالكين — الرشوة مطية الدجالين فى أحكامهم الماسخين لشرائعهم أولئك
نواب المسيخ الدجال في الارض شبوا مع الانسان فى أطواره — وتقلبوا
معه في أدواره — ولبسوا البسة تخالف شكلها واتحد عملها ونتائجها — فتارة
تراهم بهيئة خزنة الجنان ومنقذى الاشرار من النيران — وآونة تراهم يتزيون
بزى المرشدين وماهم بمرشدين ان هم الا كالانعام بل هم أضـل من الانعام
وطوراً تخالهم حكاماعادلين وبررة متقين وقد تنزلوا من سماء عظمتهم وجلال

كبريائهم ومدوا أيديهم الى أسافل القوم وأصاغر الصعاليك فاستنزلوا بعد عز من مراتبهم فأودعوا حفرا من جهنم شهواتهم فخسروا حرية الحاكمين وباعوا جلال العادلين بثمن بخس دراهم معدودة وقد كانوا فيها طامعين

المرتشى ذليل فى طعمه أسير لجشعه يتناول اللاقمة من الارامل والايتام ويتقبل الهدية من أصاغر اللئام فيصبح لهم ذليلا مهينا . المرتشى يتواضع لمن يجب الكبر عليه ـ ويستذل لمن يجب التعزز عليه — يبيت والهواجس تملأ قلبه رعبا ويصبح والطرق سدت دونه مسالكها نيرى رسوم الصور الانسانية وهيا كل أشخاص الرعية كأنها عليه عيون وهو فى وسطها لهاغريم محسور مليم — أو لا يعلمون ماحكى عن سرى من سراة العرب اذ شرفه ملك من بنى العباس فأجلسه فى مجلسه مكرما معظما فأقبل رجل يشكوه الى الملك يقول قد اغتصب ضيعتي وأجاع صبيتي فقال له الملك لتقف معه موقف المتقاضين بجانب غريمك فقال ذلك السرى أيها الملك ما كان لى ان أضيع مجلسا شرفنى به الملك بضيعة فان كانت له رددتها عليه وان كانت لنا فهى له هبة فحمد التاريخ سراه وعظم قدره وعلا — أذلك خير أم من ألقيت اليه مقاليد الرئاسه ومفاتيح السياسة فاشترى الذلة بالعز واستحب أرذل المواقف على أشرف المناصب فباع حياته الطيبة بشبع بطنه وجشع نفسه فمثله كمثل الكلب اذا أجلسته مجلس الوزراء واصطفيته مع الشرفاء وألبسته التاج والوسام فى مجالس الملوك الفخام — ثم لمح عرقا مسلوتا أو عظما مجرورا فلا وربك لا يلبث بعض ثانية أو يبصبص بذنبه ويقفز برجليه ويذر الشرف لذويه والعز لاهليه وينقض على الفريسة المنبوذة والعظمة المعروضة ويلتقم لفاظات الطعام ولا يبالي بالانام لا يفرق بين الانعام والانتقام ولا بين الضعة والانعام يتمثل بالكلاب مع

الاذناب ويتربص الوثوب على العرقوب المثقوب ذلك مثل المرتشين من الشرقيين

﴿ شكل عجيب للرشوة في الشرق ﴾

كانت الزكاة طهارة للقلب وصلة للرب فى الاعصر الاولى للمسلمين تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم تعطى للفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم والمدينين الذين اجتاحتهم السنون وخربتهم الديون والمسافرين الذين لا مال لهم فأمر الاغنياء بمواساة أولئك البائسين ومواصلة الارحام والاقارب تحببا لهم وجبراً لكسرهم واعظاما لحقهم واقترابا للاغنياء من الفقراء — بذل المال ظاهره رحمة الفقراء وجبر الضعفاء وباطنه تحرير النفس من رذيلة البخل واثم الشح والتملص من أسر المال والتنصل من ربقة استعباده حتى يسهل على النفس ماينتابها به الدهر من الجوائح ومايجتاحها من النوائب فهى للفقير صدقة واحسان وازاحة داء الحقد من قلبه والدغل والنغل من ضميره على أخيه الغنى — وهى للاغنياء راحة من حقد الحاقدين وحسد الحاسدين وفك للقلوب من عقالها وتخليصها من اقفاصها فلا تطير شعاعا . لمرزأه فاجعه ولا تبخع نفسها لمرزأة تصيبها ذلك انفاق المال وسر بذله وجمال وضعه مع مايتبعه من ثناء وجلال ومدح وجمال — أليس من العجيب ان عكس الوضع وقلب الامر فادلى الفقراء باموالهم الى الاغنياء والحكام لينصفوهم اذا حكموا ولا يظلموهم فى مواقف المتقاضين فزادت الغنى حرصاً والفقير ذلا وتباعد الطرفان فلا سلام ولا أمان

﴿ شكل الرشوة في الغرب ﴾

المرتشون في كل جيل حكامه ولقد علمت الشرق وحكامه ونظامه

وأحكامه ولا أخالك الا عالما بما في الغرب من حرية ودستور ونظام الجمهور فترى الامر معكوسا الى الاحسن والوضع مقلوبا الى الاجمل وانا واياهم فى الشر اخوان ولكن في الشر خيار وبعض الشر أهون من بعض فرشوتنا شر من رشوتهم وفعلتنا أقبح من فعلتهم ذلك انهم رأوا ان الحاكم الاصلى هى الامة غنيها وفقيرها أميرها وصعلوكها فتنزل الاشراف الى الاصاغر والباعة والحمارين والجزارين والعطارين وماشا كل ذلك في مواسم الانتخاب فترى ذلك الذي يسارع الى أن ينتخب يتنزل من سماء عظمته وكبريائه وجلاله وقد اصطحب زوجته وأبناءه وأقبل على أولئك الصماليك فصافحهم ومديده بالمال فواساهم ليكونوا له أصواتا ويضموا أصواتهم لينال منصبه فكان هذا شكلا من أشكال الاحسان (مكره أخاك لا بطل) فهم على هذا مكرهون وهم فى رشوتهم محسنون — عجب للمال وأشكاله وضروب الاحسان وأحواله يلبس لكل حالة لبوسا — فضرب منه لاغاثة اللهفان وطهارة الافئدة وشرف النفوس كالصلات والعطايا وضرب هو ذلة للمعطى (بالفتح) وهلاك المعطى (بالكسر) — والضرب الثالث كالاول في أشكاله فهو صلة بين المحسنين والفقراء وان كان مقصده أنزل وشرفه أقل

الا فليتنبه المرتشون المصريون وليعلموا انهم مضغة الافواه أذلة الجاه لفظتهم رعيتهم ومقتتهم رؤساؤهم — نحن لا نذكركم بحرج الموقف في وسط حلقة الطامعين المحدقين والشامتين المتربصين فربما لا يهم اكثركم أمر العموم — ولا نذكركم بما قست قلوب كثير منكم على الارامل والايتام والنساء البائسات — تمدون أيديكم لمن شرق حقلها أو حرقت ابنتها فتمتارون من لفاظات موائد الاولى وتسألون من فضلات عيش الثانية حتى تسقوا

الروع وتدفنوا الجثث في القبور نحن لا نذكركم بذلك ولذعه فى القلوب الرحيمة فربما انتزعت الشفقة والرحمة من القلوب ولكنا نذكركم بشرفكم ودروسكم ومدارسكم وان العالم يترفع عن الجاهل وانما أنتم فى مواقف الهداة — أو ليس من العار ان يكون الهداة هم الجناة أو يتساوى ابن المدارس والعلوم بالسائل والمحروم

المقالة الرابعة والعشرون

الجمال مساء فى الهرم

هل للقارىء صديقى أن يروض نفسه خارج القاهرة حتى نشاهد جلال الخليقة وجمال الطبيعة وبهجة النور وهذا الفضاء الذى قصر العقل ان يحد مداه وتقاعس الفكر أن ينال أقصاه . أشير عليك بذلك كى تشاركنى فى الراحة كما شاركتنى فى العمل طلبا للاحماض (مأخوذ من الحمص بفتح الحاء نبت ترعاه الابل اذا سئمت مراعيها فيكون كالتوابل لاشتهاء الطعام والقصد هنا ترويح الفكر وترويض الجسم بالمناظر واللطائف) خرجت وللاصيل ذهب يترقرق حسنه فى الفضاء ويتماوج فى البطحاء وقد كسا البسيطة حلته البهجة يكاد سناها يذهب بالابصار وملأ كأسا من العقار لذوى الانظار لا لغو فيها ولا تأثيم

(طال عليها القدم فهى وجود لا عدم)

جمال هذا الفضاء وما يمازجه من النور والحسن مغناطيس القلوب وجاذب العقول لاكتناه عجائبه والنظر في لطائفه عسى ان تتناسى الهموم والاحزان وما يداهمنا به الدهر من خطوبه فلنفر من سجين الاجسام الي

فسيح جنات العقول ونعيم الارواح ولنودع عذاب الهموم ونصافح رحمة النظر والفكر فيما يحيط بنا من الجلال والجمال

تأمل معي ألست ترى فضاء لن يتناهى حده ولن يقف قده ملك على لطائف العالم وكثائفه المجموعة الشمسية فى قبضته وشمسها وسياراتها وأراضيها واقمارها وتوابعها وذوات أذنابها وهكذا كل مجموعة من ذوات الشموس التى لايعرف لها منتهى بل جميع هذا العالم مما تبصرون ومالا تبصرون في حكم هـذا الفضاء . عجبا لعقولنا وادراكنا وأجسامنا نرى الجسوم حبست فى هواء الكرة الارضية بل فى جزء صغير فضاقت عليها الارض بما رحبت وضاقت عليها أنفسها فأخذت تملص من أقفاصها وتخلع من ردائها وترجع الى عالمها وتقول ابعد هـذى الارض عالم فترى الافلاك وافلاك الافلاك والمحيطات بها ويقف علم الخلائق وراء المحيط الاعلى والفلك الاطلس (الذى فوق جميع الافلاك على رأى اليونان) وترى وراء ذلك فضاء تتخيله الظنون وقد حاول علماء اليونان أن يبرهنوا ببراهين هندسية ان للاجسام نهاية فأوقفوا مجال العقول عند حدود محصورة وصور متصورة حتي اذا جاء العلماء العصريون فقالوا الموجودات مع الفضاء كلاهما لا نهاية لمداه والعقل يقصر ان يعد للنهاية يداً . رويدك أيها العقل أنت لاتدرى أأنت أوسع أم الفضاء أراك تارة تحكم عليه فتعين له نهاية وطوراً ترسله وتطلقه من عقاله وتصرح بألا نهاية له وانك مهما سرت فى مسراك معه فلن تجد له آخراً وان وراء كل شمس شمسا وبعد كل نجم نجما . أجل أيها العقل فان قيل أنت أكبر من هـذا العالم وأجلى وكانك تتلمس فى أثناء تجسسك موجوداً يحيط بهذه العوالم حتى اذا وصلت اليه أنبأك بمكنونها ولعل هذا

الموجود لا شبح له ولا جسم محيط بالعوالم أوسع من احاطتك ولا ظل له كما انك تسبح فيها ولا مكان لك ولا زمان تخالط العوالم ولا يراك راء ولا يسمع بك سامع فقد يقال الاجسام تدعى عليك الغلبة وتستكبر عليك فلا تعلم منها أقرب ء الديك وأوصاف جسمك فأنت طوراً يكبر شأنك وآونة يخبوز ندك (خبازنده لم ينجح في مسماه)

لتسر معى أيها القارىء ولندع العقل ينازع العالم والعالم ينازعه وهما يتصارعان ويتضاربان وكل يدعى السلطة والقهر والغلبة ولتنظر معى مايخالج الضمير فترى سرور النفس وبهجة القلب بالمناظر البهجة والاصوات المشجية والنغمات المطربة يمازجها ذكرى من لهم بنا علاقة فيشوب الفرح الالم بما يصيب الاهل والاصحاب والبلد وتذكر معى ماخطه يراع الكاتب الانكليزى اللورد ايفرى يصف الامة الانجليزية انهم اذا فرحوا يحزنون واذا طربوا يتذكرون أهلهم وأشجانهم وأبناءهم وعشيرتهم فيمازج السرور هم ويخالج الفرح ترح ثم رجع عليهم باللائمة فقال ألا تتذكرون ماقيل قديما في المثل (انكلترا الفرحة الطروب) ثم تمنى أن يخالط الفرح بشاشة قلوبهم وطرب الغناء وسماع الموسيقى وألا يشاب بحزن وأشجان هذا ماأردت أن تعرفه أيها الصديق من كلام هذا الكاتب . ولعلك ترى معى هذه الارواح تناطح الجوزاء وتطاول السماء وتتخطى الحدود وتطير على أجنحة براق الخيال وتمتطى المجموعة الشمسية وتحكم على الوجود ومن كانت هذه بعض أوصافها فلن يهنأ لها سماع أو يتم لها طرب أو يواتيها فرح الا اذا شاركها الاهل والولد والجار والبلد والوطن وكيف يسوغ الطعام والشراب أو يحلو المذاق وقومك في عذاب واصب أو بلدك غير آمن فنحن نرى رأيا خلاف مارآه كيف

لاوهـذه المسرات جعلت سلما لذكرى عظائم الامور فهذه المناظر الجميـلة والاصوات البديعة المنعشة للافئدة تفتح لها الذكرى وتوسعها بعد الضيق تكاد تبتلع العالم علما وتوسع الاصـدقاء عطاء فليس هذا السرور مقصودا لذاته قاصراً على نفسه وانما يتخذ العقل من الاثير (هو شيء يملأ الفضاء الطف من النور لايخلو منه شيء) قوة فيستجد نشاطه ويتسع كالفضاء ويخرج من سجن قفصه كم من محب تذكر محبوبه فى هذا الفضاء الطلق من حفيف الاشجار وكم من حكمة وعاها الفؤاد من تغريد الاطيار وكم من كاتب أغلق عليه فكانت الانهار مفاتيح أسراره وقادة أفكاره فتوحى اليه كل نابتـة وتعلمه كل رطبة ويابسة أجل أيها الاخ فان للمعاشر غلبة على فؤاد من معه وهذه العجائب البديعة متى خامرها الفؤاد أعطته من صفائها وبهائها فيعطيه الفضاء اتساعه والانوار لألاءها والاشجار حسنها والازهار حبها وأنسها والاثمار كرمها والطيور فرحها وطربها

ولعمرك ماعلمنا من نبى أو حكيم الا والعزلة مبدأ أمره والهواء الطلق خازن أسراره ومنبع أنواره واذا قرأت ماكان من عزلة النبي صلي الله عليه وسلم فى غار حراء ونظره في هذا الوجود بفطرته فقابله بروحه فاضمحلت دونه الاجسام والاوهام كسائر الانبياء فكان ماكان من وحى خاص بهـم وترى الحكماء يهيمون فى أودية العقول ليكتنهوا الحقائق فالانبياء بوحيهم والحكماء بنظرهم أيها الصـديق نحن فى الفضاء فلا نتقيد بموضوع بل نقرأ سطرا آخر على لوح الضـمير قف معى هنا قبل هذا الهرم ولا قص عليك ماخالج الضمير هذا المكان طالما فكرت فيه واجتليت فيه الحكم واملك تذكر الفصل الذى ذكرنا فيه الحكمة تخاطب الانسان فلقد كانت ذكراه في هذا المكان

في الاسبوع الماضى فها أنا الآن أذكر الحكمة التى سطرتها بنفحة من هذه البساتين ولمحة فى هذا الفضاء فارانى سعيداً بهذه الذكرى ولن تزال تتجدد كلما تقادم عهدها فهى التى ان طال عليها القدم تلكون وجودا لا عدما يجدر بى أن أذكرك أنواع الذكرى وهى ثلاثة ذكرى سعادة للمفكرين والعاملين وذكرى حسرة لمن عملوا سوأ وهم عائشون لا يعقلون وذكرى ندامة لمن يعقلون ولكنهم لا يعملون

أعرني أذنا صاغية وقلبا واعيا ونفسا صادقة وادرس معى أخلاق هذه النفوس الانسانية وأنواع ذكراها ولا تسل الا ضميرك فلنشرح ذكرى السعادة . ذلك أن التجربة قضت أن ماصرفناه من وقت فى العمل النافع بلا بطالة ولا كسل ولا لغو وان كان فيه نصب وتعب ثم أنتج ثمرة بعلم عرفناه أو مجد بنيناه مثل ماأذكر الآن في هـذا المكان فان ذلك يزيد القلوب فرحا والنفوس طربا كلما تجددت الذكرى والمسرات الداخلة على العقول من كل باب من أبواب الحواس الظاهرة والباطنة وكان كل شجرة وورقة وزهرة وخرير ماء وتمايل غصن وتلالؤ نجم وتألق برق كلمات سرور بذكرى تلك الايام الخالية العامرة باحاسن الاعمال والجمال فهذه هى ذكرى السعادة أما الثانية وهى ذكرى الحسرات فما من أحد يحملها الا أولئك الذين مضى شبابهم فى شهواتهم العاجلة ولا علم لديهم استفادوه ولا مجد بنوه فيتذكرون الايام الخالية ويتحسرون ويقولون ياليتنا نرد الى هذا النعيم وذلك لانهم لضيق عقولهم سجنوا فى دائرة من اللذات ضيقة النطاق شاركتهم الانبياء والحكماء وجاوزوهم الى ماينصر دونه متناولهم وهؤلاء حسراتهم تتزايد كلما تناقص العمر ومن هذه الطائفة من يقول

ليت وهل ينفع شيئاً ليت　　　ليت شبابا بوع فاشتريت

ومن يقول

ان الشباب الذى مجد عواقبه　　　فيه نلذ ولا لذات للشيب

وهذا الفريق قوم ماتت ضمائرهم ولم يعلموا الا دائرة الطعام والشراب والفاكهة وأدخلوا مع البهائم فى حياتها الدنيئة ولا يندمون على مافرطوا لانهم لاايمان لهم ولا راجرا ولا ضميراً نقيا يوبخهم وهم الذين ورد فيهم (وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون) بدت الشهوات فاستهوتهم وزينت لهم ظواهرها وأحرقت نيرانها بواطنهم (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وانما الذين يندمون هم القسم الثالث وهم ذوو نفوس ذكية فيذكرون مخازيهم وعيوبهم فتجرح قلوبهم الذكرى وتدمى نفوسهم بالندم ويذكرون ظلم من ظلموا ويبتدىء الزمان يعاقبهم ويقول أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون أيها الصديق هانحن أمام الهرم .

المقالة الخامسة والعشرون

﴿ الجمال مساء أمام الهرم ﴾

(تابع ماقبله)

تأمل عظمته وجلاله وتقادم عهده . أنا لاأدعك تعطف على هندسته واتقانه ولا حساب ضلع قاعدته المقدر بألف شبر حتى تستخرج منه الموازين والمكاييل المصرية والا حسبتك خارجا من مدرسة الى مدرسة

ولكن أنظر الشمس ترفرف عليه بأجنحة النور وقد آذنت بالغروب وهى تنظر اليه شزرا وتلمحه كبرا وعجبا وتعجب من دوامه وبقائه وقد دمرت كل شيء مرت عليه بتعاقبها وهذا مضت عليه الدهور والحقب وهو يهزأ بطلعتها ويسخر من دورتها ويلبس خلعتها. مد عينيك الى هذه الصحراء صوب مغرب الشمس فلترين أميالا وأميالا من الرمال والصحارى والقفار يطويها السائحون طي السجل للكتاب حتى بحر الظلمات (الاطلانطيق) فتصل أمواج الرمال بامواج البحار تجرى عليها أمواج من نضار الشمس يكسوها بهجة وجمالا. تأمل معى كم خلت من قبلنا من أمم وذهبت قرون كانوا يعشون فى هذه الاماكن تصطف عساكرهم وتنشر أعلامهم قد طوتهم السنون وأكلتهم الدهور كما يطوى السائح الفلاة في هذه البطحاء كم حج هذا المكان من عابد تقربا الى عظمة أبي الهول فيركع للشمس ويسجد للآلهة ومن الحافين بهذا الهرم المظيم آل فرعون موسى الذين طغوا فى البلاد فاكثروا فيها الفساد وذلك الملك الظلوم والفاتك الغشوم قمبيز الفارسى اذ جاس خلال الديار بقوة السيف والسنان واعانه على فتح البلاد غلو القوم فى دينهم عبدوا الحيوانات واتخذوها نموذجا للرب ثم عكفوا عليها فأوقفها قمبيز بين الفريقين ووسطها بين الصفين فتحرج من حربها المصريون تأدبا ورماها الفارسيون فصبوا عليهم المذاب صبا واذكر فى الكتاب اسكندر اليونانى اذ عدل في الرعية وبنى الاسكندرية وتذكر ذات الجمال والحسن والدلال الفاتكة بالجارحين لحظها والنبال الفاتكة بالقوتين ملكها والجمال الملكة كيلوبترا من سلالة خلفاء الاسكندر على ملك مصر وواسطة عقد ملوك البطالسة كم صفت جيوشهم وعزفت طبولهم وغنت

أعوادهم فى حمى هذا الهرم ثم طواهم دهر الدهارير

بالامس كانوا ملوكا فوق أعرشهم ... واليوم أضحوا وهم فى التراب آثار

أين الملوك التى كانت محجبة ... من دونها ضرب الاسياف والنار

لم يبق الا طاول بعدهم شخصت ... يبدو بهن من الآيات تذكار

وتذكر الرومان وظلمهم كانوا اذا بطشوا بطشوا جبارين واذا ظلموا ظلموا فاتكين واذ مسخ عمرو بن العاص ظلمهم ونسخه بالعدل واذكر الامويين وما وسع ملكهم والعباسيين وعلومهم والطولونيين وبنى الاخشيد والفاطميين وبنى أيوب والمماليك طحنهم الدهر بطوله وأناخ عليهم بكلكله فتلك بيوتهم خالية . ارفع قدمك عن الثرى ترفق لا تطأ تلك الوجوه الباسمة والخدود الناضرة والقدود المائسة والعيون الناعسة واذكر ماقاله أبو العلا

خفف الوطأ ما أظن أديم الا ... رض الا من هذه الاجساد

فقبيح بنا وان قدم العـ ... ـهد هون الآباء والاجداد

دعنا من تخطيط البلدان وتاريخ القرون الخالية وانظر جمال هذا النجم الطالع وقد ولت الشمس ولبس العالم أثواب الحداد وكأنها غانية مثلت دورا وشكلت فصلا فى رواية هذه الدنيا ثم أرخت الستار فطلعت من بعدها نجومها والاقمار وأخذت تبتدىء فصلا . تأمل كيف ولت هذه الامم والقرون وتمثلت أجسامهم بالتراب وطاحت أيامهم وذهب عزهم وهذا الهرم أصابه داء النقرس فى رجليه فتحطمت أحجاره ووهنت قواه وذهب جماله وانقضى شبابه وأنت ترى هذا النجم المتلالىء يضحك على الامم وفنائها والاجيال وذهابها والمحاسن وبلائها ينظر النجم ويضحك ويشع نورا فى الاثير يخترق السبع الطباق ويجاوز الافلاك ويخامر العيون ويخالط القلوب ويوحى الى

العقول آياته وينزل على الافئدة بيناته هذا هو الجمال المحبوب والمنظر المرغوب .مضت القرون وخلت الاجيال وذهب الجمال وفنى الفتيان والفتيات والملوك والملكات

واستنزلوا بعد عز من مراتبهم وأودعوا حفرا يابئس مانزلوا

وأنت أيها النجم الصغير ضاحك باسم شبابك زاهر و حسنك باهر وان شأنك فى غرابته عظيم تكحلت بالظلم وهزئت بالعدم وكم أغرى جمالك تلك الامم بالحكم فنقشوها فى نفوسهم وودعوا هذا العالم ولحقوا بافقك الجميل فهم فى سياحاتهم يهجون وبحبك لمجون أنت قلم خط على ألواح البصائر حكما وكلما محتها قلوب وعتها قلوب

أيها الصديق ان فى الجمال لامرا عجبا فيه للجهال نقائص وللعقلاء كمال انظر فى هياكل الصور الانسانية ونقش أبداعها وترقيش محاسنها جعل كذلك ليكون داعيا للنسل والولد لجهل النوع الحيوانى عامة ومنه الانسان بمصائر الامور واعقاب الدهور فغرست هذه فى فطرته ليلد وأحيط بالحكمة والدين والعلم لئلا يضل عن القصد ويظن نفسه أحقر من البهيم وأخس من الجراد فيضع نسله في السباخ . أويذره عند جاهلة بغى أو خائنة فيترك نسله عندها وربما ربته فى أخس الاسرات وهو يظن نفسه انسانا ومادرى ان الجراد يحفظ نسله بحكمة عجيبة ويقدر له بعداً مخصوصاً وحرارة ثم يدفنه حيث يجوز الافراخ . أولا يعلم ان ذكر الحمام وأنانه تتعاون على تربية أولادها فالحمام أشرف منهم والجراد أرفع قدرا وأعلى منزلة وقد قال الحكماء ان مايربى أولاده من الحيوان كذوات البيض واللبن أرفع مما لا تعلم لاولادها مكانا كالبعوض وبعض الاسماك تذر بيوضها فى الماء ولا تدرى بما تجريه

عليها المقادير فهذا الصنف من الناس أشبه بالذباب والبعوض يترك نسله في أرحام الباغيات الفاسقات يربينه في أحضان من لا يعرفهم أولئك أخس من الانعام . كلامنا الآن في الجمال وانه وسيلة الى حكمة في القلوب فدام وجوده كجمال النجوم وبهائها ولما كان الجمال الانسانى سلما للتناسل فحسب مسخه الليل والنهار من الفتيان والفتيات متى مضى زمن الشباب ويستبدل عشق نقش الصور بحب أجل وأعلى وأدوم وهو تبادل المنفعة بين الزوجين بتدبير المنزل وتربية الاطفال وهذا أمر عجب نرى ملكة النمل اذا حملت حملها كسرت جناحيها ورمت بها وعكفت على تدبير أمر الملك وترى الشابة يذبل جمالها متى ألقت حملها لاول مرة هكذا دبرت النواميس على هذا النسق ان جمال صور الناس ليس نهاية ماترومه الحكمة الجمال قبة نور من الله طلعت على وجوه السموات وعيون النجوم فزوقت الدنيا ونقشت الجو والسحائب ورقشت الصور وهندست الاشكال وكان من آثارها حساب المهندسين ومسائل الحاسبين تنزلت تلك اللطائف في الصور الانسانية فنقشتها ولونت العيون وكتبت النون أمداً قليلا أيام الشباب ثم استرد الجميل ودائعه واسترجع ضائعه وذبل الجمال وانكمشت الجلود ثم تفر الروح الى جمال لا يزول فهذا كل مايكون وفى السماء رزقكم وماتوعدون

فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون

هاهو القطار كر راجعا فهلم بنا نمتطيه

وانظر هذا السائق والقائد يغمض عين نور الكهرباء وقد أضاءت الحجرة وأنعشت القلوب فها هى أظلمت والنجوم أسفرت وكأننا اذ ذهبت شمسنا وأظلم نورنا كحال الارواح بعد صعودها تطلع نجوم أفقها

وأقمار سمائها فى صفاء وسكون وأنس وحبور اه

المقالة السادسة والعشرون

﴿ القرعة وعلم الاخلاق ﴾

سأخرج للبراز خلى بال بقلب قد من زبر الحديد
وأطعن بالقنا حتى يرانى عدوى كالشرارة من بعيد
اذا ماالحرب دارت لى رحاها وطاب الموت للرجل الشديد
ترى بيضاً تشعشع فى لظاها قد التصقت باعضاد الزنود
لاقحمها ولكن مع رجال كان قلوبها حجر الصعيد (١)

لهج قدماؤنا بالافتخار بالحروب وطعانها والخيل وكرورها والاقران ونزالها وتمادحوا بالتفانى في القتال والموت في الميدان حتى قال شاعرهم

وانا أناس لاتوسط بيننا لناالصبر دون العالمين أو القبر

وقال السموأل

وانا أناس لانرى القتل سبة اذا مارأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيدحتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

وهنا يتساءل من ذا الذى يستبدل الموت بالحياة والقبر بالقصروالعدم بالوجود ؟ والجواب عن هذا السؤال يستدعى تحليل الاخلاق وأطوارها

(١) ينسب الشعر لعنترة
الزبر القطع والبيض السيوف والاعضاد جمع عضد مابين المرفق والكتف من اليد وأقحمها أى الحرب أى أتوسطها بقوة

في الانسان وكمالها فيه

الانسان لن تكمل حاله الا بأربعة أمور هى أمهات الاخلاق وجنات السعادات ورضوان الحياة تحت أقدام هذه الامهات وهى العفة والشجاعة والعلم والعدل .

العفة اعتدال المرء فى مأكله ومشربه ونومه ويقظته وملبسه ومسكنه وملكه وأعماله وأوقاته والشجاعة اعتدال فى القتال والغضب والانتقام ويتولد عنه الكرم والحلم وماأشبههما والعلم يشمل الحكمة العلمية والعملية بأقسامهما وهى ستة أما العدل فهو نظام هذه الامور جميعها والاعتدال فيما بينها وتقسيم قوى الانسان عليها . هذه جماع أخلاق الامم التى عليها يدور حكم العلماء قديماوحديثا ولن يشذ عن هذه الاربعة خلق من أخلاق الانسان وهى الاساطين التى عليها بنى الاستقامة والكمال والمدنية والذى يعنينا تطبيق أحوال الامة عليها الآن فنقول : العفة يتخلل ذكرها كتب العلم والدين وأماكن التعليم جماء والعلم تكفله نظارة المعارف العمومية ولهاشأن يخصها والعدل تحمل أعلامه الحقانية فلها الغنم وعليها غرم وأما الشجاعة فأمها مدرسة الحربية وأبوهانظارتها وأبناء الامة أجمعون منها يألمون وعنها يتباعدون وعند سماع ذكرها يضعون أصابعهم في آذانهم من صواعق مدافعها حذر الموت والموت الادبى محيط بالقوم الذين يجبنون

افتتحت الامة العربية هذه البلاد بحد السيف والسنان والسلم والصلح فتربعوا فى دستها أيام الدولة الاموية والعباسية والفاطمية ولما ان اجتاح التتار دولة العباسيين واستأصل صلاح الدين الفاطميين من مصر فى القرن السادس ثم دارت الدائرة على بنى أيوب بانقراض آخر ملوكهم وهى

شجرة الدر ضرب المماليك مصر ضربات وبطشوا بطشتهم فيها جبارين وتحكموا على النفوس وكانوا يمثلون حكم الرومان وبقيت بقيتهم تنخر في عظام هيكلها وكانوا يسمون الصناجق فأكلوا اللحم وأذابوا الشحم وهشموا العظام وأهلكوا الحرث والنسل وجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ودما مطلولا وموتا زؤاما وسهدا و حراما فاختصوا بأشرف سمة وأعلى هبة وهي حماية الديار والاخذ بالثار فبقي القوم في ديارهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم الا بقية باقية عزلا (لاسلاح معهم) كالنساء فنسوا حظهم من الجندية وظنوها احدى الكبر وعبرة المعبر حتى اذا جاء محمد على باشا الكبير فعلمهم العلم المفقود ودربهم على الحرب والضرب فضربوا بالمدافع والسيف وألفوا رحلة الشتاء والصيف فيوما تراهم في الحجاز يقاتلون الوهابيين وآخر للروس مهاجمين وآونة باليونان وكريد وطوراً على الشام يزحفون وفي بلاد الروم يقاتلون وانما ذلك كله اكراه وقهر قهروا عليه فتراهم يقطعون أصابعهم ويشوهون صورهم ويغيرون خلق الله فراراً من أشرف الخلال وأعلاها وهي الشجاعة وأشتهر بين العامة انهم يؤخذون ظلما وزوراً وكأنهم يساقون الي السجون ويدعون الى الموت وهم له ينظرون

أو لم يكن من العجب ان يتساوى في تلك الايام تلميذ يساق الي الدرس والمدرسة وجندي لساحات الوغى فكانت اذ ذاك تنصب المناحات وتندب النادبات على التلاميذ والاجناد وتسخم الوجوه وتلطم الخدود على التحلي بالحليتين حلية الشجاعة وحلية العرفان فمر الزمان وامتاز الامران فلم يبقيا سواء مضى قرن فيه أبرق العلم بنوره وسطع باشراقه على الوجوه فقذف الناس باكبادهم الى المدارس واتبعوهم باموالهم وازدادوا طلبا كلما ازدادت

المداوس هربا وعليه فقد عرف الناس قاطبة ثمرات المعارف وتخلفت أختها الشجاعة فى أخريات الاخلاق فياليت شعرى ماالذى أبطأ بهم حتى جهلوا فن الشجاعه والمران والتدريب على النشاط والقوة وهو النظام العسكرى

أكتب هذاولا أدرىما السبب فى هذا الجهل والتجاهل والانعكاس وقلب الوضع نرى الاغنياء الا قليلا منهم يجودون بما ملكوا لملء أدمغة أبنائهم بالعلوم ويضنون عليهم بالمران العسكرى لابل يفدون لهم الفداء كما فدى ابراهيم ابنه بكبش أملح كأنهم يحذرون ان يتكمل الابناء بفن الشجاعة عجباً لك أيها المال أعطيت الخصلتين وانتجت الضدين فضيلة العلم ونقيصة الجبن وهكذا عدوك الفقر أدى الى نقيضين معكوسين الجهل والشجاعة ذلك ان الاغنياء يعلمون بالاموال وبالاموال يفدون من الاقتراع

الفقراء لايعلمون أبناءهم لمتربتهم وفقرهم وبالمتربة عينها يضطرون للنظام الجندى وترى المرأة تولول وتعول صارخة اذا أدخل ابنها فى الجيش

أليس من العدل وحسن النظام وتعميم المعرفة ان يعرف الناس قاطبة ماالقصد من نظام الجندية ثم لايصطفى قوم لفقرهم وينبذ آخرون لدفعهم البدل ؟ كلا . فان المسألة تهذيب وتدريب لاتعذيب وتغريب وابعاد وتخريب وانما هو درس وتعليم (اذا كان ذلك هو القصد) كما سنذكره

فالاجدر أن يحشر الناس فى صعيد واحد ويتبين الصغير والكبير والعظيم والحقير أن ذلك خير وأحسن تأويلا

سيقول كثير من الناس مالنا ولهذا الخط المنكسر أنفارق أبناءنا ونعيش في أشجان وأحزان وربما مات أعزاؤنا أو متنا وهم فى مكان سحيق فنقول على رسلكم نحن نتكلم فى المسئلة من حيث هى علمية وعملية وان هى الا نظام

يعلم أبناءنا كيف يصيرون شجعانا ماهرين وكيف يحافظون على نظافة أجسامهم واحترام كبرائهم مع الادب والنظام وليكن ذلك فى مديريته بالقرب من بلاده أو قصبة تقرب منها فاذا رجع الى أبويه رجع رجلا شهما عالما كيف يقوم باعباء الحياة ولو قدر لذلك سنتان لكفى فانا ماأردت الا تكميل الرجال وتقليل الزمان واقتراب المكان ان أمكن كل ذلك أو مايقرب منه والا فلها شأن آخر وحكم سواه الجندية مدرسة الشجاعة كما ان المدارس للعلوم وقد قال علماء الاخلاق في الموازنة بين الظاهر والباطن ان محاسن الوجه فى أربعة الخدين والعينين والانف والفم ومحاسن الاخلاق فى أربعة المعارف والشجاعة والعفة والعدل فالشجاعة ركن مهم من أركانها فكيف نهمله ونحن أحوج اليه ولا قيمة للعلم بلا قوة تنفذه بل الشجاعة هى القوام الاكبر للحياة . كان العلماء الاقدمون يأمرون تلاميذهم بتعلم هذا الفن فكان أحدهم يقصد البحر وقد هاجت أمواجه فيركب السفينة فتتقاذفها الامواج لتكمل نفسه بالشجاعة وبعضهم كان يقف فى المواضع المظلمة المخيفة حتي يتعود عليها

أفلا يمكن القائمين بالامور ان يحولوا المدة الى سنتين أو ثلاث ويسامح الجندى فى أثنائها أشهراً وأياما يرى أهله وأقاربه وان أمكن ان يعلم كل أبناء مديرية في قصبتها كان حسنا ثم يتساوى فى ذلك الغنى والفقير والقوى والضعيف والا فما معنى الفدية وأى وجه لها الا الدلالة على الجهل المطبق وعدم ادراك الفضيلة وما الميزة بين الصنفين وكيف الفرار من الفضيلة على انها ان كانت فضيلة أفلا تعم القسمين وان كانت رذيلة أفلا تعم الطائفتين حتى يكون العدل شاملا وأنا ماأدرى أى الامور شر أجهل الناس بقيمة

هذا الفن من الحياة والاخلاق أم فرارهم من الفضيلة بما لهم وتباعدهم عنها بجاههم أم دفعهم الفدية وقبول الحكومة أعجب

كما انى أعجب من رجلين فقير حزن لفضيلة سيق اليها ابنه وغنى فرح لصرف الكمال عن ولده فعسى أن تنظر في هذا الامر مجالس شورانا وتعد للامر عدته وتنظر فى قوانين الامم هل تفعل كفعلنا وتفدى فديتنا أم تلك خاصة بنا وعسى أن تعد للامر عدته وتسأل الحكومة فيه نظرة وتقلب النظام وتصلح الدستور وتقصر المدة وتسهل النقلة واللقاء وتوضح الامر للعموم ويعمل الامر وتحسن الاخلاق ويتم العدل

المقالة السابعة والعشرون

الرحمة فى القلوب سر الشرائع

﴿ الراحمون يرحمهم الرحمن ﴾

الرحمة غريزة فى نوع الانسان مازجته في جميع أطواره ولابسته فى شؤونه فكانت من ضرورياته اللازمة كالمطم والمشرب والملبس بها يعطف على ولده ويشفق عليه ويخضع لابويه ويقول «رب ارحمهما كما ربياني صغيرا» الشفقة في الانسان توحى اليه ان يبر أقاربه وأرحامه وأهل بلده من الجيران والاصحاب واكثر من ذلك وأعم حنوه على بنى آدم أجمعين

الرأفة في القلوب تتناول الحيوانات العجم فتراها سارية بين الزوجين من جميع الاصناف وترى الظبية ترضع ولدها برأفة وحنان جلى مبين. وترى الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه

رحمة الحيوان بعضه لبعض واضحة ظاهرة نشاهدها فى كل حين ومنها

مايفتت الاكباد ويجرح القلوب ويذيب النفوس مما نرى من المناحات التى تقيمها الامهات وأبناؤها عند افتراقها والتضرع للملاك أن يشفقوا على تلك الافئدة من الاحتراق وعلى تلك القلوب من الانفطار حتى حرمت الشريعة الاسلامية بيع الامهات بدون الرواضع لها اللاتى لأيا كلن

الانسان أرقى الحيوان فكان أكثره شفقة وأعمه رحمة وأوسعه دائرة في العطف والرفق فترى رأفته تتناول الاهلين والاباعد وسائر نوع بنى آدم ثم تشمل الحيوانات كافة

سل فؤادك بماذا تحس فيه اذا أصيب الاهلون بمرض أو فاجعة . سل قلبك اذا رأيت من تحنى عوده وتقوس ظهره وانكمش جلده واشتعل رأسه شيبا وهو يدب على العصا فى برد قارس قد لبس أطماراً بالية أوهن من بيت العنكبوت لاتقيه الزمهرير ولا تحميه من حر الهجير أو عجوزاً أخنى عليها الدهر فركعت لسطوته وذلت لبطشته وهى تسألك مما أوتيت وتستجديك فضل ماأعطيت . الست ترى فؤاداً يتشقق وقلبا يتفطر وتتمنى لو يتاح لهما الغنى أو يلجأ المعوزون الي حماك واذكر ماتحسه من الآلام الناجمة عن الرحمة اذا اقتتلت طائفتان أو اصطدم قطاران ثم أنبأك الرواة بظلم الظالمين وجرحى المقهورين وأرامل القتلى وأيتام الصرعى

هاهى أخبار القحط في بلاد الروسيا قد آلمت النفوس وأذابت القلوب وكم ترى من رجل جبار قاسى القلب يضرب الحيوان أو يحمله مالايطيق. وانى لأذكر من ذلك ماشاهدته في صبح عرفة رجلا يسوق جاموسة عرجاء عرجا بينا بحيث لاتقدر أن تمس برجلها الارض وكلما قزحت (قفزت) خرت لوجهها صريعة وهو يكاوحها (يكافحها) فوجدت فى قلبي

ألماً لهذا العمل الوحشي الفظيع

فالرحمة طبيعة في الانسان غرست في جبلته ثم تراه ينساها أو يتناساها اذا غلبته الشهوات أو الانتقام وغطاه الطمع فترى الرجل يربي الدابة والصبي يربي الشاة وكلاهما يحب دابته ويألف مارباه ثم يذبحها ويأكلها فرحاً مستبشراً

وترى اللص يشترى القسوة بالرحمة اذا طمع فى مال فينقض على ربه ويذيقه كأس المنون ويجدها في نفسه لذة ونعمة ويحمد الله عليها وترى الامة الفاتحة تستمرى طعام المقهورين وتستحل قتلاهم وتنسى الغريزة المغروسة فى قلوبها وما أنساهم الا الطمع والشره والشهوات والحرص على مايشتهون والتلهى بما يلتحون (ينهبون)

لما قتل السفاح سراة بنى أمية ووضع المائدة على النطوع فوق القتلى وهم يئنون تحتها قال ماأطيب هذا الطعام فما ذاق الا لذة الانتقام ولم يجد فى قلبه الا فرح الملك ولذة الغلب بعد ان ذكره شاعره بالدماء المهروقه والنفوس المقتولة اذ قال

واذكروا مقتل الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس

« والقتيل هو حمزة والمهراس ماء »

ولما جاء قواد بنى العباس الى بعض قرى مصر في طلب محمد الحمار آخر ملوك بنى أمية ووجدوا الطعام على المائدة قتلوا الآكلين وجندلوا الملك وأخذوا أمكنتهم وجلسوا فى مقاعدهم وهم بذلك فرحون مستبشرون يأكلون طعامهم ويشربون والقتلي من حولهم مجندلون

ولتذكر قمبيز اذ قهر فرعون الاسرة السادسة والعشرين وجرد بناته من الحلى والحلل ثم أشغلهن بحمل الجرار على رؤوسهن ومعهن فى هذا

العـذاب رجال دولته وفرعون بجانب قمبيز فما كف عن تعـذيب أولئك المظلومين الا بعد ان بكى فرعون لما أصاب وزيره من الذلة بعد العز والسرور والمجد والفخار .

واجمال القول ان الشـفقة سارية فى نوع الانسان جميعه ولن يحجب أنوار شمسها عن بصيرته الا سحائب الشهوات التى تغشيها وحجب الاطماع وداء الشراهات ولما قتل زوج بنت تموجين جنكيزخان وهو أكبر قواد أبيها فى حروب التركستان اذ أغاروا على الاسلام لم يشف صدرها الا ان يقتل أهل المدينـة أجمعون رجال ونساء وأطفال وحيوانات ثم صنعوا لها أكمة من رؤوس القتلى فوقفت فوقها وقالت (هل من مزيد)

رأى الحـكماء ذلك وشاهدوا هذا الانسان طغى وبغى وتجاوز حده ونسى الرحمة فقالت طائفة أنه لا يرجى صلاحه فلابد ان يزال من الوجود ولا يبقى الا الرحماء وهؤلاء لو قدروا لقتلوا الناس أجمعـين وهم من علماء العصر الحاضر .

وقالت طائفة لا نقتل الا الملوك والاغنياء وندع بقيـة العالمين لان هؤلاء أشر الطوائف وهم بذلك الآن يعملون

وقالت طائفة ومنهم القطب الشيرازى فى الاسفار أكبر كتب الحـكمة فى الاسلام ان العتاة الطغاة في الارض جعلوا لحـكمة وهى ردع الباغين

وقال ابن خلدون ان نفعهم أكثر من ضرهم كالنار والمـاء فهم وان ظلموا فقد يدفعون بعض الناس عن بعض وجاء فى القرآن الشريف (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) وقال صاحب كتاب حى ابن يقظان ان الحـكمة تقتضي أن تذبح الحيوانات والا كان وجودها بلا

فائدة وقال بنتام فى أصول القوانين ان الرحمة بالحيوان جعلت تمهيداً لرحمة الناس الذين وضع القانون لهم وهذا منه قصور هنالك تنزلت الشرائع السماوية فأمرت الناس بالرحمة وبالغت في ذلك اليهودية لبنى اسرائيل وعممت النصرانية حتى حرمت الانتقام وأمرت الناس برحمة الاحباء والاعداء وجاء القرآن فذكر الناس بالرحمة التى في قلوبهم وجاء فيه « ان هو الا ذكر وقرآن مبين » وجاء « انه تذكرة لمن يخشى » و« ان الله يحب المحسنين » وبدأ كل سورة باسم الله الرحمن الرحيم ويئست الاديان من الرحمة العامة فأمرت العيسوية بالصيام في بعض الايام عن كل ذى روح تذكرة بالرحمة وجاء فى الاسلام الامر بالاحسان فى الذبح وورد فيه « اذا قتلتم فاحسنوا القتلة واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة » وحرمت على الناس ان يحملوا الحيوان مالا يطيق وأمرت ان ينفق عليه وحثت على عتق الارقاء مما تفتخر به الامم الاوروبية الآن علينا فالشرائع السماوية جاءت مذكرة لما فى نفوسنا من الرحمة وهذا معنى ماقاله افلاطون ان العلوم كامنة في القلوب كمون ماء الورد فى الورد وانما يستخرجها التعليم والشرائع فهى مراهم للداء لتذكر الناس بالرحمة المودعة في نفوسهم المغطاة باطماعهم كى يتذكروا فيحسنوا الي الفقراء والمساكين ويعطفوا على الذين كتحهم الدهر ويتأملون في أنفسهم كيف يحسون بآلام واحزان عند مايرون الحيوان الاعجم والانسان الناطق يقاسيان أنواع العذاب حتي كان العذاب المحيط بذوات الارواح بغطس قلوبنا وينتقل في كهرباء الجو وأثير الفضاء فيلامس الافئدة الرحيمة

كلما كان الانسان أجمل شعوراً وأوسع علما واكثر أدبا كان اكثر احساساً بذلك العذاب الواقع على ذوات الارواح بالجوع أو الضرب أو المرض

فياعجبا كأن هـذا الاثير ماء والاجسام مغمورة فيه حتى اذا أصاب أحدها عذاب احترق فيه فغلي فاحترقت فيه أفئدة الرحماء أو كهرباء سارية تنقل ذلك الاثر من المعذبين الى ماقاربهم أو القلوب الاليمة ازرار كهربائية يضغط عليها الضاغطون أو تؤثر عليها الجوائح فتضطرب لهـا أفئدة الناظرين أو السامعين

كل محسن يشفق وكل ذى روح أهل لان يرحم فهاهم المشفقون يألمون لما يشاهدون من السائلين والشحاذين والحيوان المعذب ويتمنون رحمة عامة تشمل العالمين

لـكن اختلط الصادقون بالـكاذبين والاغنياء بالفقراء والاقوياء بالضعفاء فما يدرى المحسنون لمن يحسنون وضاع المستعفون بين السائلين فأصبح محسننا فى حيرة وألم وأكثر المحتاجين فى بؤس وشقاء

والذى أراه أن يقوم ذو نفوذ كبير ويستعين بالحكومة ويؤلف جمعية لهـا فى كل قصبة (مديرية) فسرع ويعرضون على الطبيب فى القصـبة أو المحافظة كل سائل وشحاذ ليميزوا الصحيح من المريض ويجعلوا المرضى بعضهم على بعض فيركونهـم جميعا ويجرون عليهم الصـدقات ويحشرون الاصحاء فى الاعمـال النافعة ويحرمون عليهم السؤال كما هو مقتضى الشريعة الاسلامية التى حرمت السؤال على القادرين

ان امـتزاج الصادق بالـكاذب من الفقراء والسائلين معرة لا ترضاها الشرائع السماوية ولا الوضعية

ولو ان جمعية الرفق بالحيوان اتسع نطاقها وضمت اليها هـذا العمل فمازت الصحيح من المريض وساعدتها الحكومة بجندها وعرف الامر لكان

ذلك عملا جميلا وعرف المحسنون أين ينفقون وليكن فى كل قصبة طائفة تتولى هذه الادارة وتشرف على الفلاحين وضربهم للبهائم فى حقولهم مما يفتت الاكباد ويذيب القلوب فان الرفق بالحيوان لم يزل ضعيفا قاصرا وقد خسرت البلاد أقواما من الناس لاعمل لهم هى بهم أحق ولا يكونون عالة على الامة هم والنساء والدجالون والبطالون

(ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)

المقالة الثامنة والعشرون

علماء الشرق وعلماء الغرب

العلم يشتق في العقول ويسمد　　والدهر فى تمثيله يتجدد
وترى المذاهب كالقبائل تارة　　تبدو وطوراً فى البلاقع تخمد

الدنيا رواية تمثل فى ملاعب الايام أدواراً يقوم بتشكيلها الدهر فيتلاعب بالعناصر والمذاهب والآراء والشرائع عجبت لهذا الدهر وما يحدثه من الغرائب وما يفيد من العبر وكيف يعبث بالعناصر ويلعب بالآراء

قف فى مزرعة وانظر مازرع فيها وصورها ثم هب ان الآلة المصورة الشمسية قد رسمت صورها المتعاقبة اجيالا غابرة من عصر ان كانت الارض رطبة فيبست ومر عليها قرون ودهور فتتابعت عليها صور متلاحقة — لو تصورت ذلك لقضيت العجب ولحسبت أنه مر عليها من الصور والاشكال مالو جمع وحصر أمامك ووزع على سطح الكرة الارضية لمثل لك كل

صورة وشكل مما نقله الارض من صور المعدن والنبات والحيوان لعلك تذكر ماضربه الاقدمون من مثل ذكروه

ذلك انهم قالوا من باب الاستعارة التمثيلية « مر الخضر عليه السلام على صحراء قاحلة خلت من الزروع والماء والطير ثم مضت خمسمائة عام فمر عليها فاذا هي مدينة زاهيــة زاهرة خضراء نضرة فسأل شيخاً كبيراً متى بنيت مدينتكم فنظر اليه شزراً متعجبا وقال ياهذا مدينة قديمة العهــد بنيت من عهد نوح مرت عليها الدهور والحقب ثم مضت خمسمائة أخرى فمر بها فاذا هي نهر عظيم فيــه صياد بشبكته فسأله متى حفر فأجابه باستغراب على سؤاله وقال مثل ماقال الذى قبله في المدينة ثم مضت ٥٠٠ أخرى فوجدها مدينة زاهرة مثل الاولى فسأل فأجيب كالسؤال والجواب السابقين »

ضرب الاقدمون هــذا مثلا لتداول الايام وتعاقب الاحوال وتتابع الصلاح والفساد في العمران والامور المحسوسة

تداول حكم الخير والشر المحسوسات ولم تفلت منــه الآراء ولا المذاهب ألم تر الى أمم الشرق ورجالهم وعقولهم الصالحة ونفوسهم الشريفة وكتبهم النافعــة كيف لعب بها الزمان وكوعها (ضربها فوقعت) الدهر كانت أرضهم مخضرة غامرة وعقولهم عالمة عاملة ومعادنهم مستخرجة وكتبهم مقروءة وآراؤهم مســموعة فهاهى اكثر أرضهم عامرة وعقولهم الخصــبة اعشوشبت ولم تنبت حبة علم ولا ثمرة حكمــة ومعادنهم مقبورة فى صحاريهم وقل من قرأ من أبنائهم كتبهم وأصبح أبناؤهم يعجبون بآراء العلماء من الاجانب ولا يعلمون انها مسطورة فى كتبهم مذكورة في أسفارهم والذى دعانا لتسطير هذه الجمل ماقرأناه آنفا مما سطره الكاتب الامريكى

ينصح بنى أمريكا بالتفكر والتعقل ليعتادوا عليه كما اعتاد اسحق نيوتن الانكليزى اذ جلس والقمر وقد حلا له فى خلوته النظر فرأى التفاحة سقطت على الارض فقال ياليت شعرى ألم يكن القمر مثلها فيسقط أو ليس الاثقل أولى بالوقوع من الاخف ثم تجلت له الفكرة عن الجاذبية فأبرزها من خياله الى عالم الظهور وانتشر مذهبه فى سائر الاقطار وان الشمس تدور كما قال كوبرنيكوس حول نفسها والاجرام العلوية تدور حولها والارض منها وكلها مجذوبة الى الشمس وكل ماعلى الارض منجذب اليها لان الاقل دائما يتبع الاكثر ويميل اليه طبيعة . هذا ملخص مايراد من عبارة ذلك الكاتب وان لم يوضحها اتكالا على فهم قرائه فى بلادهم

قرأت هذا وعجبت من أضاحيك الزمان وأعاجيبه وعلمت ان الآباء تسعد وتشقى بالابناء وان للآراء والمذاهب دولا كالرجال والامم . مهلا يازمان فقد كنا نظن ان التلاعب يحل بالامم والقبائل بتغلب القوى على الضعيف اذلا نرى الحق الا مع القوة وقلنا ان المذاهب والعلوم أعلى مكانة وأرفع مقاما فلن تتناولها المدافع ولا الديناميت ولا السيوف والبنادق اذ هى فى حصن حصين ترفعت عن المادة واحتجبت عن العيون ولن تصل اليها الجنود فيبقى رأى العالم محفوظا على ممر الدهور في كل جيل وأمة لاتعبث به يد الزمن . كنا نظن ذلك ولكن رأيناك أيها الدهر تشاكلت أعمالك وتساوت أعاجيبك تسطو على الجموع فتفرقها وتزج آراء علمائهم فى سجون الكتب وتحرم على الناس قراءتها ثم تمحو أسماءهم من دواوين الحكماء حينا من الدهر ويقوم بهذه الالاعيب أبناء الغالبين فينسبون كل جميل لآبائهم ويغمضون حقوق آباء الامم الضعيفة فى قبورهم استخفافا

بنيهم واستحقارا لخلفائهم وأماتة لنفوسهم لئلا يقولوا لنا مجد قديم نطلبه أو ملك فات نرقبه . مهلا أيها القارىء أنا لا أنكر على القوم علومهم واجتهادهم فان لهم في العلم آثارا جليلة من أنكرها فقد كابر وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين

وانما أنا موقن كما قال سديو الفرنساوى فى كتابه ان أغلب الآراء والاختراعات والاكتشافات قد نسبت الى قوم من أوروبا وكثير منها للعرب وقد برهن هـذا العالم العظيم على ذلك فى كتابه المترجم الى اللغة العربية ببراهين قوية وافتخر بأنه أول من أظهر فضل العرب . هذه المسئلة التى نحن بصددها الآن نجدها مسطورة فى شرحى العلامة الخواجه نصير الدين الطوسي والأمام فخر الدين الرازى على اشارات العلامة الرئيس ابن سينا من نحو ألف سنة مما تعدون فقد أوضح الرئيس وشارحاه موضوع الجاذبية وذكروا حجج الحكماء في ذلك وملخصه كما فى صفحة ١١٥ و١٥٥ ان الارض والماء والهواء طالبة للمركز وكلما كان الجرم أثقل كان أقرب من المركز وكلما كان أخف كان أعلى لان الاثقل كاوحه فغلبه فأخذ المكان الاسفل قبله فطرده الى الاعلى وعليه رتبت الارض فالماء فالهواء فكل هذا المشاهد أمامنا مجذوب جهة المركز هـذا قول بعض الحكماء وقد رد على هذا الفريق الرئيس ابن سينا واحتج بما يفيد أن الزق المنتفخ تحت الماء نراه يميل الى الارتفاع الى أعلى كلما كان أكبر ويبطىء فى الطفو على وجه الماء كلما كان أصغر ولو كان ذلك بالجاذبية لكان الامر بالعكس فان ثقل الاول يدعوه للاستقرار بالجاذبية وخفة الثانى تدعوه للارتفاع لضعف الجاذبية وهذه المسئلة لها اتصال بقضية ارشيميدس المشهورة التى على ناموسها

تسير السفن فى البحار ويعوم السمك بالهواء الداخل فى جوفه فكلما كان حجم الشيء أخف كان أقرب الى الطفو على وجه الماء ويعوم وكلما كان هواؤه أقل قل طفوه فانظر كيف كانت مسئلة الجاذبية مطروحة قبل الرئيس ابن سينا على أنظار العلماء وهم يبحثون فيها وهو يعتمد أنها لاتسمى جاذبية اذ ميل الزق المنفوخ لاعلى دليل أنه مجذوب للهواء الذى هو من جنسه في المكان المعدله وليس مرادنا الآن تحقيق الجاذبية فان آخر ماوصل اليه العلماء ماقاله العلامة فيليكس لاميروس الفرنساوى ان الجاذبية تعلم منها الفعل ونجهل السبب وقد فرضها العلماء فرضا تسير على منواله النواميس الطبيعية والقوانين الفلكية وأما هو فحقيقه مجهولة على الناس اه

وانما نذكرها هنا استشهادا على ألاعيب الزمان وان الابناء يشيدون ذكر الآباء ويجعلون حبتهم سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ويضاعفون كما يشاؤون .

فانظر كيف كانت هذه المسألة مسطورة فى الكتب وقد نسيت أسماء المتكلمين عليها من العرب ونسبت بحذافيرها الى الافرنج كأن من قبلهم ليسوا شيئاً مذكوراً

كما ان كتاب المواقف المدفون في خزانات الازهر الشريف قدشرح دوران الارض حول الشمس واعتمد الشارح قول المتن فى ذلك وهذا الكتاب مؤلف قبل ظهور أوروبا من العدم الى الوجود كما كان ابن سينا قبل خلق أجدادهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً ثم جاء كوپرنكوس العلامة الافرنجى وقام في أوروبا وقال ان الارض هى الدائرة حول الشمس وكان ما كان ومع ذلك نسب اليه هذا الاكتشاف وكتاب المواقف يقرؤه طلبة

العلم فى بلاد المشرق قاطبة

وترى علماء التربية من الافرنج يتحدثون بذكر الصين والهند واليهود والرومان واليونان ويقولون أدب الصين ظاهرى فأسقطهم والهنود جبرية اذ قالوا لاعمل للعبيد فهم كالريشة المعلقة في الهواء واليهود مع ظهور أثر جميل لتعاليمهم فقد لانوا فى التأديب فقسدت الطباع وغلبت الفلسفة العقلية وأهمل الجسم عند أهل أثينا من اليونان والعكس عند أهل اسبارطا وقلد الرومان مدارس أفلاطون وسقراط من أهل أثينا فلم يفلحوا في تعاليمهم ثم يقزحون خطوة وينسون علماء الاسلام الذين هم أصل نعمتهم ثم يقولون وبعد ذلك أغمض الزمان أجفانه على النّاس فاظلمت الارض من القرون الاولي للاسلام الى القرن الثانى عشر المسيحى ثم يذكرون من نبغوا فى التربية مثل ابراسموس الهولاندى في القرن الخامس عشر المسيحى وينسبون له أنه أول من قرر الفنون الجميلة في التعليم واسكام الانكليزى فى القرن السادس عشر وكذلك فولكاستر من انكلترا فى القرن نفسه ويقولون انه أول من أوجب تعلم اللغة الوطنية فى أول الامر مع ان هذه هى طريقة العرب

وهكذا ببلى الفرنساوى مابين القرن الخامس عشر والسادس عشر ويقولون أنه أول من قال بلزوم تعلم العلوم الطبيعية مع ان الامام الغزالى قررها وابن سينا فى التعليم ولوثر الالمانى فى القرن السادس عشر وينسبون اليه الحرية فى فهم الكتاب المقدس ويقولون هو أول من قال بوجوب التعليم الاجبارى مع ان الحديث ورد (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وهذه طريقة طائفة كبيرة من حكماء الاسلام منهم الغزالى وابن رشد وأضرابهم وكومنيوس النمساوى فى القرن السابع عشر وينسبون له

تقليد الطبيعة ولوك الانجليزى وينسبون له وجوب التشويق فى التعليم

ويوحنا هنرى بستا لوتزى التليانى فى القرن الثامن عشر وكان مربيا تربية عملية يذكرون هؤلاء ولا ينسبون الى علماء الاسلام شيئاً مذكورا وينسبون كل فضل لهم وأكبر شيء يفتخرون به التربية الجسمية مع ان السبق والرمي مشروحان فى كتب الاسلام نعم العمل قليل وهم أكثروه انما الغريب انهم لا يذكرون شيئاً عن ذلك وكأنهم لما ورثوا أرضهم وديارهم أرادوا قتل آبائهم فى برازخهم ومحو أسمائهم من دواوين الفضلاء وسنذكر بعد مقارنة فى الآداب بين باكون الانكليزى والعلامة الغزالى

المقالة التاسعة والعشرون

﴿ علماء المشرق والمغرب ﴾

(العلامة الغزالى وباكون الانكليزي)

قرأنا مقالا نقل عن باكون فى الادب نقله هو عن عالم تليانى ينصح الابناء ألا يغتروا بأصحابهم وأن الصديق كم أغرى صديقه بما يوقعه فى الهلاك وكم تعاطى السكر باغرائه وكم اغتر بمدحه فأصبح عاطلا من العلم وكم نجع أناس قلت أصدقاؤهم وهكذا من الحقائق الرائقة والحكم النافعة التى ذكرها الكاتب الامريكى شرحا لقول باكون فى الاحتراس من الصديق وتغريره وأما العدو فأمره أهون والاحتراس منه طبيعى وان نصائح العلماء موجهة الى العفو عنه ولم يكلفوا الناس حملا أثقل منه وهو احتمال مضار الصديق كالاطراء القاصم للظهر الموقع فى الغرور كالبطالة والكسل والهوان والعدو

العاقل خير من هذا الصديق الجاهل . قرأت ذلك فتذكرت ما كتبه الامام الغزالى عن الصديق وعجبت من أبناء الشرق والغرب . يقول العالم الغربى كلمة فتهتز لهـا الارضون وتطرب لها الافئدة وتطوف المجالس وتدور دوران الماء فى المحيط والكهرباء في الاسلاك وتطير فوق البحار وتنتقل من أوروبا الي أمريكا ثم تصل الى آذاننا فى جرائدنا العربية كالمؤيد وأمثال هذه الحكمة فى موضوعها بين ظهرانينا ونحن عنها غافلون

وانظر ماقاله العلامة الغزالي في هذا المعنى نفسه تراه كثيرا جداً فى مواضع من كتبه وكم ندد على الناس فى الاغترار بالاصدقاء ولقد رأيته مرة يقول لئن اغتررت بأصحابك ومدحهم اياك وهب انهم محسنون فكم من رجل جاهل فى الد. وق له أصحاب أكثر منك وهم له اكثر تعظيما وقال مرة لايسوق الناس الى النار الا أصحابهم والرياء والنفاق لهم كل هذا وأبناء الشرق عنه غافلون . قلنا ان الآباء تشقى بالابناء وتسعد وان الامة الغالبة تحيي علومها وآثارها وان الناس مولعون بالغالب ويغلب على أوهام البسطاء ان آباءهم خير من آبائنا وعلماءهم خير من علمائنا ولو كان علماؤنا يعلمون ما كان أبناؤهم (وهم نحن) خائبين وانه لولا أن آباءهم اعلم من أبائنا ماغلبونا

كل هذه الاقيسة تخطر بالقلب ولكن لا يبرءنها حياء أو خجلاً وعجزا هذه أقيسة منطقية نقص شكلها وسقطت نتائجها وبئس يعمل امرؤ عملا أو يعتقد اعتقادا الاوفى نفسه أشكال منطقية صادقة أو كاذبة فها أنت سمعت ماقاله باكون وشرحه الشارح وقال ليذكر كل امرىء تجربته والآن اسمعك ماقاله حجة الاسلام الغزالى فى الكلام على الصديق والعدو قال فى الصديق ما ملخصه — ان للصديق على وجه الاجمال خمسة شروط العقل وحسن الخلق

وعدم الفسق وعدم البدعة وعدم الحرص على الدنيا فالعقل رأس المال فان لم يكن ذا عقل رجعت الصحبة الى القطيعة قال على رضى الله عنه

فلا تصحب أخا الجهل. وايالك وايــــاه
فكم من جاهل أردى حكيما حين أخاه
يقاس المرء بالمرء اذا ما المرء ماشاه
وللشىء علي الشىء مقاييس وأشــباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

كيف والاحمق قد يضرك وهو يريد نفعك واعانتك من حيث لايدرى قال الشاعر

انى لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتريه جنون
فالعقل حق واحد وطريقه أردى فأرصدوا الجنون فنون

ولذلك قيل مقاطعة الاحمق قربان الى الله وأما حسن الخلق فانه رب عاقل يفهم الامور ولكن اذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ماهو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة فى صحبته لان من لايخاف الله لا تؤمن غائلته وأما الشره علي الدنيا فانه يعديك ويبعدك عن الفضائل والمبتدع قد يجرك الي بدعته وقد ذكر للعزلة فوائد وثمرات وحصرها فى ست مسائل

الاولى ان العزلة أدعى الى استجماع القوى في طلب العلم والفكر واستنتاج النتائج والحقائق المجهولة من الامور المعلومة ولذلك قيل لبعض الحكماء ماالذى أرادوا من الخلوة واختيار العزلة ؟ فقال يستديمون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم فى قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة

المعرفة وقال بعض الحكماء انما يستوحش الانسان من نفسه لخلو ذاته من الفضيلة فيكثر حينئذ من ملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالسكون معهم فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة . الثانية التخلص بالعزلة من المعاصى التى يتعرض الانسان لها غالبا بالمخالطة ويسلم منها فى الخلوة وهى الغيبة والنميمة والرياء والسكوت عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومسارقة الطبع من الاخلاق الرديئة والاعمال الخطيئة

الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس من الخوض فيها والتعرض لاخطارها وقلما تخلو البلاد عن نقصان وفتن وخصومات فالعزلة عنهم سلامة منها . الرابعة الخلاص من شر الناس فانهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة ومرة بالاقتراحات والاطماع الكاذبة التى يعييه الوفاء بها وتارة بالنميمة والكذب فربما يرون منك من الاعمال أو الاقوال مالا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها الوقت تظهر فيه فرصة للشر . الخامسة أن يقل طمع الناس فيك ويقل طمعك فيهم السادسة الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى فان رؤية الثقيل هى العمى الاصغر . قيل للاعمش مم عمشت عيناك ؟ فقال من النظر الى الثقلاء ! . . .

وقال ابن سيرين سمعت رجلا يقول نظرت الي ثقيل مرة فغشى على وقال جالينوس لكل شيء حمى وحمى الروح النظر الى الثقلاء . وقال الشافعى ماجالست ثقيلا الا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى كانه أثقل على من الجانب الآخر . هذا ملخص ماذكره فى فوائد العزلة ثم ذكر ثمرات المخالطة وهى

شبع . التعلم والتعليم . النفع والانتفاع . التأدب والتأديب الاستئناس والايناس . نيل الثواب وانالته . تعلم التواضع بالمخالطة . لان العزلة قد تكون عن كبر ثم التجارب وهى الخصلة السابعة فربما كان القلب مشحونا بنقائص ومعايب لاتظهر للانسان الا بالمخالطة . هذه فوائد العزلة وفوائد المخالطة . والحكم العدل فى ذلك قيا س المنافع بالمضار ثم قال بعد كلام مانصه : « اذا عرضت فوائد العزلةوغوائلها تحققت ان الحكم عليها بالتفضيل مطلقا نفيا واثباتا خطأ بل ينبغى ان ينظر الي الشخص وحاله والى الخليط وحاله والى الباعث على مخالطته والى الفائت بسبب مخالطتهمن هذه الفوائد المذكورة ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الافضل وكلام الشافعى رحمه الله فصل الخطاب اذ قال يايونس الانقباض عن الناس مكسبة العداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ويختلف ذلك بالاحوال . وبملاحظـة الفوائد والآفات يتبين الافضـل هذا هو الحق الصراح وكل ماذكر سوى فهذا قاصر وانمـا هو أخبار كل واحدعنحادثة خاصة ولا يجوز تعميمها

هذا ماقاله العلامة الغزالى فى الصـديق والعزلة عنه ومخالطته وذكر العـدو عند الكلام على الطريق الذى به يعرف الانسـان عيوب نفسـه وهى أربعة

الاول الاسـتاذ المرشد الذى يعرف عيوب النفوس وهذا قد عز فى هذا الزمن والثاني أن يجعل له صديقا يسأله عن عيوب نفسه فيتجنب كل مايسمع من ذلك

الثالث وهو مقصودنا الآن أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فان عين السخط تبدى المساوى ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه الا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل مايقوله على الحسد ولكن البصير لايخلو من الانتفاع بقول أعدائه فان مساويه لابد وان تنتشر على ألسنتهم والرابع أن يترك كل ما يكرهه من الناس اه ملخصاً

ويذكرنى هذا ماقاله بعض القدماء فى منفعة العدو

عداى لهم فضل على ومنة ... فلا أبعد الرحمن عنى الاعاديا

هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاجتنيت المعاليا

فلست بهياب لمن لايهابنى ... ولست أرى للمرء مالا يرى ليا

كلانا غنى عن أخيه حياته ... ونحن اذا متنا أشد تغانيا

وقد خمستها فقلت

اذا ما اعترتنى فى الحوادث محنة ... تبدت لنفسى في المعارف سنة

وأن يحسد الاعدا بدت لى فطنة ... عداى لهم فضل على ومنة

فلا أبعد الرحمن عنى الاعاديا

لقد علموا آداب نفس سيرتها ... وهذبتها حتى استقامت وضتها

ولم ألم الاعداء لا بل شكرتها ... هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها

وهم نافسونى فاجتنيت المعاليا

ولى همة فوق الثريا تقلنى ... فأثنى عناني للفتى حين يثنى

واضرب عنه الذكر صفحا ولا أبي ... فلست بهياب لمن لايهابنى

ولست أرى للمرء مالا يرى ليا

واني امرؤ بالعز أكمل ذاته فلا طمع فى الصحب الا آماته
ولست اداري المرء الا تقاته كلانا غنى عن أخيه حياته
ونحن اذا متنا أشد تغانيا

المقالة الثلاثون

﴿ العقول والاوهام ﴾

هذا موضوع يبرزه العقل وينميه علم المنطق (قوانين المعقولات) صورته العلوم غايته الاعمال. المنطق طبيعة فى الانسان غريزة فى الحيوان يلازمه لزوم الغذاء وغرائز الشهوات وحب اللذات ودفع المكروهات

العقل وأحكامه قبسة من نور الله أشرقت فى هيا كل الحيوان وسيده الانسان حلت بفنائه ودارت في أعصابه وحركت أعضاءه. مركزها دماغه شعاعها فى قلبه تفرعت في حواسه ودورة دمه ثم خزنت فيها الصوروالاشباح والاشكال وجهل الحكماء قاطبة مستقرها ومستودعها. قالوا هذا الدماغ مقدر موزون فى جمجمة الرأس وكيف نري صوراً لا تتناهى قد رسمت في عقولنا أكبر من السماء وماحوت والارض وماوعت والفضاء وماطوى

اذا كان هذا الذهن المخزون فى الرأس لوح زجاج المصورة الشمسية (الآلة الفتوغرافية) فكيف قبلت ملايين من الصور والمعاني ان هذا لشيء عجاب خارج عن التراب معلق برب الارباب وماهذا الدماغ الامكان استمداده كاشتعال النار فيما توقدون

هذا النور المفاض على الهيا كل الانسانية والحيوانية يصرف الاجسام

بقوانين منطقيـة لايتجافى عنها الانسان ولا يتنزل عنها الحيوان في جلب النافع ودفع الضار وذلك بقضيتين تتبعهما نتيجة فان كانت الاصابة فالعـقل هو الدليل وان كان الخطأ فالوهم هو المضـل المبين . لايدلى ان أوضح لك هذا القول ايضاحا تاما مبينا حتى ترى جمال المنطق وحسـنه فى قول جميل ثم تعجب من عقل الانسان المشرق بانواره وكيف يخدعه الخادعون وكيف تضله الاوهام والظنون

أنت تعلم في المشاهدات المحسوسات ان كل نبات يصـدر عن أبوين مذكر ومؤنث وهكذا كل من له أبوان والنبات أمه التراب وأبوه لطائف من الهواء والماء والحرارة والعلم ليس ينجم الا عن معلم ومتعلم وبالجملة فكل عمل من أعمال الحياة فانما يصدر عن مقدمتين وكما سرى هذا فى المحسوسات سرى فى المعقولات فحاصل الضرب من مضروبين وباقى الطرح لعددين وخارج القسمة لمقسوم ومقسوم عليه فهكذا علم المنطق كل نتيجة فانمـا تصدر من مقدمتين

أنت تعلم ان كل حيوان أو انسان أصابه جوع يسعى للغذاء فلو كشف لك عمـا انطوى عليه ادراكه لقرأت فيه قياسا منظما هكذا (أنا جائع وكل جائع يجب عليه التغذى فانا يجب على التغذى) فهاتان جملتان كالابوين :أنا جائع احداهما . وكل جائع يجب عليه التغذى الثانية . فاذا حذفت المكرر منهما كانت النتيجة هكذا . أنا يجب علي التغذى . هـذا في جلب النافع لكل حى وهكذا في دفع الضار تقول (الحية مؤذية وكل مؤذ يجب اجتنابه فالحيـة يجب اجتنابها) على قياس ماقدمناه فى المقدمتين والنتيجة ولولا هذه البراهين قائمة بغرائز الحيوان وعقل الانسان المشرف على الادمغة والاجسام ماطلبنا

غـذاء ولا تحامينا تهلكة ولفنى نوع الحيوان في يوم أو بعض يوم ولا نظن ان هذا أمر عسير فانت تسمع الصبي وقد نهيته عن اللعب يقول لك كل الصبيان يلعبون فانى باحدى المقدمتين وترك لك النتيجة المفهومة كأنه يقول أنا صبي منهم فلابد ان ألعب ها أنت عرفت البرهان الصادق الذى مصدره العقل . وتأمل الوهم كيف يضل الانسان فترى الرجل الملدوغ مرة يفرق (يفزع) من الحبل اذا أمر عليه بقياس كاذب موهوم كأنه يقول هـذا طويل لين وكل طويل لين فهو حية فهذه حية مع ان الجملة الثانيـة غلط أدخلها عليه الوهم من الاثر المطبوع فى نفسه من لدغ الحيـة والا فليس كل طويل حية فقد يكون حبلا وهل تظن اني أذكر هذا القول الا تمهيداً لما ستراه من الاغاليط الوهمية فى أعمـال الحياة فى هذه الدنيا فقس على هذا ما ستسمعه بلا قياس منطقى ففطنتك أحرى بالعناية بعد ما قدمنا. يرى الرجل الميت فيفرق منه ويضطرب واذا مر بالمقبرة شعر بخوف مصدره الوهم كانه يقول هذا ميت وكل ميت يخاف منه والغلط نشأ من الاشتقاق لان الموت هو المخيف وأما الميت فكيف يخاف منه وهو صريع ذلك البطل العظيم وهو الموت ؟ ثم أنظر كيف يرى صبي ان كل صبي له أبوان حيان واخوة وبستان وعربة كما في منزل أبويه ثم ينسخ ذلك الوهم التجارب والتميز وترى العامى يظن ان الدنيا سطح مستو ولن يزيل هذا الوهم الا العلم والعقل وحده غير كاف واذا أمطرت سماؤه ظن كل سماء ممطرة ولن يزول هـذا الوهم الا السفر مع البصيرة والتعليم . ومن ذلك ما يحكى عن علماء بني اسرائيل فى رواياتهم اذ قالوا (ان نبي الله سليمان عليه السـلام أرسل عفريتا عالما بالآلات التى تنحت الاحجار ولا يسمع لها صوت محافظة على نبي الله أن يسمع الصوت

لئلا يشغله عن الصلاة وكان ذلك فى بناء بيت المقدس فلما ان رجع ذلك العفريت العالم قال أنه رأى سقاء ربط بغلته بجرة على شاطىء البحر وتدلى الى الماء فملأ القربة فما رجع حتى أثارت البغلة الجرة فكسرتها ثم مر على رجل أكل البصل مرة فشفى من مرضه فصار يصف البصل لكل مريض بالعين أو الرجل أو الرأس) هذه الحكاية ذكرها علماؤهم من باب ضرب الامثال لدلالة الناس على مكان اضلال الوهم للعقل اذ الجرة فى المثال الاول والبصل في الثانى لا يغنيان شيئا وانما أعطاهما الشيطان وهم الجاهلين ومن غلط الوهم أن يتعاطى الاصحاء الدواء قياسا على نفعه المرضى ويقولون أكثر من الخير وهكذا من يكثر الكلام أو الطعام ويقول أكثر من الخير فهو خير. ومن الوهم أن يحتمى الاصحا (أى يقللون الطعام والشراب جداً) مع ان الامرين كما ينفعان المرضى يضران الاصحاء وانما الملبس الوهم ومن تلبيس الوهم على الانسان أن يقول ان القليل كالمعدوم فى المسكرات ويتغافل عن قضية حقيقية وهى الكثير ناتج من القليل فيشرب القليل مراعاة للقضية الاولى ويغفل عن القضية الحقة وهى الكثير مجتمع من القليل وان الدنيا كلها من ذرات والذرات أصل الوجود والعدد كله مبناه الواحد فاذا قلنا الواحد معدوم فكل عدد فهو معدوم فالقطرة من المسكر أصل للكثير فالوهم يعتمد التشبيه ويغفل عن التحقيق فان قولك كالعدم غير قولك هو معدوم وهكذا يزين الوهم للانسان على هذه القاعدة زيادة لقمة أو شربه تساهلا والحاقاله بالعدم وكم زين الوهم الانسان ممازحة الجهال قياسا لهم على الفضلاء خطأ أو أن يمدحهم فيغروا أو يشتم الناس ضحكا فيصير عادة أو يكشف مالا يليق فى الخلوة فيفتضح فى الجهر كل هذا على قاعدة ان القليل في حكم المعدوم مع انه أصل الكثير

وكم عجل الوهم فى الحكم غلطا وقد ضرب « بيديا » الفيلسوف لذلك مثلا بابن عرس والناسك اذ خرجت زوجته للحمام وهو خرج للملك ووكل بابنهما ابن عرس أليف فانبرى ثعبان من الحائط فقتله ابن عرس وقطعه أربا فلما ان جاء الناسك قابله ابن عرس بفم ملطخ بالدم اشعاراً بفخار حماية الغلام فعجل الناسك واهما انه قتل ابنه فأذاقه الحتف فلما تبين له الخطأ سقط فى يده (ندم) ذلك ضربه الحكيم مثلا للوهم الذى زين له ان الذى على فمه انما هو دم ابنه فتبين له الخطأ ومن الوهم أن يترك بعض الناس العبادة قائلا ان كثيرا ممن انهمكوا فيها من الضعفاء والفقراء أو الفاسقين أو الجهلاء وهذا وهم ومثل هذا يلزمه ألا يأكل لان هؤلاء كلهم يأكلون ولا يلبس لانهم يلبسون ولا يتزوج ولا يلبس الطربوش الذى هم فيه له يشاركون

ومن الوهم السائد على الخاصة فضلا عن العامة خلط القوة بالادب فتقلد الامة المغلوبة الغالبة فى آدابها وهى انما قهرتها بقوة السيف أو الخداع أوهما معا مع ان الآداب أمر غيرهما وقد يجر الوهم الي احترام كل من كان بزى الغالب ولباسه وتري الامم المغلوبة تصغى الى كل كلمة يسمعونها من الغالبين وان سمعوا أرقى منها عن الامم المغلوبة لم يحفظوها ولم يعوها وذلك للخلط بالوهم بين قوة الحرب وقوة العلم ومن هذا الانتخاب فى مجالس الشورى فانه عند الامم المنحطة مبناه قوة المال أو الجاه من باب اشتباه قوة المال أو الجاه بالعقل والعلم وعدم التمييز بينهما ولعمرك ان ما ضربه علماء بنى اسرائيل مثلا بالجرة والبغلة وربطها فى الجرة منطبق على هذه . ألا ترى ان الرجل بلا علم كالجرة فهو طين مطبوخ بحرارة النار والفارق بينهما حسن الروية والتدبير ويقول في الكتاب ان الانسان من صلصال كالفخار وهذا

ظاهر ولا يفرقه عن الفخار الا العقل والروية فمن وهم وانتخب عضوا جاهلا يمثل الامة كان كذلك السقاء ربط البغلة فى جرة فلم تغن عنه شيئا والخطأ في هذا ناشىء من تحكيم حاسة البصر فقد شاهدت شيئا ظاهراً على الارض ولا ريب ان الحكم يستدعى شاهدين ولو انه مد يده فأمسكها لحكم بأنها لاتصلح للربط ولا الثبات فلا مناص فى الاحكام الحقة من حاستين وهما هنا البصر واللمس الذى به معرفة الاثقال وهنا في مسئلة النواب ينظر الجهال لظواهر الاجسام والمال والجاه المشبهة لجرم الجرة ويغفلون عن العقل والاستعداد . الموازنة هناك للثقل والخفة ولها مشابهة للطبيب الآمر لكل مريض بأكل البصل فأولئك الجهال المنتخبون من ذوى الثروة قد يغنون في مواطن المال ولكنهم لايغنون فى مواطن العلوم والآراء كالبصل في يد ذلك المتطبب افادة فى اشتهاء الطعام واصلاح المعدة فقاده الوهم الي فائدته فى جميع الامراض وهذا كله من الاوهام

المقالة الحادية والثلاثون

﴿ العقول والاهام ﴾

﴿ تابع ماقبله ﴾

ومن الاوهام الداخلة على الناس خاصة وعامة الاغترار بأدب ساعة أو حسن الزى فيختلج فى العقول ان هذه الهيئة الظاهرة لن يحملها الا من كملت صفاته فيتبعها المصاحبة أو المصاهرة فيكون الوبل والثبور

ومن الغلط في القياس أن يقرأ الناس فى الجرائد والمجلات ان سواس الامم الراقية لا يراعون العهود وينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون

ماأمر الله به أن يوصل ويفسد كثير من الملوك فى الارض قديما وحديثا ويتزلون الصواعق على كل من طمعوا في ماله لا يبالون أكان على دينهم أم غيره فترى الشرقى يسمع هـذا فيقول هكذا الذين لا يراعون العهود وهم أشراف الامم وأنا لا أراعى العهود ولا الصدق فلأكن منهم وهذا قياس قبيح موهوم ألا ترى أنهم يراعون العهود مع أبناء وطنهـم ويخلفونها مع غيرهم لحاجة وهم يخافون من اشتهارهم بصفة عار تلحقهم وهاهـو سيسيل رودس الانـكليزي وقف حيـاته على أن تسود انـكلترا على بلاد أفريقيا ولم يخلف ولداً ووقف ماله كله على محبوبته انـكلترا فمثل هذا انخادع العبيد السودفى بلاد الـكفروريا فهو مع بنى التاميز أصدق صادق أشـداء على غيرهم رحماء بينهم . فترى هذا القياس خطأه من وجهـين ظاهرين اذ هو مقيد بمن وفوا مع بنى جنسهم ولن يخلفوا مع غـيرهم الا لضرورة شـديدة وربما اغتربهذا فريق فـكذبوا مع مواطنيهم فعرفوهم ففروا منهم .

على ان الساسة عند علماء الامم كالحراس على الممالك فاذا ساءت أخلاقهم وقبحت فعلاتهم فليكونوا فداء الشعب الصادق فاذا قبحت أخلاق الساسة فليكونوا سياجاً وحصنا لعلماء الامة الذين ابتعدوا عن الرذائل وبرهان ذلك ماتسمعه منهـم اذا صفا الوقت وطاب الزمن وجلست تحادث كبيراً من اكابرهم فتراه صادقا فى القول حسن الـكلام موفيا بالعهد حتى اذا ذكرت له المطامع المتجهة منهم الي بلادك يقول أما أنا فبصفتي غربيا وأنت شرقى فلا أساعدك كأنه يقول أنا حسن الخلق الا معكم ولى ذمة فى بلادى ولا ذمة لي معكم . فهذه تصريحات أولئك وان تسمع هذا القول من هـداتهم علمائهم وفلاسفتهم واعلك تذكر اسبنسر العلامة الفيلسوف الانكليزى

اذ أسر الفيلسوف اليابانى بسر السياسة وقال له احذروا من الغربيين واذكروا الهند وخرابه وذهابه واحذروا التزوج من الاوروبيين ولما خاف من رعاع بنى جنسه وساستهم قال له اكتم قولى حتى أموت فكان ذلك . فلله در العلم وما أجمل الحكمة وتعست السياسة وأف لها وبعد القوم لا يفرقون بين الفضيلة وضدها . واتل عليهم نبأ نابليون اذ قال لقومه ألا تسلمون مع المسلمين المصريين فأسلم هو وجنوده فى الارض طمعا فى ملك مصر وهذه الانهار التى تجرى من تحتها فداس على الدين واتخذه أحبولة وشبكة يصطاد بها الخبز والقميص والجلال والملك كالعنكبوت اتخذت بيتا تصيد به الذباب اذ هذا الفريق كل قواه تتجه الى مركز الثقل وهو السلطان والقوة فان وصلوا لها بالسلاح فيها والا احتالوا بدين أو خداع أو لغة أو وطن ولذلك رجع الى النصرانية نابليون اذ خرج من مصر وتراهم يعدلون ويوفون بالعهود مع الامم التى لها قوة كقوتهم فاذا ضعفت بعد القوة قالوا لا عدل وليكن القهر الواجب ! فمتى تكون هذه الدنيا صدقا ومتى يسود العلم والعدل وتنال الامم الضعيفة حقوقها ؟ ولعل هذه الدنيا دار الفسوق والعصيان فانا لم نرها صفت وعدلت الا قليلا

ومن الاوهام تصديق ما أوجبته قرانات الكواكب والمنامات وصورته الاحلام فى عالم الخيال أو الكهانه . فان قرانات الكواكب ان صدقت فى صورة فقد تخطىء أخرى اذ لبس يحيط الحاسب بجميع ما فى العالم العلوى، والسفلى ولو أحاط لكان الحكم صادقا فانه لاريب ان هذا العالم مزاج واحد يدل بعض أجزائه على بعض كحال المريض تجس نبضه فتعرف علته وقد تتشابه الامراض فالطب وان كان ظنيا فهو أقرب من علم أحكام النجوم

لبعده وصعوبته وغور مسائله فقد يصدق بفراسة الحاسب وهيهات ان يحيط به علما ولعمرك لم تتفلت تلك الحوادث من وراء الحجب فيسترق المنجمون السمع واكثرهم كاذبون ألا ليجد العلماء فى البحث وليعلموا أن عالمنا فيه خبايا وأسرار كما تفجرت ينابع الغيب فى بعض الاحلام لتوقظ الناس الى أن لهم عالما أجمل وأبهى من هذا العالم الذى كله ظلم وغدر وخيانة فليجدوا فى العلم عسى ان يشتاقوا اليه وله يصعدون ولم يردان تكون تلك كعيون (جواسيس) على الغيب نعم لها دلالة على استعداد صاحبها لما يغلب على خياله وأحلامه اذ هى من جنس ماله استعداده.

وانما كانت الروى والكهانة والاخبار الصادرة من بعض الصالحين الصادقين أو من الذين جنوا جنونا سوداويا كما قاله ابن خلدون فذلك ان لنفوس الناس اشرافاً على عالم غير عالمنا شريف رفيع فكانت الحكمة تقضى بايقاظ الناس له كل آن أما بالطبع كالكهانة أو بالحساب كالتنجيم أو بانصراف النفوس عن عالم الحس والمحسوس فى المنام أو العبادة أو أمراض سوداوية

فاياك أن يتخطى بك حكم الوهم المطلق فتقع فى الخطأ فنى الرؤيا صادق وكاذب وهكذا الكهانة كما ورد فى خطاب النبي صلي الله عليه وسلم لابن صياد اذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم (كيف يأتيك فقال يأتينى صادق وكاذب فقال النبى خلط عليك » يعنى والانبياء لاخلط عندهم

وكم اغتر قوم بمن أخبر بغيب مره أو مراراً فحكموه فى رقابهم وأموالهم وأعراضهم من الوهم

واتل عليهم نبأ الذى جاءه مغربى مراكشى فلفق حكايات وزخرف كلمات وقرأ لهم (برهتيه برهتيه) وابتدأ يقول

أحاطت بنا الانوار من كل جانب . وحكمة مولانا العظيم بنا علت وأمر الجن وأحضر البخور وقال سأفتح الكنوز والمطالب أو ذاك الذى ادعى علم الكيمياء فخبأ قطعة من الذهب بعد رطانة ألقاها وصنعة اجراها وغشى على عيونهم فهم لا يبصرون فسلب ثلاثمائة من الذهب الخالص وفر سحراً وقت التجلي ونزول الرحمات . واذكر مدرساطبيعيا يلقى على تلاميذه أنه شاك وان الالحاد نور والكفر شرف وحرية وانه يعرف كل شيء الا الله فيصدقونه وفاتهم ان علوم الطبيعية ان هي الا معرفة بخواص بعض المواد المشاهدة ولعل هذا لم يعرف منها شيئاً وان اشترك مع الفلاح وزاد عنه معلومات فالفلاح طبيعي بمعرفته أوقات الزراعة وفصولها ونواميس سقيها وهو كيماوى بعملية وضع الحب في الارض وسقيه فيحدث جسم جديد هو النبات فهو طبيعي كيماوى وزاد ذلك عليه بعض مسائل فهذا الوهم ممن يسمعه خطأ فى القياس

﴿ أوهام صبيان الناس ﴾

(وصبيان العلوم والمغرورين)

الصبي فى أول أمره يمر فى الطرق والشوارع المنظمة المغروسة شجرا ويرى الاجناد المنظمة في ساحة عابدين في حركاتها وسكناتها وغدوها ورواحها وما لابسها فلا يخطر بباله ان ذلك بقوانين وانما هو شيء اتفاق فاذا كبر وتعلم عرف ان كل حركة وسكون وغدو ورواح مقدر فى كتاب مبين عند قوادهم ورؤسائهم

فأول فكر فى هذا وهم وآخره عقل وترى الانسان يبتديء في العلوم ويقرأ مبادىء الفلك والطبيعة فيرى نفسه قد نزل منزلا جديداً وأخذ يتفرج على طرقه ومسالكه ونواصفه (طرقه الزراعية أو غيرها) فيخيل له الوهم ان

ذلك اتفاق وترى مسئلة ارخيميدس الشهيره يقرأها الشاب فيبتدىء بمعرفة ان الجسم كلما كان أخف من مقدار حجمه من الماء علا فوقه وكلما ساواه وزنا ساوى سطحه الماء وكلما ثقل عنه فى الوزن غطس فيه وغرق في قاعه ويشاهد هذا فى البيض اذا فسد نخف علا على الماء وان كان صالحا نزل اسفله ويشاهد هذا فى السمك فكل سمكة فيها زق منفوخ مملوء هواء تشاهده اذا فتحتها فهذا الزق اذا أرادت كبر حجمها ضمرته وضمّته وان أرادت العوم على سطح الماء نفخته فكبرت نخفت فعامت وهكذا تفعل ذلك بقدر معلوم كحال الحى فى فتح عينه للنور يقبضها اذا كثر النور ويفتح أجفانه اذا قل كل ذلك بمقدار معلوم والانسان لا يشعر بما يصنع والسمك لا يدرى مسئلة أرخيميدس ولا الانسان الناظر له وهو يسبح وانما يقول هو شىء بنفسه ولا زق منفوخ ولا نظام موضوع ثم ينظر المتعلم فيرى السفن الصغرى فى الانهار والزوارق بجانبها ليست تعوم وتسبح الا على هذه القاعدة السمكية البيضية الارخميدسية ويتعالى عن ذلك الى السفن الكبار والاساطيل الضخام والمدرعات العظام وكيف تسطو على المدن فتخربها والامم فتقصمها وتذلها وهو فى أثناء ذلك ينتقل من درس الى درس في قوانينها وهى سابحة فى الانهار والبحار الملحة فربما يقضى علماء هذا الفن أعمارهم وهم فيه سائحون ولعلهم يموتون وهم تائهون كدودة القز نسجته فماتت فيه وكان النفع لسواها. فهذه المسئلة من ردد فيها نظره كرة وكرتين يراها متشعبة متكثرة ويرى نظاما عجيبا وملكا كبيراً فيحصل له الوهم على أحد وجهين فتارة يقول أنا أعلم العلماء فقد أدركت من سر الدنيا ما جهله العالمون أرني رجلا يفصل لي هذا القول تفصيلا واذا كان مثلي لا يرى الله فمن ذا الذى يراه أهؤلاء الجهلاء

مع انك تعلم ان المرآة تعلم ذلك فى البيض والسمك يفعله وان لم يدره ، وتارة يقول هـذه قوانين ونظام جميل ثم لايخطر فى باله الفكر فى ناظمه فهـذا كالطفل اذ مر فى الطرق المنظمة ورأى الجنـد ولم يدرك سرها فيما قدمنا فهذه أوهام صبيان الناس والمبتدئين فى العـلوم وللقول بقية نبدأها باوهام المغرورين اه

المقالة الثانية والثلاثون

﴿ العقول والاوهام ﴾

(تابع ماقبله)

وهناك فريق يسمعون القول وليس لهم شيء فى العـير ولا فى النفير يقولون لك نحن طبيعيون ولئن سألتهم عنها عجزوا اذ ليسوا من أولئـك المتفرجين فى خبايا المسائل حتى نقول لعلهم يفهمون وانمـا قلدوا تقليدا ومن هؤلاء فريق يخيل له الوهم ان اظهار مثل هـذا يجعل الناس يظنون أنه من البارعين في العلم والكبار فى الفهم وانمـا جعلنا هـذا الفريق مغروراً لدعواه ماليس له وليس له عذر فى ذلك فلماذا لايضرب بسهم مع المتعلمين على ان أولئك الشاكين من المتعلمين لهم عذر فان النفوس الطيبة لاتقف دون الغايات ومن عرضت له التشكوك فليعلم أن له نفسا تأبى الوقوف دون معالى الامور فليحذر الوقوف وليتخذ العلوم سلما حتى تزول أوهامه ولئن سار على الدرب وصل الي سعادة الدارين ومثل هذا ممدوح الا انمـا المذموم هو المتشـبه اظهاراً للفضل ولا فضل

الوهم في الامثال

ومن الوهم الغلط فى الامثال وتعميم أحكامها يقال في الامثال القليل العاجل خير من الكثير الآجل ويقولون برة « قمحة » عاجلة خير من درة آجلة ويقولون عصفور فى يدك ولا ثلاثة على الشجرة ويقولون المحقق خير من المظنون

وتحقيق هذا القول أن القليل العاجل خير من الكثير الآجل اذا كان ذلك الآجل موهوما فاما اذا كان مظنونا فلا ريب ان ذلك المظنون الآجل أفضل من هذا العاجل ألا ترى التلميذ يضحى لذة الصبا لنوال لذة أرقى منها فى الشباب والكبر والاولى حاضرة والثانية مستقبلة وربما اختطفته المنون وربما عاش ولم ينل مارجاه وهكذا التاجر ينفق ماله المحقق ويخاطر بحياته رجاء نفع أعظم فى المستقبل وربما ابتلعه البحر أو خانه الدهر وترى الدول تخاطر بجيوشها وتدفع بأبنائها وتلقى بأموالها الى التهلكة عسى ان تربح كثيراً من قليل وقد يخيب سعيها ويموت جيشها وتذل دولتها فهذا قليل محقق بذل في كثير مستقبل مظنون لا محقق فهذه الامثال يجب الحذر والانتباه في فهمها .

ومن هذا الصنف حياة الناس بعد الموت فالفكر العام بين طوائف البشر انها غير محققة بل مظنونة ولكنها حياة الابد وقد علمت حياتنا الدنيا وانها لن تبلغ دقيقة أو ثانية بالنسبة لحياة لا تتناهى فعلينا ان نجد فى الاعمال الكبيرة في الصدق والاخلاص لامتنا ولله واذا متنا فما الذى ضرنا ولذلك قيل

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تحشر الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولى فالدمار عليكما

وبالجملة فالعلماء شأنهم اتخاذ الاحوط فى الامور العقلية والظنية وقد

علمت التاجر والزارع والتلميذ كل هؤلاء يبذلون القليل لنوال الكثير المظنون

ومن الخطأ فى الوهم خلط الولاية بأمور الشعوذة والاخبار بالغيب مع أن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون فهى راجعة الى الايمان والتقوى والعمل الصالح كما كان كبار رجال الاسلام كابى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم والصحابة والتابعين أولئك هم أولياء الله قد عم نفعهم الامم ولا ريب أن ولاية المرء وصلاحه يقدران بمقدار امتداد نوره على الامم فمن كان نفعه أكبر فهو لله أقرب وعليه يكون الامير والسلطان أفضل من العالم بامتداد عدله واتساع نطاق نظامه وتعميره للارض اذا لم يناظره في امتداد نوره بمقداره وهكذا يفضل العالم الملك والامير اذا عكس الامر وفضل الانبياء على هذه النسبة بعضهم على بعض فالولاية ترجع الى علم وعمل ونفع للناس فأما ولاية الجهال فشىء آخر يفهمونه على مقدار عقولهم وماتصل اليه أوهامهم وان من أشنع المسائل فى الاسلام هذا الوهم السائد فى الناس فياليت شعرى متى يزول ولقد تأصل فى العامة وكثير من الخاصة وكان الناس اذ تركوا المعقولات تنزلت أفئدتهم الى خلط صادق القول بكاذبه و بما كان الرجل كاهنا بطبعه فظن ان هذا هو المتبع الصالح مع ان الكهانة كما قلنا شائعة فى نوع الانسان وخلقت العقول لتسير على الصراط السوى ولولا هذا لتمزق الناس شذر مذر في العقائد والافكار والآراء كالعامة الذين لا يسمعون لرسول الله ولا للعلماء كما يسمعون لبعض الدجالين أو الكهان فيقال هم مسلمون وماهم بمسلمين

ومن الوهم الغلط فى التوكل ترى قوما يظنون ان التوكل موت القلب والسكوت عن الاعمال مع ان حقيقته عمل بالجوارح وافراغ الجهد فى الاعمال

واطمئنان القلب لما ينتجه ذلك العمل ونبذ القلق وهكذا توكل القادرين فان ضعف المرء عن الاعمال وعجز عن كل حيلة فلا مال لديه ولا قوة له ولا يد يبطش بها ولا رجل يمشي بها ولا لسان ينطق به فليكن التوكل بالقلب فحسب ولا بد ان يعطى كل من الصنفين ما هو أهل له وهذه مواطن الاوهام أوردناها تذكرة لنا وللناس لعلنا جميعا نكون فيها مفكرين

ومن الوهم تصديق كل مايسمع من خرافات ملفقة وحكايات كاذبة كما كان سدنة الاصنام يلفقونها فعبد الناس تلك الاصنام كما عبد الناس اليوم رجالا عظاما وماهم بعظام ولكن الوهم أعظمهم في العيون

ونري الناس في بلادنا انقسموا طائفتين عامة الشعب لايرون من الحكمة الا ماأحاط بهم فان سمعوها عن غير أهل دينهم أنكروها وطائفة المسلمين الذين اخذوا عن الاوروبيين ينبذون الحكمة صوابها وخطأها عن الشرقيين ويحنون اليها عن الغربيين كأن غروب الشمس سر الوجود وشروقها عدم للحياة وسبب ذلك الوهم السائد على الفريقين انهم يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق ونسوا أن الحكمة تؤخذ من حيث نفعها لا من حيث مصدرها فالورد يجنى ولا يزدرى لشوك شجره والعسل يشتار (يقطف) ولا يعاف لكونه من مجاج النحل والنرجس يشم ولا ينبذ لازدهاره في البصل ولعمرى أن عباد الاصنام ماأضلهم الا وهمهم في الظواهر وكل حزب بما لديهم فرحون مع ان الكتاب يقول في هذا الفريق (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) ويقول (أو لم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن القلوب التي في الصدور) أمر بالنظر مع الفكر

لاتقليد فريق دون فريق . وكأنه يقول فى الآية الاولى هؤلاء كذبوا بما غمض عليهم فهمه ولم يتضح لهم فهلا استجلوا المعاني ونقبوا عنها لانفسها وجواهرها لالعوارضها وظواهرها وهكذا هلكت الامم قبلهم اذ كذبوا بما سمعوا ولم ينظروا حتى ذهبوا ضحايا الجهالات

نحن الآن في حاجة الى أخذ العلم من كل طريق وتنقيحه بالفهم فالعاقل من أخذ الحكمة حيث وجدها وهاهو عمر وخطبته على المنبر مشهورة اذ خطب في الناس يقول «لاتغالوا فى المهور ياعباد الله» فقالت عجوز وقاطعت كلامه ياعمر يقول الله (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذون بهتانا واثما مبينا) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر ولم يحتقر الاخذ عن عجوز فى جمع من الصحابة

ولولا أخذ الحكمة من حيث هى مارأيت علماء الانجليز يجلون رجلا نساخا يسمى « ويليم كوكستون » نشأ فى انكلترا فى القرن الخامس عشر اجتلب لهم المطبعة وطبع أول كتاب فى بلادهم سنة ١٤٧٤

فهذا العامل مع بساطته يجلونه ويعلون شأنه ويرفعون ذكره جيلا بعد جيل لعمله لا لحاله وهذا تقدير للرجال بالاعمال والحكمة

ومن الوهم بظواهر الاحوال ماشاهدت يوما ان فلاحا غادر الماء قطنه في حقله فى شهر بشنس وبؤنه ونصف شهر أبيب فلما ان جاءه النيل سقاه فأورق وأزهر واستوى على سوقه يعجب الزارع فقال الفلاح لابنه يابنى انى لفرح بزرعنا اذ اخضر وأزهر فقال الولد ياأبت المثل هذا يفرح العقلاء أنا لست بفرح فان أثماره قد فات أوانه وليس لنا منه الا الوقود وماء النيل ليس يعطيه اليوم الا قوة في هيئته وظاهره أما الثمرات فلا أنا لمغرمون بل

نحن محرومون فكان الاب واهما والابن مفكراً وهل الامم التي سقى ماء العلم بلادها فنمت أجسامها وانسع عمرانها ثم لم تجد ثمرات الحكمة تجنى من عقول أبنائها هل هذه يفرح بها المفكرون نعم يغتر بها الواهمون وهل أعواد القطن وأوراقه الا كالخصب المنتشر في البلاد وهل القطن المجنى الا كالعلم الحقيقي المرقى للامم وانما أطلنا في هذا المقام تذكرة وتبصرة واعتباراً لنا وللمتعلمين والمفكرين

المقالة الثالثة والثلاثون

﴿ سعادات الافراد والامة ﴾

بينما أنا فى روضة ناضرة فيحاء زاهرة حليت بأزهارها وتحلت بأثمارها أقضى لبانة (حاجة) الفراغ في الهواء السجسج (الوسط)

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ماء تدحرج حية رقطاء

والجو طلق والزهور بواسم والشمس تنسج حولها لألا

فى روضة أنف جاد عليها النيل بتسكابه وآنسها السحاب بودقه وجوده فذكرت قول عنترة فى معلقته يصف أنفاس محبوبته ويشبهها برائحة الروض قال

أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم

جادت عليه بكل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم

سحا وتسكابا فكل عشية يجرى عليها الماء لم يتصرم

يصف الروضة بأنها أنف ـ أى لم ترع ونبتها مفعول والدمن جمع

دمنة (السرجين) والبكر من السحاب هى التى تمطر مبكرة والحرة الخالصة من البرد والريح والسح الصب والتسكاب السكب يقول هذه الروضة بهجة غناء زكا نبتها فازدهى وازدهر اذ سقاه ماء ماخالطه سرجين فيفسد رائحتها العطرية الذكية وليست الروضة بملم تطؤه الدواب والناس وقد أمطرت هذه الروضة كل سحابة مبكرة فغادرت كل حفرة فيها كأنها درهم لاستدارتها بالماء وبياض مائها وصفائه وترى المطر يجرى في فنائها وينزل فى روضاتها لا ينصرم أى لا ينقطع فهو أبداً دائم التسكاب كثير الماء غامر الارض ينمى زرعها وتزكو به أشجارها فتجود لواقح عطرها بما أودع فيها من البهجة والنماء وحسنُ الرواء فاذا رأيت ثم رأيت بهجة أرضها تتلألأ بالماء المنسكب اللامع مستديرا فى أماكن متلاصقة كالدراهم المتنورة تحت الاشجار فى أحافير صغيرة مستديرة ويقول آخر

ياصاحبي تقصيا نظر يكما	تريا وجوه الارض كيف تصور
تربا نهاراً مشمسا قد زانه	زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى اذا	حل الربيع فانما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها	نوراً تكاد له القلوب تنور

يقول أيها الصاحبان انما النظر فيما تريان فى الدنيا كيف اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج وكيف جمال هذه الصور والاشكال وبهاؤها وانظرا الوامع الشمس وأنوارها تترقرق حسنا وبهجة تسطع على وجوه الازهار وتتخلل الاوراق منعكسة على محاسن تلك الاوراق النضرات الباسمة في الازهار فيتولد لون رائق أبيض جميل كأنه نور القمر يطلع على تلك الربا (جمع ربوة) وهى المكان المرتفع اذ تحسن أشجاره وتنمو زروعه

لتوفر ماء المطر في ارجائه وما هذه الدنيا الا معاش للورى فاذا حل فصل الربيع أضحت معرضا للزينة والمناظر البهجة وترى باطنها يصوغ ألوان الحلي والحلل وينشرها على الاغصان فتكاد القلوب تشرق نورا وبهجة بهذه المناظر الجميلة الحسناء وبتلك الحلي والحلل

راقني هذا المنظر وحلا السمر ومعي جليس أنيس نديم أديب فأخذنا نتجاذب أطراف الاحاديث ونتقاسم طرائف الملح وأزاهر المعاني وبينما نحن كذلك اذ فاجأني بقوله اصغ صه ألست تسمع من بعيد أصوات الغناء والطرب بقرب الحديقة ولعل أولئك مغنيات يزففن العروس الى عرسها (بعلها) ولعمرى ان هذا ليذكرني بسعادة الافراد وسعادة الامم

ماأدرى أهذه الافراح القائمة والزينات الظاهرة والملابس الباهرة والحدائق الناضرة هى السعادات أم السعادات أمر وراءها ولئن قلنا هى السعادات فمالنا نراها تتغير وتتبدل وما تغنى السعادة العمياء الخرساء الرعناء التى لا تلبث ولئن كانت السعادات أمرا وراءها فما ذلك الامر . ولئن كانت تلك المظاهر سعادات أو سواها فمالى أرى فى فؤادى اشفاقا ورحمة ورأفة على أولئك الفرحات المغنيات ألا يدوم لهن صفاء العيش الوارف اذا لم يكن لهن سياج من حكومة منتظمة فيرتعن في بحبوحتها ويخطرن فى ساحتها ويغنين فى حظيرتها ويترنمن تحت حياطتها ملى أراني متشفقا على الافراد وعلى الامه أواه أواه فؤادى يكاد ينفطر وكبدى الحراء تنشق ومهجتى تذوب على أبناء هذه الامة وبناتها . هذا الغناء كهرباء أثرت على فؤادى تأثير الشفقة والرحمة وأود صفاء الوقت لهؤلاء بنظام عام وحكومة ثابتة دائمة حتى يأمن الحاضر والبادى والرائح والغادى ويهنأ كل امرىء بسعادته المواتية لمزاجه

على مقدار درجته في الفكر مالى أرى فؤادى تختلج فيه هذه المعاني المتباعدة المتقاربة المفرحة المؤلمة

أرانى شفيقا على الفتيان والفتيات وعلى مسراتهم ولذاتهم ورغد عيشهم وأفراحهم وأود صفاءها لهم ودوامها وأتمنى لهم نظاما ودستوراً وقانوناً وناموسا وأمرا ثابتا ثم اكر راجعا الى تلك اللذات والمسرات فأراها سريعة الزوال فاود أعلى منها فكأنى أود بقاءها لهم وأود ماهو أعلى وأدوم فياليت شعرى مالهذه المعاني تجول بضميرى ومالقلبي يذوب لذكرها وما المناسبة بين الحديقة وجمالها والافراح وغنائها والحكومات ونظامها والناس وسعادتها ومالى أرى نفسى كأن سعادتها منوطة بسعادتهم وشقائي منوط بشقائهم وكأن قلبي وقلوبهم مزاج واحد تتخلله كهرباء وأنوار تتعاقب وتتداخل بل أشعر كان القلوب جوهر واحد اثيرى متصل ببحر عظيم مجهول عندى ولعل هذه القلوب الانسانية والارواح المتحابة ينبوع تفجر ففار كأن نافوره نضاخة تقذف فوق البسيطة ماء أشرق عليه نور الشمس فتلألأ بانوار كونته وزوقته بالالوان الباهية من أصفر وأحمر وأخضر وأزرق وأبيض على ناموس تحليل ضوء الشمس الى عناصره وذلك الينبوع من بحر الحكمة الالهية والارواح كتلك الالوان المتشرقة ببهجة الشمس والا فلماذا يشعر فؤادى بفرح لفرحهم وحزن لحزنهم ولماذا تتجلى تلك النفوس مع نفسى فالاجسام متباعدة والقلوب متحدة

كأن فؤادى ليس يشفى غليله   سوى ان يرى الروحان تتحدان

فهل لك ان تشفى غليلى ببيان ما أنا سائلك اليوم عنه

بم يسعد الانسان ؟ أبالمال والجاه والصيت والاماره أم بالحكمة

أم بالادب وما الفرق بين هذه أم السعادة درجات وما السعادة الحمقاء وما السعادة الثابتة الدائمة وهل توجد السعادة الحقيقية وهذا كلها فى الافراد وهل تسعد الامم وكيف تؤلف مجالسها ونوابها وما الذى قاله الحكماء من ضرب الامثال وهل للامم سعادة حقيقية أم هي نسبية وما صفات نواب الامة وهل بين هؤلاء وبين أعضاء الانسان فى علم التشريح مناسبة ومتى كان الانتخاب في الاسلام

واذا لم يكن للامة حكومة منظمة فما صفة حكامها وكيف حال الامراء الجهال والامراء الطامعين وما الذى ضربه الحكماء مثلا لهم وكيف تؤلف الكتب لاطفالهم وهل بين الكتب وأعضاء النواب مناسبة وكذا الجسم فى التشريح وهل تكون الزروع واختلافها مثلا للكتب وما الذى جاء به القرآن فى ذلك وما الذى صنع الغربيون وما منزلة شعر الشعراء فى رقى الامم وماالذى ننبذه من الشعر وماالذى نصطفيه : اني لولوع بالاجابة على هده الاسئلة بالتفصيل فى مقالات متناسقة متتابعة فان ماقلته من قبل كالتمهيد لهذا وانما هذا هو المقصود

أنعم برد جواب ما أنا سائل عنه فاو المعلم ذات تشعشع

فلما فرغ صاحبي أجبته عما سأل باسهاب وسنجعلها مقالات متتابعات يتلو بعضها بعضا بايضاح تام

وسنبدأ بالكلام على سعادة الانسان في حياته ان شاء الله تعالى

المقالة الرابعة والثلاثون

سعادات الامم والافراد — ٢ —

وعدنا فى المقال السابق أن سنبحث فى سعادة الانسان والآن نقول

قال لى صاحبي وهو يحادثنى لماذا أجد فى قلبي وجدان الشفقة على الناس وسعادتهم الخ. فقلت

ان الوجدان يخامر فؤاد الانسان على مقدار ماأوتى من علم وما أعطى من أدب وذوق وما غلب على نفسه وما هذه المغاني والنفحات العطرية الا ذكرى للذاكرين وعبرة للناظرين وبهجة للسامعين وأنت امرؤ أيقنت (ولك الحق) ألا سعادة للمرء الا بسعادة أمته ولا بقاء له الا ببقائها فاعلم ان السعادة قسمان سعادة مؤقته وسعادة حقيقية دائمة وكلاهما فى الامم والافراد فكل ما دار بخلدك ليس يعدو هذه الاربعة وسأقول الآن قولا موجزاً اجماليا لنحيط بالموضوع ثم نفصله تفصيلا

السعادة المؤقتة هى ماساقتها المصادفات العمياء واعطاها البخت كالاموال والمناصب وبعد الصيت وهل المصادفة الا امرأة عمياء رعناء تعطى هذا وتمنع ذاك ثم تكر راجعة عليهما فيتناولان ويتناوبان الهناء والشقاء يرى الجنازة والعروس بالتقيان ثم يكر الحدثان ويمضي الملوان وتستبدل المناحات بالافراح والاعراس بالمناحات. سر في الطريق ألست تجد مناحة وولولة امامها جنازة وخلف هؤلاء عروس جليت وموسيقى ومزامير وضجة وفرح والدهر بالناس قلب يقول زهير

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ونرى طفلين يولدان في لحظة هذا فى قصر منيف تصنع له الزينات وتقام الحفلات وتنصب له الاعلام وتقذف المدافع والبارود ويطير البرق خبره فى الشرق والغرب يتحلى باشرف الالقاب ووسامات الشرف وترى آخر نفظته أمه لفظ النواة فى بيت كأنه جحر ضب خرب فيه ماء آسن ليس يبسم الدهر له ابتسامة ينصب (يتعب) لميلاده أبواه فهما الاشقيان كما فرح لذلك الثقلان وكم أبدى الزمان من عجب فتبادل الولدان فاعتلى الوضيع واتضع الرفيع وكل ذلك ليس له عند الانسان قانون محدود ولا أجل معدود وانما مناه بحسب الظاهر تلك المصادفة العمياء كالرياح الذاريات تذرو التراب الى الجو ثم تحطه تبع الهواء فى هبوبه بلا قانون مسنون (نعم لها عند الله قانون ليس يعلمه أحد) فهذه هى السعادة المؤقتة للاشخاص لم يغتر بها الحكماء فلجأوا الى سعادة تدوم للمرء فى غناه وفقره وصحته ومرضه وامارته وعزله وذله وهى الحكمة والفهم والعدل والاخلاق الفاضلة كالوقار والصبر والاحتمال وتناول العلوم والتحقق من حقائق العالم وما فيه من الجمال وقراءة ما سطرت يد الله فى الخليقة من حكمة فتشرق نفوسهم . فهذه سعادة لها قانون مسنون ثابت وهى المعبر عنها بهذه الآية (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) هذه الاخلاق الفاضلة والحكمة الحسنة تخدمها المال والجاه والجمال والامارة والصناعه والصيت والاشتهار حتى تصير سعادة تابعة لها

هذه سعادات الافراد وتقسيمها وما الامم الا أفراد مكررة لهم اجتماع وصناعات وتبادل ورؤساء يحكمونهم ولكن ليسوا . واه .

ولعمري لئن سلموا زمامهم الى سادة مستبدين أضحوا ككرة تلعبها

أولئك السادة رجلا رجلا فيصيرون ونحوسهم وسعاداتهم مصادفات عمياء رعناء ليس لها قانون معلوم ولا نظام محدود فان رحمهم أمراؤهم فأولئك هم المنعمون وان عذبهم الامير ذهم في جهنم الخسران خالدون تلفح وجوههم نار الجبروت وهم فيها كالحون « كاشرون عن حزن » سعاداتهم صبيانية ومؤقتة تتبع مهاب الرياح والاهواء فى قلوب الامراء كالصبي بين يدى مربيه الا أن السعادة ما كانت ثابتة الدعائم قوية الاركان مابقى المللوان وذلك أن يكون لهم نواب قائمون ينصفونهم من أنفسهم كلما غرب واحد أشرق الآخر واتخذ مكانه فتكون سعادة الامة اذ ذاك أدوم وأجلى وأحكم.

اذا كان للامة دستور كانت سعادتها من نفسها كسعادة الحكيم بحكمته تشرق أنوارها عليه مهما عسفتها الحوادث وابادتها الجوائح وتقلب الحدثان ـ ليس يبطرها ملك رحيم ولا يستذلها ظالم غشوم ومثل هؤلاء ان أعطاهم الدهر كان العطاء جماوان قلب لهم المجن لم يجحف ولم يستقص بل يكون رفيقا رحيما اذ الدستور والنظام لا يسمحان وأما الامة المدبرة بيد مستقلة مستبدة فاعطاؤه تبذير ومنعها اهلاك وتدمير سنتها الجور وشريعتها العسف لا يأمن الصبي على لعبته ولا المثرى على ثروته ولا الداعى على وليمته (ايضاح) واذ لرغت من هذا القول وكان السائل مصغيا قال عرفت ان بين الامم والافراد نشابها وان السعاده فيهما متشابهة واني لاودشرح سعادة الافراد شرحا أجلى من هذا وأوفى فخبرني : أأنت تنكر فضل المال والامارة والصناعة والجاه والجمال والصيت وكيف تسميها سعادات حمقاء والعيان يشهد بخلافه ولسنا نرى الناس يطلقون السعادة الا على هذه . بالمال كل شيء بالمال تقتنى العلوم بالمال يحصل المرغوب وينال المطلوب فقلت لقد اعترفت فى قولك

الآن بالجواب وكفيتني مؤونة الرد اذ سمعتك تقول بالمال يحصل المطلوب وينال المرغوب فاذا هو واسطة ومقدمة فمن أظلم ممن رضي بالمقدمات ونبذ الوسائل ورضي برسول المحبوب عن المحبوب واستبدل الادني بالذى هو خير المال وما عطف عليه آلات فى أيدينا تصلح للخير والشر تقع في يد البار والفاجر والسعيد والشقى

ألست ترى كثيرا من الفقراء فرحين وكثير من الاغنياء والامراء مهمومين متعبين قال نعم فقلت اذن ليس المال وأشباهه كافيات بل انما هى مقدمات . كم اغتر قوم بالمال فاعتبروه سعادة فقصروا هممهم عليه فان حصلوه اكتفوا من الحياة به ثم خدعهم الخادعون ومدحهم المطرون وأحاطت بهم غاشية من المدائح وجللتهم سحائب من الاطراء فاصبحوا معجبين بأنفسهم مغرورين فاذا أدبر المال وتولى انتابهم الاحزان والاوصاب والحسرات والآلام ثم ينصبون فى طلابه بالنصب والخداع والخيانة والكذب والنفاق

فلو كشف لك عن سرائرهم وصورت بصورة محسوسة لرأيتهن نساء بائسات أهدامها قالصة أضناهن الجهد ومسهن الضر يلطمن الخدود ويخمشن الوجوه . منظر تقشعر منه الجلود .هب ان المال دائم الوجود أفيقينا فاجعات الدهر ونوائب الحدثان من موت صديق ورزء حبيب وكارثات الليالى وحادثات الايام ؟ فقال صاحبي اذن السعادة أمر آخر وراء المال وهو كالمقدمة والسلم فقلت نعم فقال وما هو فقلت ليكن الحديث غدا فاني أخاف الملل فالمجاز فى القول أجمل

المقالة الخامسة والثلاثون

الانسان فى الحياة كسفينة في البحر

ابتدرنى صديق بالحديث فى السعادة أبا لمال هى أم بالعلم أم بقوة فى النفس وكمال وثبات وحكمة فقال لعلك تريد ان السعادة بالعلوم العامة في المدارس من رياضة وطبيعة وأدب ولغة وشعر ونثر وتاريخ ولعلك تريد ان يكون المال سلما لها معينا عليها حتى يتسنى للمرء تخفيف الآلام والاشجان ولذلك نري النوع الانساني مارتقى فى هذا العصر بالاكتشاف والاختراع مما نشاهد من البخار والكهرباء حتى انه اخترع أمس آلة للتصوير الشمسى على بعد فتستقبل الآلة صورة وان تناءت دارها وابتعدت اقطارها فالسعادة اذن هى العلوم العامة والاموال خدامها فقلت هذه العلوم أجمعها تعاليم للصبيان فى المكاتب ونحن فى تعاليم الرجال هذه العلوم اخوان المال فان شئنا كانت لنا سعادة وان شئنا كانت لنا شقاء وكم متعلم عضه الدهر بنابه فقال ليت ماحل بنابه وندب حظ وكره الحياة جبنا أن يقابل بشجاعة هذه الايام والحوادث

يقول فابس اليونانى الفيلسوف هذه العلوم مبادىء ومقدمات وهذا قول مر عليه ٢٣٠٠ سنة تقريبا وهو لم يتغير ولم يتبدل تبدلت الدول وتغيرت الممالك وهو ثابت كناموس طبيعى . يقول اللورد افبرى المعاصر انا الحياة ممزوجة بالاتراح وهى كثيرة متنوعة وبعض أحزان الحياة حقيقى لاريب فيه ومعظمه نجره على أنفسنا والبعض الآخر موهوم فاذا قابلناه بصدر رحب نبدد كالضباب اذا طلعت الشمس عليه

يريد بذلك شمس الحكمة المشرقة على النفس الموازنة للشمس المشرقة على الضباب قال ايبكتيتوس مدينة أثينا جميلة وأجمل منها السعادة ثم فسرها فقال بأن نكون مجردين عن الشهوات خالين من القلق والاضطراب وهو ماسنوضحه من الحكمة ثم قال ومن الحقائق التى لاجدال فيها أن السعادة تتوقف على ماداخلنا لاعلى مايحيط بنا من الاحوال . قال هملت ليست الجودة والرداءة من طبيعة الامور لكن الافكار تجعلها كذلك قال الامبراطور مرقس أوريليوس ان الامور التى لاتؤثر فى المرء لايمكن أن تؤثر فى حياته فالموت والحياة والعز والذل والالم والسرور وجميع هذه تصيب الصالح والطالح فهى لاتؤثر فينا فى زيادة صلاحنا أو نزع طلاحنا

وهذا القول بعينه هو الذى ذكره قابس اليونانى في لغزه وبين القولين ألفان ونحو مائتى سنة أو أكثر فما أجمل العلم والحكمة ومن توفرت لديه الاخلاق الفاضلة ونال حظا وافراً مما يحيط به كان فى سعادته كسفينة شراعية أسرع بها الريح وأسعدها البخار فالآلة البخاريه تسيرها والريح يقويها والاول ذاتي والثانى خارجى

فقال صاحبي أوضح لي هذا المثال فانه جميل . فقلت

مها حاول العلماء فى اكتشاف أسرار العالم وارتقت العلوم وتوفرت الصنائع فما خرجنا من المضيق الذى نحن فيه وهب ان قوما بعدنا زادوا هذه العلوم أضعافها فان يتعدوا علوم ملاحى السفن (الملاحون مديرو السفن) فما المواد العنصرية ولا الظواهر الطبيعية الا كالرياح المسخرات وهؤلاء العلماء ملاحون فى سفن الحياة المزجاة فى بحر الدنيا المظلم العميق فهم بهذه الحيل العلمية يحتالون حتى يسخروا هذه الرياح الحمقاء في مصالحنا . نعال

وهل ملاحو السفن اذا أتقنوا صناعتهم وأجادوا حكمتهم قاصرون عما تستعد له السفن من الكمال واذا قام ملاح السفينة بضبطها وتسييرها وتذليلها فذلك غاية ماتصل اليه يد الامكان لنوع الانسان أما مافوق ذلك فالقول فيه عبث عابث وخيال موهوم

فقلت ان في الامكان ماهو أحسن للسفن وأسعد للملاحين والنوتية وذلك شيء يثبت في السفينة هبت الرياح أو ركدت . اضطرب البحر أو سكن هاجت العواصف أو هدأت ذلك كمال يكون لها من نفسها مهما تعارضت الاحوال الخارجة وألمت الملمات وأجحفت الكارثات وأضنت المزعجات من الليالي فقال وما هو فقلت الآلات البخارية المصنوعة بها تسير السفن بقانون لايتغير ولا يتبدل في أوقات معينة لاتبديل لها وهل يحدس في خلدك أن يكون ذلك المزاج المخلوق من خشب ينال نظاما وقانونا مسنونا ويحظى بادارة داخلة فى هيكله مسيرة له فى كل بحر لجى مهما تغشاه موج يعلوه موج يلحقه سحاب في ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرجت يدك فيها لم تكد تراها ثم لايكون مثله للانسان المصنوع من أعجب العناصر وألطفها المسيطر على السفن وما حوت والبحار وماوعت والارض وما أقلت والعلوم وما أكنت فقال نعم لاغرو ان يكون للانسان سعادة في نفسه ثابتة في قلبه وكل ما يحيط به من مال أو جاه أو صيت ومايعلم من شعر وتاريخ وطبيعيات ورياضيات انما هي سعادات خارجية تشد أزر سعادته النفسية وتلك السعادة التى أردتها انما هي الحكمة والاخلاق الفاضلة من العفة والصبر والاحتمال والفكر والعقل فقلت حقا كما قدمنا فقال وهل يمكن تفصيلها اليوم فقلت كلا واذا قرأت كتاب العلامة ابن مسكويه المسمى بتهذيب الاخلاق

فتحت لك أبواب الحكمة وعشقت العلوم على اختلاف أجناسها

فقال صاحبي لقد علمت الآن ان السعادة التى لها قانون محدود ثابت هى النهايه وان للانسان فى نفسه سعادة يمكنه استخراجها حتى تخفف عنه الآلام والاشجان عند حوادث الدهر وفاجعاته كالصبر عند فقد المال والحكمة في طلبه وتصبير النفس عند الملمات والحوادث الفاجعة وان علماء الامم الماديين كملاحى السفن فاولئك فى بحر الحياة المظلم وهؤلاء فى البحور المشاهدة ولعل بخار الماء (المتطاير من المراجل المرفوعة على النار فى تلك السفن الجارية فى البحار) يشابه اثارة الحكمة من العلوم المخزونة فى الدماغ حتى تسير بها فى بحر الحياة اللجى وكم شبه العلماء العلم بالماء ويقول فى الكتاب (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) وفسروه بالعلم أما الحكمة فهي تبخيره واثارته لننظم حياتنا الداخلية ولكنى أرى بعد ذلك للسفن رزايا ومصائب وللحكماء فى الحياة نوائب ومحنا فكم من سفن بخارية اصطكت بصخرة فانفلقت فغرقت أو لست تذكر السفن الحربية كل عام أهلكتها الصواعق وابادتها المدافع أولا تذكر سقراط الحكيم اليونانى مات قتلا أولا ترى أن الانبياء أكثر الناس نصبا وتعبا فقلت ان البخار في السفن وحكمة الانبياء والحكماء أدوم وأثبت ولن يصل أحد الى منتهى السعادة فان ذلك ليس بعالمنا على ان الانبياء والحكماء يرون ان هذه المحن وان أزعجتهم فلا تؤثر على جوهر سعادتهم والموت بالقتل كالموت على الفراش فالسعادة اذا كانت داخلة فهى مبدأ النفس أينما حلت أو ارتحلت

واذا امرؤ لم يرض حادث دهر كانت خلائقه عليه نوائبا

قال بعض حكماء الغرب لماذا يحزن الانسان كيف يألم وقد علمنا إن

هذا العالم يجرى بنظام يتبع الاحسن والاجمل فهو مستقر فى الرقى فمن آمن بالله فلاريب أنه يعتقد حكمته ورحمته وان مايصيبنا من المحن والرزايا باطنها رحمة وظاهرها عذاب كأنها تهدينا الى العلم بمعرفة مايحيط بنا حتى انك لترى الاحساس فى أعضائنا الظاهرة وبشرة جلودنا ولن تحس المعدة. والامعاء كاحساس الجلود فهذه هداية الى القصد من تعذيبنا فى الدنيا لنعلم مايحيط بنا ومن لم يؤمن بالله فهذا الناموس يسره ويريح فؤاده لانه يتبع الاجمل الاكمل فليكن الرضا مطلبه والعلم هدايته فقال صاحبي أنا الآن اكتفيت بهذا البيان فى سعادة الافراد. وأيقنت أن حياة الانسان الفاضل ذات حكومة عادلة تدبر أعمالها فى هذه الحياة وما عندنا من الاموال والجاه والصيت والامارة والعلوم فهى سعادات ان ادارتها تلك الحكومة الجمهورية النفسية وهى كلها شفاء ان بادت حكومتها وفسدت جمهوريتها وأضحى نظامها فوضى فيحصل الجزع والهلع وتندب نادبات الجهل وعلمت أن أكبر مصائب الانسان الجهل وسوء الاخلاق وان أرفع مناصبه الحكمة وحسن الاخلاق والاول كحكومة لادستور لها والثانية حكومة لها دستور وقانون فهل لك أن توضح الى الحكومات ونوابها ونظامها ونسبتها الى جسم الانسان التشريحى وكيف يؤلف مجلس النواب وماتمثيله وكيف تؤلف كتب تلك الامة حتى ينبغ منها رجال وهل يكون نوابها فوضى وكتبها أم لها قانون طبيعى وما رأيك فى التاريخ والشعر والادب أنا لفى حاجة لايضاح هذا ايضاحا شافيا فلاسعادة للمرء مهما كان فاضلا الافي حكومة منظمة سعيدة وهات يكن الاول فيه غدا

المقالة السادسة والثلاثون

(أخلاق الجمعيات الانسانية)

شرحنا فيما مر أخلاق الانسان وبينا سعاداته الرعناء وسعاداته الثابتة المستقرة ونريد اليوم شرح غرائز المجموع الانساني وأطواره وأحواله

جسم الفرد من نوع الانسان تركب من أعضاء ضرورية لحياته لا يعيش بعدمها كالقلب والدماغ أو حاجية دعت اليها الحاجة وان عاش بدونها كاليد والرجل أو مكملة تكمل أعمال حياته كالحاجبين والثديين أو مزينة لتزينه وتزوقه وترقشه وتحسن خلقه كدعج العيون والحور والغيد

تتركب الجمعيات من أفرادهم أعضاؤها وجمعية الاسرة من أعضاء هي ضرورية لقوامها وحياتها لا تكون بدونها كالابوين وحاجية كالابناء وكمالية كالخدم والحشم وزينة كالاصدقاء وجمعية البلدة من أسرات والكوره (المديرية) من بلدان . المملكة من قصبات . القارات من ممالك النوع من هؤلاء تهذب كثير من أفراد هذا الجنس البشرى . وصل كثير منهم الى منتهى الكمال كبارهم الانبياء أبناؤهم الحكماء ثم تهذب كثير من الافراد ارتقوا الى صف الملائكة نصبوا أنفسهم آباء للناس والناس أبناؤهم . فاضل أتباعهم بينهم وبين الملائكة كما فصله الشهرستاني فى الملل والنحل هكذا كان لماذا ؟ لان الفرد بسيط بالنسبة للمجموع . الفرد كذرة . المجموع كالطود (الجبل) العظيم يقطع فى أمد التهذيب أجيالا وأجيالا ويواصل المسير دهوراً ودهوراً الى أى حد وصل المجموع الى أى مقام ارتقي ؟ ما أخلاقه ؟ الجنس البشرى من حيث مجموعه وأخلاقه فى سن البلوغ لم يصل الى مرتبة الكمال رأت

الجمعيات الانسانية ان الفرد عاجز عن أشباع بطنه وستر جسمه فتعاونوا بالضرورة والحاجة الداعية بما أودع فيهم من غرائز مختلفات فهم في الغرائز مختلفون وفى الحاجة متفقون ثم تبادلوا ثمرات أعمالهم ونتائج قرائحهم فنشأ التنازع والتخاصم فكان التقاضي والمحاكمة فالجأوا الى رئيس وقاض وسلطان لجار هؤلاء فقيدوهم بالقانون وسيطروا عليهم بالنواب . هذه قصتهم وهذا حديثهم سار هذا النوع فى حياته على ما غلب على مجموعة صلاحا وطلاحا عدلا وظلما فكان منهم فئات وجماعات فاختلفوا طرائق وتميزوا خرائق وتباينوا مشارب فكان فيهم المدنيات الآتية

المدنية الضرورية اقتصروا على الضرورى من الحياة الدنيا لايذكرون الا الغذاء والرداء

المدنية الحسية أو مدنية الخسة يرون السعادة في اللذائذ الحسية والشهوات المحسوسات بالحواس الخمس

مدنية اليسار يقولون لاسعادة الا باكتناز الاموال فاما اللذات فذاك مالا طاقة لنا به

مدنية المفاخرة قالوا الحياة هى الكرامة والتبجيل والتعظيم والتفاخر

المدنية الجماعية قالوا لاحياة الا بجمع هذه الخصال

هذه المدن الخمس تسمى فى عرف الحكماء بالمدن الجاهلة

هناك فرق أخرى ثلاث أولاها المنحرفة التى نبذت الدنيا ظهريا كأنها لم تكن شيئاً مذكوراً

ثانيتها الفاسقة وهى التى طال عليها الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون لم يقم فيهم نابغون يرشدونهم سواء السبيل ولا حكماء هادين ولا أنبياء

مرسلين

ثالثها الضالة وهى التى قادها رجل يقول أنه أوحى اليه ولم يوح اليه بشيء كاتباع المهدى السوداني

هذه الجمعيات الثلاث ماحقات الخمس قبلها

هذه أحوال الامم الجاهلة والفاسقة والضالة والمنحرفة

قصدت الجمعيات أن تصل الى المدنية الفاضلة ولم تصل بعد الى درجة الانبياء لا ولا درجة الحكماء ولا صفات الشيوخ الجاهلين ولا الشبان العاقلين بل هذا النوع في سن البلوغ فيه مبادىء التعقل لم ترهم آباء للامم الضعيفة ولا أوصياء أمناء اللهم الا قليلا كخلفاء الانبياء

بما ذا تعامل الجمعيات غيرها واخوانها يسومونهم سوء العذاب يرغمونهم. يعلونهم بالغلبة والقهر

يسلبونهم أموالهم . يسيطرون عليهم يستعبدونهم بماذا ؟

بالاتحاد فيما يشتركون فيه من هواء وغذا وجو (وهي الوطنية)

بالمصاهرة يتصاهرون ويتناسلون بالازدواج

بوحدة التناصر وبأنهم كانوا أتباع ملك فيتخذون ذلك ذريعة للسيطرة والقوة أو بما به يتكلمون وهى وحدة اللغة أو يتخذون لهم عبيداً ثم يتخذونهم مقاتلة لغيرهم وهى وحدة الاستعباد ووحدة الجنسية أى انهم أبناء رجل واحد فأنواع القوة سبعة الاستعباد المصاهرة الوطن اللغة المحالفة اتباع ملك جامع لهم النسب هذه قوى الامم وذرائعها على اختلاف طرقها وتباين مشاربها ما كانوا الا جهلاء أو فاسقين أو ضالين هذه الصفات السبع غرائز الامم الثمان اللاتي رسمناهن اليوم فتدبرهن تر المجموع يصل

ستا وخمسين بتكرار تلك الثمان على مقتضى أحوال هن السبع أنظر نظرة أخرى ترهم يعاملون الجمعيات الاخرى على مارسمه حكماؤهم وخطه فلاسفتهم. يقول فريق الدنيا دار ليس بعدها دار ومن طبيعة الموجودات حب الانفراد نرى هذا الخلق فى الحيوان الاعجم يفترس غيره لا لمنفعة فيه وانما يروم الانفراد بالوجود وهذا الخلق ظاهر فى النمر يقضى على الفريسة باعدامها وان لم يردها لاشباعه

ويقول آخرون طبع المخلوقات الاستئثار بالمنافع . اقتفاء الثمرات أينما حلت هذا الخلق ظاهر فى الزروع والاشجار والسباع تمتص جذور الاشجار مايحيط بها من الارض والماء والهواء والنور والفحم في الهواء فنحن نستولى على غيرنا لحظ أنفسنا ولا نقضى عليه لغرض أعدامه فنحن أرقى من ذوى الاخلاق النمريه

يقول هؤلاء : ان عدلنا مع غيرنا كان العدل اضطراراً مادامت لهم قوة وشوكة فان أصاب جسمهم مرض غدرنا بهم ونقضنا المواثيق وخنا العهود. القانون والعدل اذا تساوت القوتان فان خف ميزانهم انقضضنا عليهم فاقتنصناهم وازدردناهم وفريق يقول الحرب مع الانسان عيب وعار وجهل وظلم وتنزل عن الانسانية بل نرى فى أخلاق العجماوات مايرفع بأنفسها أن تحارب أو تأكل أبناء جنسها فمن الحماقة وسوء الخلق قتال الانسان واغتياله وانما يحاربون الحيوان ويقتنصونه ويتسلطون على الجماد ويأكلون نباته وقالت طائفة رابعة عار علينا قهر الانسان وقتل الحيوان وانما يتعاون كل حى على استنبات الارض وأكل ثمرها وهؤلاء هم البراهمة « مجموع الانسان ظلوم جهول . جمعياته لم تكمل . نظامه مضطرب » ان الانسان لظلوم كفار أدني

درجاته مشاكلة النمر وهى الوحشية القصوى يقتل الرجال الرجل لمشاركته له فى مطلق الوجود ولتبقي له الحياة منفرداً وهى درجة صبا نوع الانسان يتلوها أعدامه للمنفعة وأعلاها وأفضلها السلام العام في العالم الانساني حين تكون الامم العظيمة آباء الضعيفة يرشدونهم ويربونهم حتى يبلغوا الحلم ثم يكونون أمثالا لهم وأشكالا

ذلك الوقت هو الذى أشار له الانبياء ورمز له بقوله والله يدعو الى دار السلام هو فك طلسم المهدى ورمز نزول عيسى عليه السلام هو مايخبر عنه حكماء الامم والفلاسفة

العالم سائر الى تلك المدنية هاهو يسرع فى خطاه ولكن لن نصل اليه فى حياتنا وانما هي اليوم خيال وكل أمة تركت نفسها للمصادفات العمياء فسحقاً لها وبعداً تطحنها الامم وتضرسها بانيابها وتدوسها بارجلها وتكون فى اللقاء لها طحيناً ولا مناص الآن من وضع الامة على قانون نظام الجسم البشرى وتشريحه كما سنشرحه

المقالة السابعة والثلاثون

(نظام الامة كنظام الجسم البشرى)

قلنا ان العالم الانساني جميعه جسم واحد أعضاؤه الامم وهل يصلح المجموع الا بصلاح أعضائه . الاصلاح سريع اليوم فى الامم جمعيات ثلث النوع البشرى لهم نواب هم فى داخل بلادهم متحابون متضامنون متآلفون الثلث الثاني كالصين والفرس موشكة جمعياتهم أن يتم نظامها . يبقى الثلث الاخير من الهيكل الانساني فان قصروا وتوانوا فمما قليل يصبحون فريسة

المفترسين وجزر القانصين وطحن رحيات الباغين يكونون غذاءهم يفترسونهم يأكلونهم كيف لا والانسان العام لم تكمل فيه درجة الانسانية هم جميعاً دروينية (على مذهب داروين) واياك أن يخطر ببالك مذاهب البراهمة أو مذاهب الرحماء القائلين برحمة نوع الانسان فتلك أقوال تكتب على صفحات الهواء والمتمسكون بها أذلتهم الامم وسامتهم الخسف فالغالب اليوم من الامم كلهم دروينية يبتلع قويهم ضعيفهم نعم الانسانية ملأت الفراغ ولكن باللسان . آخر ما وصلوا له تظاهر باللسان وملق من ورائه جشع وظلم . يرمز له بابي الهول أقبل بوجه امرأة ذات جمال ومن تحته جسم جسم سبع ونسمع فى الاقاويل السماوية ان لله ملكا نصفه من ثلج والنصف من نار اشارة لجمع المتناقضات وهذه الامم تناقض أقوالها أفعالها

أخذت الجمعيات تتظاهر بالاصلاح تعد بالخير ترشد للمعروف كأن الانسان علم انه يوما ما سيكون أبا رحيما فتظاهر به وان أضمر الطمع والشره هذه حال الدنيا هذه هى السبيل . الامة النائمة الغافلة ستكون فريسة تكون غذاء طعمة لغيرها ذهبت أمريكا . فنى جيلهم هكذا سيصير الغافلون

صلاح الامم ونظامها لا نفسها وكثير منها بلغ الكمال وسيبلغ الا كمل ولا يصلحون من عداهم الا بسياج ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب هم على مذهب داروين الى الآن لم يعمل قوم بتعاليم المسيح من رحمة الانسان ولا برهمة من رحمة الحيوان والانسان ماعرفت الانسانية ما وصل اليها المجموع قد وصلها الانبياء والحكماء فهدوا غيرهم والى أدناها الصالحون الذين يذرون المعاصى ولا ينفعون والناس بين هؤلاء درجات بعضها فوق

بعض. الجميات البشرية غادرت أخلاق النمر وهاهى الآن أخلاقها أسدية نباتية تستأصل غيرها لا نفسها

كمل نظام السموات سارت الكواكب فى أوقاتها المحددة أشرقت الشمس وأفلت بحساب دارت الارض كل أربع وعشرين ساعة دورة بحساب منظم تهادى كالعروس حول الشمس حملت حملها وفت وعدها أرضعت أبناءها الحيوان والانسان

قامت الجبال بما خلقت له خزنت الثلج والماء وعبتهما فى الانهار بقسطاس مستقيم كما أوحت اليها الحرارة الشمسية والانسان لا يزال يتخبط فى جمعياته وهو جهول ظلوم يقول خالقه (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال) وهى قائمة بما فرض عليها (فأبين أن يحملنها وأشفقن منها لان العقل والحكمة والنبوة تتنزل لضعاف العمل الناقصين وهؤلاء هن الكاملات فيما استعددن له (وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) مشى على مذهب داروين ولم يصل بعد للانسانية الحقة والاخوة حتى ينعم باله كاخيه الحيوان الذى يعده أدنى منه

الانسان ظلوم جهول يرى القذاة فى عين غيره ولا يرى الخشبة في عينه نظر الطاحونة الهوائية . الشعيرة تدور على ناموس الهواء المتغير فاستبدل بالنار حتى يطحن انى تشاء لا ماتشاء الرياح التى لا قانون لها جعل للسفن اداره ثابتة في أنفسها حتى تضارع السمكة الجارية فى الماء ترسو وتطفو كالسمكة كل هذا صنعة الانسان وكثير منهم يجهلون هذه الحقيقة فى أنفسهم ولا ينشئون لهم قوة من أنفسهم تدير أعمالهم كنواب ينوبون عنهم

ولما فرغت من هذا المقال وصاحبي مصغ الي قال أرجو انجاز الوعد

بالبيان الشافى عن الامم ونظامها وكيف تؤلف كما يؤلف الجسم فقلت نظام نواب الامة ناموس كناموس نظام الجسم

لابد لنا أن نقدم مقالا فى التشريح حتى نقيس عليه نواب الامة التى هى عضو من الجسم العام الانساني . فقال صاحبى

وما لنا وللتشريح التشريح فن الاطباء يدرسونه ليميزوا العلل والامراض وسيرها فأما نظام الامة فمالها وله

فقلت علم التشريح علم عام لا ينبغى أن يجهله الاطفال فضلا عن الرجال علم التشريح ألزم فى المعرفة من علم تخطيط البلدان ومن علم غرفات المنزل أنفسها

علم التشريح يجب تعليمه للاطفال عامة بنصب هيكل انساني لهم فيرونه ويدرسونه اجمالا في يوم ويدرسه الحكيم أفضل دراسة ليسمو نظره ويمعن الطبيب فى دراسته أيما امعان ويتعلمه عالم الدين ليكون برهانا على حكمة الصانع وجلاله ويقرأه علماء العمران فينظمون المدن ويؤلفون مجالس النواب كتأليفه وليسوا يمعنون فيه امعان الطبيب فتراهم يتأملون

الانسان مركب من رأس وقلب ورئة وكبد ومرارة وطحال وكلية وأمعاء ومعدة وصدر وبطن وأعضاء أخرى وحواس وأعصاب فمن سمع هذه الاسماء وهم انها فوضى لانظام لها ولا ترتيب ويظنها مصادفة حمقاء وأوضاعا خرقاء والمتأمل يعلم ان القلب مركز الدورة الدموية تدور فى الجسم كأن القلب طلومبة تجتذب الدم وتعطيه ماصة كابسه والدم يجول ليلا ونهارا لاينام ولا يفتر والقلب يمتصه ويمجه فهو القنطرة الدائمة الحركة بلا محرك تراه يحمل الدم حرارة لطيفة تسمى الروح الحيوانية تصل للدماغ فتلطفه

فيعتدل وهناك تسرى تلك الروح فى الاعصاب سريان الكهرباء ثم ان الحواس الخمس تميز ما يرد عليها من خارج فتكون اذ ذاك حركتان أحدهما من الخارج الى الداخل فتصل للدماغ والاخرى من الداخل الى الخارج فتحرك الاعضاء من اليدين والرجلين للطلب والهرب والاول أعصاب الحس والثانية أعصاب الحركة وكلاهما مغروس في الدماغ أو فى النخاع الشوكى الممتد فى فقرات الظهر وهى ٢٨ وأكثر أعصاب الحواس في الدماغ للطفة ودقتها واكثر أعصاب الحركة تنبت فى فقرات الظهر من أعلاه وأسفله ترى متميزة بالوانها قوية متينة ذات مادة شحمية كربونية . الاعصاب المتفرعة من الدماغ والنخاع الشوكى كشجرة أصلها ثابت فى سماء الدماغ وفروعها كثيرة في أرض الجسم وتلك الفروع قسمت على الاحساس والحركات

لعل الانسان شجرة مقلوبة فى الاعلى جذورها فى الاسفل أغصانها تبصر شيئا أو تسمعه فيحمله البريد وهو من أعصاب الاحساس اللطيفة فيصل الخبر الى الدماغ فى لمح البصر أو هو أقرب فيأمر الملك المدبر هناك فى قصر (يلدز) الدماغ فيصل بريد آخر فى أعصاب الحركة آمرا لها بالعمل كما قرره مجلس الاعيان وهم الملأ الاعلى الذين يتشاورون في الدماغ وهي قوى العقل من المخيلة والمصورة والعاقلة

قلنا القلب منشأ الدم والحرارة الغريزيه ونقول أن القوة العاقلة شيء وراءهما جهلها الطبيب وما يخصه الا الروح الحيواني السارى فى الاعضاء ثم الرأس له وزيران القلب والقوة المولدة في الشخص ويخدم القلب الكبد والرئة والكبد يجذب خلاصة الطعام والشراب من الامعاء فيطبخ فيه وكل مطبوخ

فله أربعة أشياء عكر أودوردي وهو أسفله ورغوة أعلاه وماء يتخلله ومطبوخ خالص فهكذا الكبد. يطبخ الدم وعكره هي السوداء المتجهة للطحال على قول القدماء وماؤه هو المنصب في الكليتين وخالص المطبوخ هو الدم الجاري الى القلب والرغوة هي الصفراء المتجمعة في المرارة ثم الامعاء كانوا منا خادمة للكبد وهي مخدومة بالمعدة وهي بالمرىء والفم واليدين لادخال الطعام هؤلاء يخدمن القلب من جهة ادخال الدم اليه بواسطة الكبد وللرئتين (الفشتين) وهما في الصدر عمل آخر للدم فيقبلان الهواء ليصلحه أثناء جريه

ثم أن القوة المولدة جعلت في جسم الانسان ليخلف الشخص آخر مثله اذا مات ليبقى النوع الانساني حيا معمراً للارض

وملخص هذا أن القلب يمتص الدم من الكبد المخدوم بالمرارة والكلية والطحال على رأى وكذا الامعاء ثم الرئة تنقى الدم بهوائها والانسان فيه قوة مولدة ليكون النوع باقيا

هذا اجمال ما أردناه ونشرح فيما بعد بالتفصيل معنى قولنا نظام الامة كجسم الانسان فأمعن في هذا ليتضح لك المقام

المقالة الثامنة والثلاثون

﴿ نظام الامة كجسم الانسان ﴾

(ودرس في علم اليابان)

اجتمع زارع وصانع ومهندس ورب منزل وملاك وتاجر وقائد جيش وطبيب وحكيم وعمراني ثلاث عشرة كاملة ضمهم مجلس علم فقال كل منهم لنتخذ جسم الانسان مثالا يكون عبرة لمن بعدنا فقال الزارع هذه الانسانية

زارع الجسم حقله وغيطه والاعمال والاخلاق والعلوم والآراء زروعه وسروره والذكر الحسن وتخليد عمله وحب الله له غلاتها وثمراتها

قال الصانع جسم الانسان دار صناعة واحدة رتبت درجاتها نظمت قاعاتها فيها تصنع أعمال عجيبة تحيل الاطعمة الى مادة كقوام اللبن . فدم مسود فمحمر فلحم فعظم فعروق فسمع وبصر وشم وذوق ولمس تصنع هذه الأعاجيب بصناع ماهرين وعملة قادرين وحراس مسيطرين لا يعصون مدير دار الصناعة ويفعلون مايؤمرون

قال المهندس بل هؤلاء العمال لمهندسون ماهرون منظمون قادرون هندسوا أعضاءه وزينوا أشكاله وزوقوا بنيانه فترى قامة الانسان ثمانية أشبار بشبره وهي عشرة اذا مد يديه الى أعلى واذا مد يديه الى الجانبين كان عرضه ثمانية أشبار كطوله . ثم اذا مد يديه الي أعلى كانت السرة في منتصفه وطول وجهه كطول قدمه وهكذا تتبع علماء الهندسة جسم الانسان فالفوه جمعية هندسة جميلة منظمة لحكمة عجيبه خرت لها الاعناق سجداً وفهموا قوله تعالى (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم)

فقال رب المنزل الجسم دار والصدر والبطن والرأس وبقية التجاويف قاعاته وغرفه وقوى الجسم خدمه وحشمه والروح رب المنزل فقال الملك . العقل ملك والنفس وزير والجسم مملكة العقل يأمر النفس والنفس تربي الجسم فلا تزال تربيه ويرقى بمزاولة الاعمال وكلما زاد عملها كملت اخلاقه وقربت من ربها حتى تصير مطمئنة كالعقل وتفارق الجسم وتستقل بالامر والوزراء يقلدون الملوك حتى ينالوا مراتبهم

فقال التاجر جسم الانسان سفينة والنفس ملاحها والبحر مصائب الدهر

وحدثان الزمان وويلاته والامتعة والبضاعة المحمولة انما هو عمل النفس والساحل الموت والمدينة المرادة للتجارة ووراءه فيها حكم عدل يقسط للنفوس بميزان عدل لا يخس شعيرة قد اشترى منهم أنفسهم واموالهم فأحبوه وأحبهم

فقال قائد الجيش الهيكل الانساني فرس والحياة الميدان والناس المتسابقون وقصب السبق هي المعالى

وقال طبيب الجسم مريض والعقل طبيب والمعاصى أمراضنا والطاعات دواؤنا أو الاستبداد داؤنا والحرية دواؤنا فقال الحكيم عجباً لهذا الهيكل الجسماني المنصوب والجوهر المكنون المنير أراه مبنياً من النور مصورا من الحكمة مزدهرا بالجمال مملوأ من العرفان هيكل الانسان وروحه كمشكاه (فتيلة) فيها مصباح المصباح داخل زجاجة تلك الزجاجة مصنوعة من كواكب درية لا رملية وما هذه الروح المشتعلة فى الجسم الا نور على نور نور العقل والعرفان على نور نظام الابداع والاحكام اني أرى فى الدنيا عجبا أرى الارض أسفل المخلوقات والماء يعلوها والهواء يتلوهما والنور يشرف عليهما ومن ورائهما قوة لا ترى تحيط بالجميع فتعجبت اذ الفيت هذا الهيكل المنصوب فيه غرف من فوقها غرف مبنية نظمت على هذا النظام البديع العجيب ألست ترى الطعام والشراب وهما من الارض والماء فى أسفل الطبقات كما هما فى طبعهما فهكذا فى وضعهما فى طبقة البطن وتعجب من الهواء تراه في الغرفة الوسطى (الصدر) جلس فى الرئة لنقاوة الدم ثم ترقى الي سفير ورسول فى الخياشيم ومخبر ومعلم وأستاذ ومرشد فى الآذان ثم تولى النور أمر العلم فواصل العينين وكانتا فى المقدم أعلى الجسم كما هو وضع النور من أعلى ثم تأملت فوجدت كل حاسة لها ماتستمد منه من الخارج هذه من

الارض وهذه من الماء وأخرى من الهواء وأخرى من النور مرتبات عجيبات ورأيت الدماغ فيه أشرف الحواس وهو العقل فحكمت حكماً عادلا ان استمداده من عالم أعلى من الهواء والنور وهو العالم الالهى وكأن هذا شعاع منه كما للشمس شعاعها وناسب كل ما يحس محسوسه

رأيت العقل في القبة العليا في أشرف مكان وهى الرأس ولم أر حاسة مما تحته الا ولها عالم تستمد منه يشابهها ويضارعها فقلت انه لشعاع من نور الله عز وجل دبر هذا الهيكل الانساني

فقال العالم العمرانى جسم الانسان حكومة منظمة والدماغ حكومتها . فى الرأس معاطف وتجاويف مفصلة مقسمة لكل قسم من العلوم جزء مقسوم مفصلة تفصيلا عجيباً قسمت العلوم والعواطف والاخلاق والاحوال والادراكات على تلك المراكز الدماغية تقسيما عجيبا حتى لو أتلف أحدها ضاع ما اختص به من العلم والخلق وما هذه القوى فى الدماغ الا صدى صوت الجسم صحة وفساداً غالباً . نواب الامم كأعضاء الجسم لكل خاصة لا يشركه فيها سواه فلن يصلح القلب لهضم الطعام كالمعدة ولا المعدة للتصور والعقل كالدماغ ولا أعصاب الحس والحركة للمشى كالرجل ولا الكبد لتوزيع الدم كالقلب ولن تصلح المرارة لغير الصفراء ولا الكلية لغير الماء الواصل اليها لو كانت أعضاء الجسم نوعا واحداً لم يكن انسانا ولا حيوانا بل كان عضواً واحداً لم تكن فيه روح لم تكن فيه حياة هكذا الامة اذا كان نوابها منتخبين بالمصادفة العمياء بالبخت أو بالغنى فكبر عليها أربعا لوفاتها فقد ماتت من الوجود كل منهم مختص بعلم ينفرد به فيكون منهم الطبيب والمهندس والمالى وعالم الزراعة والفيلسوف وقائد الجيش وهكذا وليكونوا

مطلعين على أحوال أوروبا

مجالس النواب اذا خلت عن الاختصاصيين كانت كتلة لحم على وضم اذا فقد الطبيب النطاسي أو المهندس الخ أضحت كجسم بلا كبد بلا عين بلا أذن جسم ناقص مريض نقص العلوم. اصطفوهم من ذوى العلوم والقوة. ايكن الاعلم هو النائب والا فلا معنى لاشباح بلا أرواح الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير احذروا الخشب المسندة اذن ستضحكون القوم عليكم يزدرون بكم يقولون لا يعقلون وانهم اذن لصادقون فلا تلوموهم ولوموا أنفسكم لعلكم تعلمون فتهتدون

هاأنت قرأت جسم الانسان وتركيبه وفهمت وضعه وأحكامه فليكن نواب الامة كالقلب والرئتين والكبد والطحال كل له مرتبه لا يشركه فيها سواه

علمت أن للانسان شعوراً وعقلا وفكراً ومصورة وذاكرة في أماكن معلومة محدودة فى الدماغ وديوانا عظيما وحكومة مسيطرة تلك هى صدى صوت الاعضاء ان صلح الهيكل وقوى واشتد ساعده انتظمت حركاته وسكناته وان ضعف الهيكل أو مرض ضعف الشعور ومرضت قوى الدماغ فكأن المعقولات صدى صوت المحسوسات هكذ الامة متى اتصف نوابها بالعلم والحكمة اعتدلت حكومتها اذ هى صدى أصواتهم وان يكونوا جهلاء أو من نوع واحد ظلمت الحكومة وجارت اذ لا كابح للجامها ولا لجماحها اذا جمحت ولا مجريها فى عملها ان هى حرنت ولا موقفها عند حدها ان هى جاشت ورغت

لاعبرة بالهيا كل المنصوبة وأصنامها المعبودة. أتدرى لم انتخب الناس المظاهر وهم لا يميزون الخبيث من الطيب ولا العلم من الجهل؟ ذلك انه غرس

فى الفطر البشرية ان الغنى مناط القوة والعلم والعقل وهذا حق فالمال وسيلة للتعلم والفهم في الامم الراقية وهو مناط النوم علي الفراش الوطىء في الامم الخامدة

وكأن الناس اذا اصطفوهم فيها يقولون لهم كونوا أهل كمال وعلم كما عكف الدجالون على الرمل يقعدون في كل مرصد ينادون الناس هلموا نخبركم الغيب كانما ركب في فطرهم أن سيصنع منه الزجاج وتصاغ منه المناظر المعظمة والمقربة فيرصد أبعد الكواكب ويتميز أصغر الذر وكما بكت الباكيات وناحت النائحات على الاجداث (القبور) كأن أولئك أدركن أن للارواح وجودا وانهم يوماً سيبعثون ويقومون فهكذا أولئك المنتخبون (بالكسر) لمن لايعلمون لعلهم وقر في نفوسهم ان هؤلاء سينفخ فيهم الروح ويبعثون من مرقدهم ويقولون هذا ماوعد الكاتبون وانذر الصادقون وصدق ذان المنتخبين

المقالة التاسعة والثلاثون

﴿ نظام الامة كنظام جسم الانسان ﴾

طفقنا اليوم نبحث عن فلاح الامم ورقيها ونظامها بناموس أجلى وتعبير أوضح اذ قال محدثى قرب لى مثل جسم الانسان المضروب للامة أوضح لى ماقد مضى ربما كان عسر الفهم فقلت

تصور صرحا مبنيا مشيداً مرفوعا على عمودين صاعدا فى الجو فوق العمودين طبقتان مبنيتان متلاصقتان كأنهما غرفتان يفصلها سقف مرفوع

ويعلو الغرفة الثانية مجار متجه لاعلى داخله سلم يظهر للناظرين كأنه عمود تعلوه قبة عجيبة تحفها المزارع النضرات المدهامات فى الغرفة السفلى من تينك الغرفتين عملة وصناع وشغالون ومصانع ومعامل وأفران وعجانون وخبازون وهم أجمعون يحضرون أطايب الطعام من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ويجهزون ذلك ويرفعونه الى الطبقة العليا فوق السقف فيتناوله قوم أشراف عادلون ويوزعونه على سكان الصرح كله وفى القبة العليا الملك وجنوده وأعوانه وعمال البريد والكهرباء والتلغرافات وهو مسيطر على أولئك العاملين والصانعين

الطبقة السفلى البطن وما فيه من القوى والآلات يصنع الطعام فيلقيه للكبد ثم يرفعونه جميعا الى القلب فى الطبقة الثانية وهى الصدر فالكبد يوصله اليه والرئة تنقيه وتخلصه والقلب يزجيه ويرسله ويوزعه في جميع الجسم بقدر معلوم والطبقة العليا فيها العقل وقواه من الحس المشترك والخيال والمصورة والذاكرة والحافظة وهم وزراؤه وأعوانه وجنوده .

وتحيط بتلك القبة وهى الرأس جنود وحراس وهن الحواس الاربع السمع والبصر والشم والذوق وترى تلك الاعصاب تحت امرة الملك يرسل كهرباءها من أماكن مختلفات من الرأس أو فقرات الظهر فيأمر وينهي والاعضاء جميعا له مطيعون . هكذا فلتكن الامم ونظامها ليكن النواب حواسها ليكونوا أعضاءها العاملة القوية ليكونوا من ذوى الاختصاص بفنون وعلوم . العقل ووزراؤه في الرأس ناقصو المعارف اذا انقصت حاسة في الجسم اذا لم يكن سمع فهم جهلاء بعالم المسموعات هكذا تكون الحكومة جاهلة أحوال الامة بمقدار جهل نوابها كثرة وقلة . فقال صاحبى أريد مثلا أوضح

من هذا وليكن من الاعضاء الظاهرة فقلت

ان الحواس الخمس مرتبة ترتيبا طبيعيا هكذا اللمس يعم الجسم واختصاصه باليد أكثر والذوق ومجلسه اللسان . الشم ومجلسه الانف . السمع ومجلسه الاذن . البصر ومجلسه العينان ثم بعدها العقل ومجلسه الدماغ أتدرى لم رتبت على هذا النسق لم وضعت بهذا النظم العجيب . ذلك أن اللمس يقابل المواد الغليظة من الارض وما عملت فكان عمله عاما للطيف والغليظ فكانت مرتبته سفلى في اليدين وعمل القوة الذائقة فى الطعام كالحلاوة والملوحة وهى خلاصة المادة فكانت حاسته أعلى مما قبلها العامة فى سائرها ثم الشم فى الانف يقابل الهواء المتخلل بمراد من ذوات الروائح فكان ألطف وفى مجلسه أعلى ثم السمع فى الاذن يقابل موجات فى الهواء كامواج الماء تحدث رنات تصل للعقل فيعرف ثم البصر وأعماله فى نور جميل خالص أرق من المادة وأبهج وأجمل آت لنا من كواكب بيننا وبينها ملايين الاميال وكان فى المقدم زينة وجمالا وبهجة وفي الرأس العقل ولا ريب ان له اتصالا بما فوق النور وهو الله الذى يأمرنا بهذا العقل ان ننظم مدننا كما صنع هو مدينته يأمرنا أن يكون أمرنا شورى بيننا يأمرنا أن يكون نوابنا من كل طبقة من التجار والصناع والفلاحين والمهندسين والاطباء والماليين يأمرنا بذلك يقول لنا بهذا الرمز المصنوع هذا الهيكل العجيب الانسانى هذا السر المدهش يقول هاهو هيكلى الذى صنعته ووكلت به الحواس المشرفة على كل عالم من تراب وماء وهواء ونور حتى وصلت الي يقول هكذا فلتكن نوابكم . يقول فى الكتاب (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) هكذا

صنع ربكم أجسامكم وهكذا يخاطبكم اذا فقدنا حاسة الشم فمن ذا يخبر العقل حتى يحترس من مادة ضارة بنا ؟ اذا حرمنا البصر فما حال حياتنا هكذا مجالس الامم تجهل الحكومة فيقل عرفانها بمقدار ما نقص من أعضائها عجبا! جاء النساء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبن منه يوما وقلن قد غلبنا عليك الرجال يارسول الله نخصص لهن يوما ووعظهن .ورد في الكتاب أن المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الخ فقرن النساء بالرجال . لو كان رسول الله حيا اليوم وسأله الامم الغربيون عن حقوق النساء في مجالس النواب لمنحهن بعد سؤالهن كما منحن حقوقهن في التنزيل السماوي ولكن فيما يخصهن من الشؤون فلن يتنزلن عن حاسة اللمس الملامسة لكل شيء فاذا كان النساء يكاد يكون لهن حقوق أفليس الخاص من كل طائفة لهم حق الاشراف على حكوماتها

قال صاحبي قد فهمت هذا من الهيكل الانسان واني أريد ايضاحا أجلى من ذلك

[illegible]

[illegible] مصورة يبينونها للناس لتكون أجلى بيانا وأوضح مثالا وأبين قولا وأثبت وصفا أرني هذا بمثال محسوس أراه بعيني فان جسم الانسان والنظر فيه يحتاج لدقة وعنايه وان كان ما أثبت به يفهمه الاذكياء وان لم يكونوا من الدارسين . فقلت خذ المثل الذى ضربه بيدبا الفيلسوف من نحو ألفين ومائتى سنة شكل حكومة وكونها من فأرة وسلحفاة وغراب وظبية تتآلف وتتعاون على نظام جمهورية واحدة وحكومة منظمة عادلة [illegible] والنظارات [illegible] في السياسة

والفأرة بتنظيم الجند عند الحرب والسلحفاة باصلاح شؤونهم العامة عاشوا على ذلك حينا من الدهر حتى اذا فاجأهم الدهر بحوادثه وأناخ عليهم بكلكله ساق لهم صياداً فشد وثاق السلحفاة شداً وثيقاً فجمع اخوانها الثلاث أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا : ليجرين الغزال وليطمع الصياد فى اقتناصه . ليرفرف الغراب ويحلق فى الجو فليكن رسولا بين السائس وهو الظبي وبين قائد الجند وهو الفأر هكذا صنعوا وهكذا اغتر الصياد فأسرع يعدو وراء الظبي وقرض الفأر بأسنانه حبال القانص وأخبر الغراب الظبي فآب الصياد بخفى حنين . هذا المثل ضربه الحكماء سلوة للاطفال مثلا للعقلاء ان نظام النواب من ذوى الخصائص المختلفة والآراء المتقدة ولابد من العلوم الراقية والا كانوا هياكل المصورين وزينة الجالسين وضيعة المتنخبين

فقال صاحبي اذا لم تؤاف الامم على هذا المنوال فماذا يصيبها ؟ قلت ترق العلائق بينها وبين الله

المقالة الاربعون

قطع العلائق بين الامم الخاملة وبين ربها

سألنى محدثى يقول ها أنت وضحت لنا جسم الانسان ونظام الامم على ناموسه وسير نوابها على منهاجه وان لكل منهم خاصة لا يشركه سواه . حدثنى أسعدك الله ما حال الامم اذا نبذت هذه الحكم وغادرت هذا النظام الى ماذا مصيرها فقلت

لتعلم ان الله جل وعلا يكبر أن يسدى النعماء لمن لا يديرها أو يعطى

الفضل لغير أهله فقال هذا قول غامض فسره فقلت

ألم ترانا ذكرنا أن هيكل الانسان محاط بمواد من جهاته است فكان للمواد الجامـدة حاسة اللمس وللمطعومات الذوق وانفتات المادة المخالطـة للهواء الشم ولامواج الهواء وهى الاصوات السـمع وللضوء وهو أدق الاشياء وأرق المخلوقات وأبدع الموجودات حاسة البصر ولم يبق الا العقل في الدماغ متصلا بالقلب شعاعه مدير الهيكل الجسمانى بنوره متصلا بالله مبدؤه أودعه هذا الشعاع ليدير أعماله بنفسـه فيستمد منه قضايا الحـكمة ومسائل الحساب وفروع الجبر وعجائب نواميس الطبيعة ويسوس أمور الدولة وتتجه العقول جمعاء الى نظام المدينة فيمدهم بمعونته كلما عملوا عملا

اذا نبذوا الفكر ظهريا وقالوا لرجـل تقى أو فاجر أو وسط انظر فى أمورنا ادع لنا ربك دعنا فى شهواتنا لنعكف على نسائنا وأولادنا وزروعنا ونأكل كما تأكل الانعام وأنت أيها السيد العظيم والاب الـكبير نظم مدننا انظر فى شؤوننا أمدك الله بمعونته وزادك نوراً وهداية انمـا نحن أطفالك وعيالك وحشمك وخدمك أيها السيد عليك الفكر وعلينا العمل لنا عقول ولـكن لا نفكر بها لنا اسماع ولا نسـمع بها ولنا أبصار ولـكن لا نبصر بها الله أعطاك عقلا غير عقولنا أليس امثال هؤلاء أجـدر بقطع صلاتهم من ذلك النور الفائض والـكمال والجمـال والبهجة يقول الله وكل شيء عنـده بمقدار وان من شيء الا عنـدنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معـلوم هؤلاء غادروا الفكر وفروا منه فرارهم من الاسـد فأولئك حقيق بقطع دابر عقولهم والحاقهم بالعجماوات ويفيض الله مانقص من مواهبهم على عقول ساداتهم جزاء وفاقا انهم كانوا لا يعرفون حسابا وكذبوا مرشديهم كذابا وكل شيء

أحصيناه الله كتابا فليذوقوا فلن يزادوا الا عذابا أولئك يسامون سوء العذاب ومأواهم جهنم الذل في الحياة الدنيا وندامة الخزى ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعمل الجاهلون

فقال كيف ينال ساداتهم مافضل من عقولهم فقلت

الله لا يعطى شيئا عبثا أترى للشجر سمعا وبصراً أم للبهائم حسابا وهندسة قال كلا فقلت أليس من العبث ان يعطى الثور فن الهندسة والجبر قال نعم قلت هكذا من العبث أن تنال الامم الناعمة عقولا واسعة مدبرة وكلما دبر ساداتهم كبرت عقولهم فكلما أدبرت عقول العبيد أقبلت عقول السادات فتنازل النسبة فى الاولين كنسبة تصاعدها فى الآخرين ولذلك تسمع الناس يقولون عقل الرئيس بمقدار المرؤوسين ولهذا نور من العلم وقبسة من الصحة فقال أرني مثالا واضحا من الطبيعة المشاهدة

فقلت أرأيت الحيوانات الوحشية كالاسد والنمر والفهد والفيل والطيور الجارحة وهكذا الغزلان الشاردة وحمام السماني المسمي بالسلوى وبالجملة كل ماطار فى الهواء وجرى في الخلاء وغدا وراح في العراء ولم يسيطر عليه بظلم الانسان فتلك لها من الغرائز والحيل والاعمال العجيبة مالا يحصره كتاب العالمين

كم روى الراوون حوادث من حيلها ودهائها ومكرها وعلومها ومعارفها وهندستها مما تخر له الحكماء سجدا ولقد وصل العنكبوت لاكتشاف قانون ضغط الهواء فغاص البحار وبنى له بيتا لا يناله اكبر ملك فى العالم بنى بيته مثبتا بعلاقة مثبتة في الارض مفتوح من أسفله فامتلأ ماء بالطبع اذ هو تحت الماء ولكنه خلا أعلاه من الماء لامتلائه هواء فهو

كقبة وسط البحر امتلأت ماء وعند قمتها من داخلها موضع مفرغ من الماء امتلأ هواء يعشمش فيه ويبيض ويعيش قرير العين آمنا فى سعادة وقصر لم يحلم به ملك من ملوك الارض اذا علمت هذا فهل رأيت للغنم والبقر والحمير والدجاج والاوز من العجائب ما لتلك الحيوانات أم لحمارنا ما للحمار الوحشي من الجمال وكبر النفس والعز . أم لعنزنا وشائنا ما للغزالة من البهجة والجمال حتى تغزل الشعراء وشبهوا بهن جمال الغانيات فى غيدهن ورشاقة قدودهن

فقال صاحبى وما سبب ذلك فقلت ان السبب ان الحيوانات الوحشية أدارت أمورها بأنفسها فأعطاها الله قوة منه وأمدها بالرأى جريا على القاعدة

فيمكث الماء يبقى آسنا وسرى البدر به البدر اكتمل

طيور الماء طيور الصحارى والقفار الحيوانات الكاسرة الحيوانات الوحشية كلهن متوكلات على الله تغدو خماصا «أى جائعة» وتروح بطانا فأعطاها الله من فضله فأما الدجاج والاوز والحمير فقد رقت صلتها مع ربها وعكفت على سيدها الانسان ووكلت له تدبير انفسها فحرمت نور العرفان، والذكاء والحكمة فهل نسجت نسج العنكبوت أو راغت روغان الثعلب أو حفرت السراديب كالفأر عجزت عن ذلك كله فاذلها الانسان واستعبدها وزاد فى عتوه ولو انها بقيت فى خلواتها متمتعة بحريتها لظلت كاخواتها السارحات فى الخلاء موفرة الذكاء شديدة البأس

احتال رجل انجليزى مركب حمار الحبشة فى مدينة لندن فما أمسى المساء حتى قضى الحمار نحبه عما أن يذل وكأنه أنشد

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز طعم الحنظل

ماء الحيـاة بذلة كجهنم   وجهنم فى العز أطيب منزل

مثل الامم الخاملة المدبرة (بفتح البـاء) بأيدى رؤساء لا نواب لهم كمثل الحيوانات المنزلية يحبسون فى أقفاصهم يعلفون فى مراقدهم تقودهم امرأة ويجذبهم طفل يتخذ بيضهم وتذبح أبناؤهم فى منافع ساداتهم لا يعرفون لله فضلا لا يذكرونه الا قليلا اذ لم يفوضوا الامر اليه ولم يعولوا عليه بل حال ساداتهم بينهم وبين صلاتهم وعباداتهم وحجهم وصومهم من وراء حجاب ولو اتصلوا به لانطلقوا عقولهم من عقالها ولا ستناروا بنورها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون

أمثال هذه الامم يتناطحون كما يتناطح الذعر يتحاسدون فيما بينهم تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون عقولهم ضيقات لم تسم بصائرهم يود أحدهم لو يقتل رجلا من أبناء جنسه حسدا له وحقدا لقصر نظره فلم يمتد حتى يري من فوقه فيتطلع الى مركزه السامى

تنزل الرجل فيهم الى حضيض عقل المرأة لا ترى امرأة تحسد رجلا الا انما تحسد المرأة المرأة في تلك الدائرة الضيقة دائرة اقتناص الرجال فهكذا عبيد الامم يتخاذلون ويكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا لنقص العقول وقصور النظر وتنزلا عما بلغه الرجال الكاملون من سمو الحكمة وبعد النظر والحرية ويشير لذلك قوله

ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)

فقال محدثي هذا المقول حسن تفهمه أذكياء العقول وان لم يكونوا من

الدارسين ولكني أرجو ايضاحا شافيا وتبيانا كافيا ليكون ذكرى للذاكرين
وعبرة للمستبصرين فقلت ليكن الموعد غدا

المقالة الحادية والاربعون

﴿ وصف أحوال الامم ﴾

﴿ العاملة والخاملة ﴾

مثل الامم اذا اتحدت وتعاونت كمثل ذكره كبار الحكماء فى شأن الحمامة المطوقة اذ سارت في الهواء تروم الغذاء تقود اخواتها الحمامات فبينما هن يستطلعن الحب ويردن الاماكن اذ بصرن بحب جلل الارض فوقعن يلتقطنه فكان لسوء الطالع حيلة محتال وشبكة قانص فوقعن فيها أجمعين اكتعين فاقبل الصياد فرحاً بغنيمته فنادت الحمامة المطوقة اخواتها وقالت لتعلقن الشبكة مرة واحدة وتقمن قومة هامة واحدة فى لحظة واحدة ولا يكن لاحد أكن هم في خلاص نفسها وحدها دون اخواتها ثم صرخت فيهن فقمن أسرع من لمح البصر وما زلن سائرات فى الجو والصائد ينظرهن حتى يئس فاقبلن الى فأر صديق لها حميم يسمى زيرك فنادته فقطع حبالهن وتخلصن ونجون فكان هذا سبب تشكيل جمهورية الغراب والفأر والظبي والسلحفاة فيما ذكرنا آنفاً فاتحدن وشكلن مملكة عظيمة

هذه ضربها قدماء الحكماء أمثالا للناس لعلهم يعقلون يقرأها صغارهم تسلية وكبارهم حكمة وعلما فينظمون دولا من جنس متحد كالحمامة المطوقة واخواتها ومن أناس متغايرين فى العادات والمواطن تجمعهم جامعة الحاجة أو المسكن فيقيمون دولة . فعقل الانسان لا حد لنوره ولا نهاية لمده

ولا قرار له فقال صديقي فاضرب لى مثل الامم اذا فرطت فى أمرها وضعفت أن تسمو الى درجة الحمامة المطوقة وضاق خناقها أن تنال مزية غراب وظبي وسلحفاة وفأرة كيف يكون شأنها وما مثلها فقلت مثلها كمثل ضربه قدماء الحكماء في باب الغربان واليوم يقال ان جماعة من الكراكى أخذن يتداولن فيما بينهن أن ينصبن عليهن ملكا . وأخذن يبدين رأيهن فى الطيور ثم وقع اختيارهن على البوم وبينما هن يبدين ويعدن اذ أقبل اليهن غراب فدعونه ان يجلس اليهن ويشير عليهن فى هذا الامر العظيم وعرض عليه أمر البوم فقال ويحكن أتتخذن أقبح الطيور شكلا وأردأهن خلقاً وأفسدهن رأيا تعيث نهاراً وتجوس خلال الديار للتلصص ليلا أين أنتن ويحكن من الطاووس وجمالها والنعام وجلالها والبط وخطراتها والحمام وهديرها أو عدمت الطيور حتى تملكن عليكن هذه الطامعات الغادرات الجاهلات ولن يخلو حالها فى تدبير ملكها من خصلة من خصلتين اما جهل بتدبير الرعية أو سوء الطوية . أما جهلهن فانهن لو صرن عليكن سادة لكان مثلكم ومثلهم كمثل القمر والارانب والفيلة . ذلك أن الفيلة اعتادت ان تتهادى صباح مساء الي عين ماء اسمها عين القمر حولها الارانب سارحات راتعات بائتات قائلات فكانت تلك الفيلة تطأهن بأرجلهن اذا وردن الماء فأغاظ ذلك الارانب فأجمعن لذلك أمرهن بينهن وشكلن لجنة وأخذن يتشاورن وبعد اللتيا والتى قامت احداهن واسمها فيروزو قالت لملك الارانب كل هذا الامر الى فصدع بأمره الى علماء الارانب وحكمائها أن يبلوها ويختبروا عقلها وذكاءها فأعطوها أجازة فسافرت لوقتها ودعت كبير الفيلة وأنذرته وحذرته صولة القمر وعذابه وغضبه وبطشه

اذا شرب الفيلة من العين المسماة باسمه وانها لهم من لدنه نذير مبين ثم سارت معه حتى وقفا على العين وشرب منها الفيل فاضطرب الماء فاضطربت فيه صورة القمر فاتخذها الفيل دليلا على صدق النذير المبين الارنب فيروز فرجع الى قومه غضبان أسفا وأخاف قومه عاقبة أمرهم واستخف الفيلة فأطاعوه انهم كانوا جاهلين

ثم قال الغراب ان أنتن ملكتن عليكم البوم وهى جاهلة كالقمر لا يشعر عما يجرى في الارض بين الارانب والفيلة ولكن الارانب دبرت أمرها و [illegible] زوراً و [illegible] و [illegible] ال [illegible] ل جهل البوم بتدبير الملك [illegible] جاهل [illegible] ل و جهه و [illegible]

ولئن كان للبوم عقل فاعما هن يخترعن به الحيل لقضاء شهواتهن ونيل مآربهن يتظاهرن بالخشوع والتواضع لينان شهوة وحطاماً من حطام الدنيا

من ذا الذى يرضى بملك جاهل أم من ذا الذى يرضى بطامع يظهر الصلاح وهو يضمر الخداع والغش وابتلاع ما تصل اليه يد امكانه وان أنتن ملكتن عليكن البوم كان مثلكن مثل طير من الصفاردة وأرنب عند شجرة بجانب وكره فتخاصما وتجادلا ثم اصطلحا على أن يتحا كما فأتيا سنورا عظيما يصلي فى المحراب على شاطىء نهر يسبح بكرة وأصيلا ويصلى بكرة وعشيا فأقبلا عليه وسلما وقصا عليه القصص فقال يابنى اسمعوا وعوا ان من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت وان فى الارض لعبرا وان فى السماء لخبرا أين الآباء والاجداد أين الملوك الشداد أين الملوك الجبابرة فتزودوا من مقركم لمفركم وتأهبوا لعرضكم على ربكم وهكذا مازال يخطب لهم خطاباً كخطاب [illegible] بن [illegible] ويعظهم وعظ الحسن البصرى ويستشهد

بقول النبي حتى اصغيا اليه ورقا لما سمعا مما يقرع الاسماع بزواجر وعظه ويطبع الاسجاع بجواهر لفظه فمالا اليه كل الميل فلما آنس منهما الاصغاء انقض عليهما مفترسا فأمسيا له طعام العشاء وأصبحا غداء الظهيرة !...

ثم قال الغراب فهذه صفات السادة الجاهلين والمسلطين الطامعين اما أن يكونوا كالقمر الجاهل بالتدبير أو السنور الذى نصب نفسه حكما بين المتقاضيين طمعا فى مالهما وافتراسا للحمهما . فلما قصصت هذا القصص على صديقى قال . لاخفاء بعد هذا البيان

وليس يصح في الاذهان شيء ... اذا احتاج النهار الى دليل

فبين لى الآن كيف تؤلف الكتب وما المناسبة بينها وبين مجالس النواب . فقلت ليكن القول بعد غد ان شاء الله تعالى

المقالة الثانية والاربعون

﴿ هل لمصر برلمان فى التوراة والقرآن ﴾

(بحثنا اليوم في برلمان مصر فى القرآن والتوراة)

يقول صاحبي ها أنت قصصت علينا قصص الجسم الانساني ونظامه ونحن أذعنا وأيقنا ان نظام الامة لن يقوم على السداد الا متى شابه نظام الجسم . هذا أمر عقلناه وفهمناه فهل فى الكتاب مايشير لذلك حتى تطمئن النفوس ؟ ألا ترى ان من الامور العقلية والنظريات الحكمية مالا يتبعه الا الاقلون وما أكثر الناس ولو حرصت بمتبعين الا ماصدعتهم به قارعة من كتاب أو وعظتهم راجرة من حكمة تسمعها آذانهم فتشربها قلوبهم أما استماع حكم الدنيا ووزنها بموازين العقول واستبانة ماترمز اليه من الحكم

والعجائب والنسج على منوالها والاقتـداء بحكمة الله فى الطبيعة فذلك لايتسنى الا للحكماء كما تراه فى تربية سبنسر الفيلسوف العظيم . أولئك هم الذين سـمعوا بعض ماأوحت به الطبائع الكائنة وعقلوها وقالوا كما قال الذين من قبلهم من حكمائنا فمقام الحكماء ليس عاما فاسمعنا من كتاب الله حتى نخضع لحكمه ونستمع لوعظه . فقلت يقول الله (ما خلقكم وما بعثكم الا كنفس واحدة) فهذا رمز غريب يجعل مجموع الامة كالجسم الانسانى فقال دعنا من الرموز فاين الصراح فقلت (وأمرهم شورى بينهم) فقال هذا مقال يتناوله المسلمون بالبشر ولعلك تذكر فارس وعلماءها فبهذا القول صالوا وبه نالوا ولكن أنى أريد منك اقناع المسلم والمسيحى واليهودى مقال تسلمه الطوائف جمعاء فقلت أنت تعلم أن بنى اسرائيل ذكروا فى التوراة والتوراة كتاب أنزل على موسى مصدقا لما بين يديه هاديا لبنى اسرائيل وهل أتتك حكاية موسى اذ جاء الي فرعون فرأى البرلمان المصرى تخر له أعناق الاوروبيين الاحرار سـجدا ويقولون ماترك الاولون للآخرين شيئا . نظام قدماء المصريين ثبت آمادا طويلة واحقابا ودهورا مجهول تاريخه لم يعلم حده وهل اتاك نبأ بعض المؤرخين اذ زار مصر فمر على الكهان فأروه صور الملوك المتعاقبة الذين حكموا مصر كابرا عن كابر من قبل أن يأتي الملك أميتا الذى بنى منفيس وكانت نحو ٣٦٠ تابوتا كلهم آباء وابناؤهم متعاقبون فكم يقدر لهؤلاء من السنين ولو قدرت كل أربعة بمائة سنة ليبلغ المجموع ٩٠ قرنا انما أهلك المصريين أن بدلوا دينهم القديم القديم الذى جاء به ادريس ثم نزلت عليه هذه الآية « يامصر يامصر ستبدلين دينك القويم وتكفرين بالله فتسحقين وتبقى أخبارك فى أحجارك » سارت

مصر أجيالا متعاقبة مجهولة وآماداً غير معدودة على الحق حتى غيرت وبدلت فهاجمهم قوم غلاظ شداد من الحميريين المسمين الرعاة فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا فأذلوا القوم واستعبدوهم وكان ذلك فيما بين الاسرة الخامسة عشرة والثامنة عشرة ومدة حكمهم ٥٠٠ سنة ثم أخرجوهم

وورد عليهم اذ ذاك بنو اسرائيل في أيام يوسف واخوته فلما أخرج المصريون الحميريين من البلاد بقي فيها بنو اسرائيل في جهة بلبيس الشرقية وفي القليوبية

وقد أقطعوا البلد العظيم المسماة الآن تل اليهودية فاستعبدهم المصريون فارسل موسى فجاء الى فرعون فوجد الملأ (الاشراف) وهم نواب الامة فحاورهم موسي ولا ريب أنه جاءهم بدين جديد ولو اطلعت على محاورته مع هؤلاء الملأ وصبرهم عليه وقد قبح لهم دينهم بقوله (رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم تعقلون) لعجبت من حلم المصريين وفضلهم وكيف فضلوا (وهم المنعوتون في الكتب السماوية بانهم أظلموا الامم هم وفرعون) أعظم الامم الغربية الآن في الحرية والدستور

وترى الخطاب في القرآن من موسى للملأ وهم الذين حكموا عليه ولم يك فرعون الا منفذا لقرارهم عاملا بأمرهم كملك الانكليز الحالي (وملك المانيا أبسط منه يدا وأوسع سلطة) يقول في الكتاب (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) فخاف القوم على ملكهم أن يتسلط عليه الاجنبي العبراني بطريق النبوة والدين كما اغتصبه الحميريون من قبله بالسيف والنار فقالوا « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في

الارض وما نحن لكما بمؤمنين » الخطاب لموسى وهرون

هذه الكلمات تليق لرجال الامم القابضين على زمامها والخائفين على ملكهم ان يزول ولم نر فى هذا القول ذكراً لفرعون

ثم يقول (قال الملأ من قوم فرعون) بعضهم لبعض وهم يتشاورون (ان هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) وهذا التقرير رفعه بعض رجال الشورى فى البرلمان المصرى فارتفعت الاصوات وأقيمت الحجج وخطب الخطباء وقر قرارهم على التوقيع على صك يرفعونه لفرعون وهذا نصه (أرجه وأخاه) أى أنظر في أمرهما وتربصهما وأجمع السحرة فكان ذلك فخضر فرعون وقام فيهم خطيباً وحرضهم على اقامة الحجة على موسي ثم وعدهم بالزلفي لديه والحظوة فقال السحرة (أئن لنا لأجراً ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم لمن المقربين) فوعدهم بالجوائز والقرب منه واعطائهم القاب الشرف ولم يتسن له هذا كله الا بعد ان أقر أعضاء البرلمان . وتعجب كيف كان القوم أخذوا يقدمون رجلاويؤخرون أخرى ولم يحكموا بقتل موسى وقد أتي يشوش أمر السياسةويضعف الملك وكيف تحاجوا وكيف ائتمر فرعون بأوامرهم وكان منفذا لقولهم وهو صدى صوتهم اذ قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم ولم يكادوا يعملون عملا حتى وعدهم الجزاء الاوفى كما تصنع الامم اليوم اذ يعدون الجوائز قبل صدور الاعمال تشويقاً لها وتحريضاً عليهاولما جاء السحرة ولفوا موسى (قالوا ياموسى اما ان تلقى واما أن نكون نحن الملقين) فراعوا الآداب مع عدوهم كماجاهروا بالحرية مع ملكهم فما باشروا العمل الا بعد وعدهم

هـذا حال برلمان مصر فى زمن أظلم ملوكها وأشـدهم عسفا وجورا فرعون الذى صرخت التوراة من ظلمه وفر بنو اسرائيل من جوره وصرح القرآن بكفره وجعل جسمه عبرة للزائرين وحكمة للاوربيين اذ قال (فاليوم ننجيك ببـدنك لتكون لمن خلفـك آية) حتى يعلموا انك اذ ظلمت بنى اسرائيل ذممناك فى كتبنا فها نحن أبقينا جثتك في محل الآثار لتكون عبرة للامم كيف أزلنا ملكك القديم بظلم شعب صغير ويعلم الاوروبيون حديثو الرشد بالمدنية لم يمض عليهم نصف الالف فاغـتروا وقالوا نحن أثبت الامم مدنية وأعلى كعباً فليحذروا ظلم الامم :

وأنت لهم آية فهل لهم يشاهدوك ويتعظوا بتاريخك وبرلمانك وأنت مع اشتهارك بالظلم أعدل من كثير منهم وقد شهروا أنفسهم بالعدل « وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » وياليت شعرى أتصبر دولة من دول الغرب الآن على ماصبر عليه الملأ من قوم فرعون يقف بينهم موسي قائلا « ان كنتم تعقلون » يسمعهم الشك فى عقولهم ثم هم بعد ذلك يصمتون ولا يجرونه الى مجالس التأديب أو القضاء . ظلم المصريون بنى اسرائـيـل وكانوا قوما من العبرانيين استوطنوا أرض مصر فساموهم سوء العذاب خيفة أن يكونوا جواسيس للاعداء من الحميريين فربما يوجسون منهـم خيفة فمصر مطمع أنظار الفاتحـين ومرمى أفكار السياسـيين واذا خاب سعي الحميريين وأخرجوا من الديار بالسيف والنار كما دخلوا بهما أفلا يقال ان موسى انما جاء ليسلبنا ملكنا وقـد جرت عادة الصائد أن يعالج بقوته الضـعيـف فاذا استصعب المطلوب كالاسـد أرهقه بمكيدة ودس له دسيسه وحفر له حفرة فدمره تدميراً فاذا خاب الملوك الرعاة بالقوة فهاهم بنو اسرائيل يساوموننا .

ملك مصر باللين والدين والدعوة والهداية فترى ان سوء الظن والشكوك قد أحاط بالمصريين في الاجانب فساموهم سوء العذاب فنزلت التوراة بذمهم والقرآن بلعنهم فما بالك بأقوام يظلمون الناس فى أرضهم ويعذبونهم فى ديارهم غير خائفين . أولئك سيلعنهم التاريخ لمنتين ويسجل عليهم الخزى في الدارين الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات فهذه حال الشورى والبرلمان فى بلاد مصر من قصص يذعن لها سكان أوروبا ومصر على اختلاف دياناتهم . فقال صاحبي هذا قول حسن من حيث الديانات والوطن وتاريخ للامم القبط ولو أثبت البرلمان للعرب القدماء لكان أثبت حجة وأعظم وقعاً وأرفع مقاماً وانى أشير عليك أن تقيم الحجة بالعرب الحميريين والحجازيين أى بني قحطان وبنى عدنان . فقلت ليكن القول غدا

المقالة الثالثة والاربعون

﴿ هل للعرب برلمان ﴾

أثبتنا مجالس النواب للقبط بمصر على لسان الديانات الثلاث وان فرعون وملأه أرفع مدنية وأشرف برلمانا وأوسع حرية والان نذكر مجالس نواب العرب اليمانيين وهم بنو حمير والعرب الحجازيين من قريش لما خرج بنو اسرائيل من مصر انشأوا دولة وكونوا أمة عظيمة اتصل ملكهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن حتى نبى الله سليمان عليه السلام وكان من أمره ما كان مع بلقيس اذ أرسل لها كتابا يقول فيه (لا تعلوا على وائتونى مسلمين) فلما وصلها الكتاب جمعت أشراف قومها وقالت (يا أيها

الملأ افتونى في أمرى) وما كفاها ذلك حتى قالت (ما كنت قاطعة حتى تشهدون) وهذا ولا ريب بعينه مجلس النواب ولا يعزبن عنك ان بلقيس ملكة من ملوك سبأ وهم من نسل التبابعة الذين أوتو الملك كابرا عن كابر وأراد سليمان عليه السلام ابلاغها رسالته فكان من أمرها ما ذكرنا. ولعمرك لم يكن مثل هذا القول جزافا في كتاب يقرأ والناس عنه غافلون

هذه قصص أريد منها تلك الحكم والعبر والقوانين والنظام أما الالفاظ مجردة فانها يتسلى بها أقوام خلوا من العلم والحكمة وأما قريش فكانت الشورى فى قبائلهم متفرقة قبل الاسلام فأما بعده فقد أخذت حظها وهل لك أن تسمع قصص تولية عثمان رضي الله عنه

ذلك ان المهاجرين دخلوا على عمر رضى الله عنه وهو فى البيت من جراحه فقالوا ياأمير المؤمنين استخلف علينا قال والله لاأحملكم حيا وميتا ثم قال ان استخلفت فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) وان أدع فقد ودع من هو خير منى يعنى النبي عليه السلام ثم قال وددت ان أنجو منها لالى ولا على فلما أحس بالموت بعث الى عائشة رضى الله عنها يستأذن ان يدفن في بيتها مع صاحبيه فأذنت ثم قالت للرسول أبلغ عمر السلام وقل له لاتدع أمة محمد بلا راع فانى أخشى عليهم الفتنة فلما جاءه الرسول جمع النفر الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض وهم على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وكان طلحة غائبا فقال يا معشر المهاجرين الاولين انى نظرت فى أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقا ولا نفاقا فان يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم تشاوروا ثلاثة أيام فان جاءكم طلحة بعد ذلك

والا فاعزم عليكم بالله لاتتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم فان أشرتم بها الى طلحة فهو لها أهل وليصل بكم صهيب هـذه الثلاثة أيام التى تتشاورون فيها فانه رجل من الموالي لاينازعكم أمركم واحضروا معكم شيوخ الانصار وليس لهم من أمركم شيء وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله ابن عباس فان لهـما قرابة وأرجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من أمركم شيء ويحضر ابنى عبـد الله مستشارا وليس له من الامر شيء قالوا ياأمير المؤمنين ان فيه للخلافة موضعا فاستخلفه فانا راضون به فقال حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة ليس له من الامر ثم قال يا عبد الله اياك ثم اياك لاتتلبس بها •

ثم قال ان استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه وان استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما وان استقام ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا الى ابنى عبد الله فلاى الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم فان أبى الثلاثة الاخر من ذلك فاضربوا أعناقهم فقالوا قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدي به فقال والله ما يمنعني ان استخلفك ياسعد الا شدتك وغلظتك مع انك رجل حرب وما يمنعنى منك يا عبد الرحمن الا انك فرعون هذه الامة . وما يمنعنى منك يازبير الا انك مؤمن الرضا كافر الغضب وما يمنعنى منك ياعثمان الا عصبيتك وحبك لقومك وأهلك وما يمنعنى منك ياعلى الا حرصك عليها وانك احرى القوم ان وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم ثم قال اوصى الخليفة منكم بتقوى الله العظيم وأحذره مثل مضجعى هذا الخ ثم أغشى عليه فلما أفاق قال لقد قومت لكم الطريق فلا تعوجوه ثم التفت الى على بن أبي طالب فقـال ان وليت

أمر هذه الامة فاتق الله ياعلى ولا تحمل احداً من بنى هاشم على رقاب الناس ثم التفت الى عثمان فقال ياعثمان ان وليت أمر هذه الامة فلا تحمل أحدا من بنى أمية على رقاب الناس ثم أمر صهيبا أن يصلى بالناس ثلاثة أيام وأمرهم بالخروج ثم قال اللهم ألفهم واجمعهم على الحق ولا تردهم على أعقابهم وول أمر أمة محمد خيرهم فخرجوا من عنده وتوفى من يومه ذلك ودفن وصلى عليه صهيب وبعد موت عمر اجتمع القوم فخلوا في بيت أحدهم وأحضروا عبد الله بن عباس والحسن بن على وعبد الله بن عمر فتشاوروا ثلاثة أيام فلم يبرموا فتيلا فلما كان اليوم الثالث قال عبد الرحمن بن عوف ولوني أمركم وأهب لكم نصيبي فيها واختار لكم من أنفسكم قالوا قد أعطيناك الذى سألت ثم حصروا العدد في ثلاثة على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف

ولما كان عبد الرحمن قد أخرج نفسه حصر العدد فى اثنين علي وعثمان فخرج عبد الرحمن ليتلقى الناس فى انقاب المدينة متلثما لا يعرفه أحد فما ترك أحدا من المهاجرين والانصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم الا سألهم واستشارهم فلم يلق أحداً يستشيره ولا يسأله الا قال عثمان ثم أخذ العهد والميثاق على كل منهما يقول له لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبيك من قبلك ولئن بايعت غيرك لترضين ولتسلمن وليكونن سيفك معى على من أبي فأعطوه ذلك ثم أخذ بيد عثمان فقال له عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبيك وشرط عمر ألا تحمل أحدا من بنى أمية على رقاب الناس ؟ فقال عثمان نعم ثم أخذ بيد علي فقال له أبايعك على شرط عمر ألا تجعل أحدا من بنى هاشم على رقاب الناس فقال عند ذلك مالك ولهذا اذا قطعتها فى عنقى فان على

الاجتهاد لامة محمد حيث علمت القوة والامانة استعنت بها كان فى بنى هاشم أو غيرهم . قال عبد الرحمن لا والله حتى تعطينى هذا الشرط قال على والله لاأعطيكه أبدا فقاموا من عنده فخرج عبد الرحمن بن عوف الى المسجد فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال اني نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعل ياعلى سبيلا الى نفسك فانه السيف لاغير ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعا . هذا ملخص من ابن قتيبة

المقالة الرابعة والاربعون

﴿ اقرأوا وانظروا واعلموا ﴾

(هذا تأليف الدول فكيف تؤلف الكتب)

قال صاحبي ها نحن علمنا ان الامة لها نظام ودستور ونواب فهل التعليم فى ذلك شرط لازم أم ذلك حق لكل أمة حيوانية أو انسانية فقلت الامم لا يتسنى لها الدستور الا متى تسللت لو اذاً من الحيوانية البحتة وتسربت الى الانسانية الى الحياة الحقة لينبذوا سفاسف الامور ويرجو أفاضلها ملا يغلب على مجموعهم نفاق النعام وجبن الارانب والخرفان وبلادة الحمار وحقد الجمل وما أشبه ذلك تنالهم صبغة عامة يعلمون بها وظيفتهم في الحياة وانهم مسئولون متناصرون ولن يكون ذلك الا بتعميم التعليم على الذكر والانثى فيبادر بنشره وعمومه وبين الصغير والكبير كما فعل الفارسيون

ماأجمل الحياة السعيدة حياة العلم

ألا أضرب لك مثلا يستبان منه درجات الامة فى العلوم ومقدار ما يجب على كل فرد فرد

قم وانظر وتأمل فى المزارع الخضرات والحقول النضرات والبساتين الغناء والاشجار والغابات والمياه الجاريات الساقيات تأمل وانظر مفكرا وقل لى الست ترى انها اختلفت طعومها وروائحها وأثمارها وأزهارها وأوراقها وأقدارها وهندامها ومحاسنها وألوانها وقسمت على مناطق الارض فنبت النخل فى بلاد الشرق وحاد عن أوروبا وما من نبات الا وله مقام معلوم ومكان محدود . الا تنظر الى اختلافها وتباينها ومناسبتها للارض التى زرعت فيها والمناطق والحرارات ودرجاتها

فالعقول الانسانية مناطق وحقول والعلوم نباتها وأشجارها والمنافع المادية والثمرات المعنوية ونظام الدنيا ثمراتها

هذه الثمرات والحبوب النواتج من المزارع لن ننال منها الا ما طلبنا وان نطلب الا ما عرفنا بالحواس هب ان نباتا غاب عنك فلم تره عيناك ولم تع وصفه اذناك ولم تشمه أفيخطر ببالك يوما ما ، كلا بل ترى الرجل يعاف ما لا يعلم من الاطعمة وترى الرجل الصالح يبغض الخمر وهى ألذ مايشرب شاربوها (وان كان الجهل هنا حسنا) فاذا لم تر أعيننا الا نوعا واحدا من النبات لم نعرف غيره ولم نطلبه فلم نصل له . اذا مهدنا هذا التمثيل نقول على رجال العلم فى الامم أن يجعلوا كتب المطالعة شاملة زهرات من العلوم حاوية نبذا من كل فن من فنون العلم حتى يضارع كتاب المطالعة معرض صور العلوم أو حديقة النبات أو بستان الحيوان يغرس فيه أنواع العلوم من أجمل ما لذ وطاب من لطائفها حتى لا تمر على التلميذ سنة الا وقد شاهد فى درسه علم الفلك ولطائف السحاب وعجائب الكهرباء وبدائع الهندسة وجمال الشعر ونباهة التاريخ وسحر الكيمياء ومجد الآباء وفضيلة

الشجعان وشرف الميـدان وقصص الضرب والطعان وبالجملة يكون كتاب المطالعة معرض العلوم ومنظر صور متحركة تمر على الصـبي صورة صورة من فن الى فن فى تلك الملح اللطيفة حتى يظهر باطن سره ويبرز كامن ذوقه فيصطفي عقله ما استعد له بفطرته ويتخذ من المهن والصناعات ما يوافق طبعه هكذا يجب أن تكون كتب المطالعة فى الامم فاذا ضلوا هذه الطريق خاب سعيهم وضلوا ضلالا مبيناً اذ يقف أبنـاؤهم وقوف العـير ويكونون مثلهم كمثل الذى داوى المرضى كلهم بدواء واحد وهو البصل . لاستخرج قرائح التلاميذ ولا تبرز أميالهم الا اذا استخرجت بهذه السبيل

تأليف كتب المطالعة يجب أن يراعى فيه أنواع العلوم جمعاء فلا يترك الامر للمصادفة التى توكل لذوق المؤلف فيضع كل مااستحسنه فربما لم يعد استحسانه أربع فنون كالتاريخ والشعر والطبيعة والاخـلاق واقد كتبنا فى هذا الـكتاب آنفا ان المدنيـة تستدعى خمس دوائر فى كل دائرة أربعـة أقواس فهي ٢٠ نوعاً من العـلوم تكتنف الحوائج الخمس الانسان وهى الغـذاء والدواء والثوب والحائط والحصن وقاما ان حوائج الانسان خمس يحيط بها خمس دوائر من الفلك والطبيعة والبخار والكهرباء وأركان المدنية الاربعة وفصلنا القول هناك تفصيلا في نحو المقالة السادسة عشرة فيما نظن فليلاحظ هنا وجوب أن يحتوى على ذلك كتاب المطالعة وأدنى التفاتة لكتب الافرنج تريك ذلك

وما أدرى أ كانوا يرمون لهذه الغاية الشريفة أم اتكلوا على المصادفة وذوق المؤلفين واحل الثاني أقرب الى فكرهم والاول الحق الذى لامناص منه ولقد ظهر مثل هذا العمل في العربية فى كتب أهل الشام فقـد برعوا

التأليف بالعربية بحيث يصلح بعضه للدراسة وللمطالعة

متى وضعت كتب المطالعة على هذا المنوال دعت فريق الشبان الى ماا ستعدت له فطرهم

ثم لاريب ان العقول صنعها مبدعها متفاوتة الصفة على مقدار الحاجة الداعية اليها . خلق الاعم الاغلب ضعيفا ليبقى الجسم للعمل والاقل وسطا يصلح لادارة الامور العامة وأقل منهم من هم أشد ذكاء أولئك قل عديدهم لقلة الحاجة لهم . لو لم ترتب كتب المطالعة على هذا النموذج قل النابغون فى الامم

فكم رجل يعيش ويموت في تلك الامم وهو يحمل كنزاً مخفيا وجوهرا محددا لم تعرض عليه صور العلوم تحرك من كامن شعوره وتبعث من لطيف جوهره وتنشره من مرقده فاذا ضم لهذا قصور كتب المطالعة ندر الاذكياء فى الامم ومات الفيلسوف والمدبر والصانع بطباءهم وهم لا يعلمون انهم حقيقون بهده الفضائل اذ لم تعرض عليهم صور ما كمن عندهم ويكونون مثلهم كمثل من عاش ومات ولم ير الموز فيموت وهو لا يدرى أن فى الدنيا هذه الفاكهة

فى الطبائع غرس ما تحتاج اليه الامم وهل ينكر الناس فضلها فى ابراز الذكورة والانوثة وتساويهما تقريبا ولم يك للزوجين دخل فى تنويعهما ولو أتيح للناس التداخل فيهما لا نقرض هذا النوع من الوجود اذ يختارون الذكور ويأنفون من الاناث

وعلى هذا النمط نوعت الفطر وغرست فيها العلوم والادارات والاعمال بقدر حاجات الامم كما غرست صفة الذكران والاناث ولكن الناس غيروا

خلق الله فجاء قوم علموا أبناءهم أجمعين وساقوهم لاستعباد غيرهم وتركوا بيدهم أكثرهن جهلاء فعاشوا أذلاء كالممالك المتحدة فلدعوا السنة الطبيعية وعبيروا خلق الله وأنزلوا السود الى الحضيض واختصوا هم بالعلم ذكيهم وغبيهم ورموا أولئك السود بمجانيق الجهل فاستأصلوا من أرض نفوسهم بذور الحكمة والشعر والصناعات فأحلوهم دار البوار جهنم الذل والاستعباد. الطريقة المثلى لرقى الامم صدقا وعدلا تعميم التعليم واختيار طوائف من المتعلمين لما جبلت عليه نفوسهم لينال كل منهم ماخلق له طبعا فينبتون نباتا حسنا ويشغل منهم أقوام بالصناعات وآخرون للادارة وغيرهم للحكمة والدستور واذ ذاك يكونون مثلهم فيمن سواهم كمثل الاشجار تتخلل المزارع فى الاشجار تعشش الطيور فتنزل حينا فحينا لتلتقط الحشرات المؤذية ثم تقف منردة طربة فرحة مبهجة للسامعين هكذا فليكن أولئك النابهون النابغون وسط العمال والمديرين يطوفون بآرائهم فى مناهج العلوم وتطير حول رؤوسهم فى جو سماء الحكمة طائرات الحكمة تلتقط الاذى من بين تلك المزارع. العظماء فى الامم حصن حصين لها ورحمة تنزلت لاغاثة الطبقات الضعيفة والطوائف الفقيرة يحوطونهم بآرائهم ويدفعون عنهم بما أوتوا من حكمة وعلم

فما أشد المناسبة بين النبات وصغار الطبقات وما أقرب العلماء والحكماء والرؤساء من الاشجار وما أعجب التشابه بين الطيور على الاشجار وجمالها وتغريدها ودفعها الاذى عن الزروع بما فى العلوم العالية عند كبار الرجال واسعادها وجمالها وتطريبها ودرئها الايذاء عن ضعاف الامم ثم كيف يزداد المطر على النبات بكثرة الاشجار لقصور رجال الزراعة وعلمائها كما يحقق

العذاب بأمة قل المفكرون فيها والعالمون . واجمال القول أن كتب المطالعة توضع لغرضين شريفين لغة الامة والتشويق للعلوم ولن يتسنى الامران اذا قصر الوضع على شذرات من فن أو فنين فليست اللغة خاصة بشيء دون شيء واني أكرر قولي بعد هذا البرهان وأطالب الامة باتقان كتب المطالعة وشمولها شذرات من جمال العلوم فذلك خير وأحسن تأويلا وانه لاشد وطأ (موافقة) وأقوم قيلا

المقالة الخامسة والاربعون

﴿ قل سيروا فى الارض فانظروا ﴾

ذكرنا فيما مضى كتب المطالعة وما يوحيه نظمها من تشويق النشء الي العلوم وقلت انها لاأشبه شيء بصور تعرض على الانظار ومعالم علمية واليوم نبحث فى التجوال في الارض شرقا وغربا أتدرى ما المناسبة بين الموضوعين وما الشبه بين الفصلين التشابه بينهما عظيم . التلميذ يقرأ كتاب المطالعة وينظر في ابداعه وعجائبه ونقوشه فتشوقه الى العلوم والحكمة فينال حظا على مقدار شوقه كما أوضحنا والامة تلميذ الامم التى أحاطت بها وما دامت خاملة جالسة مع الخوالف فان الله يطبع على قلوب أهلها أتدرى لماذا؟ لانهم يظنون أنفسهم علماء وما هم بعلماء . ماأعظم غرور المغترين وما أشد كبر الجاهلين فاذا جالوا فى الارض وساحوا ونظروا الامم علموا مقاديرهم ونسبتهم اليهم غهدنا بالامم الحية أن يرسلوا من لدنهم رجالا ذوى علم وخبرة فيطوفون انحاء المعمورة شرقا وغربا وينقبون على الآثار والرقى الذى نالته الامم العظيمة

فيتخذون من كل شيء أحسنه (أو لم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التى في الصدور)

يقول العلماء السير سيران سير عامة وسير خاصة فللعامة بالسياحات شرقا وغربا حتي ينظروا الآثار الظاهرة وللخاصة بصوغ ماعرفوه وتصوير ماجهلوه بصورة واستثمار ماغرسوه . رب سائح فى أوروبا وقد شاهد ما مراراً ورسم فى مخيلته قصورها وكنائسها ودور نزلها وميادينها وأنهارها وأشجارها و حدائقها ومزارعها وقابل رجالها ورجع وهو غير متميز عن العامة قيد شبرفليس يفهم مما شاهد الا على مقدار ماأوتى من العلم وماأودع من الحكم وتمثله له نفسه . ترى الرجل يقرأ الكتاب فيفهم ظاهره وآخر يقرأه فينال حظا وافرا وغاية مايكنه وما الامم الا كتب مطالعة الامة المتعلمة هل يتسنى لتلميذ فهم الكتب المنشورة للقراءة الا بعد حروف الهجاء وجمع الكلمات والتمرين فهكذا الوفود الطائفون في الارض لن يفيدوا أممهم وهم لم يقرأوا الحروف والكلمات والجمل ليستعينوا بها على فهم تلك الامم ومطالعة أحوالها . أنت خبير ان حروف التلميذ « ا ب ت » وحروف الوفود النائبات في الامم العلوم جمعاء والاحاطة بها فحروف القراءة للفرد بسائط وللامم مركبات للفرد في المكاتب الصغيرة وللامم فى المدارس العليا الجاهل يقنع من المدنية بظواهرها ونقوشها والعالم يتجاوزها الي معانيها ومعقولاتها وعليه فلتكن الوفود من ذوى القدرة والحكمة . فهم أقرب الى العلم منهم الى الظواهر والشهوات . واضرب لهم مثلا رجلين أحدهما مصرى والآخر ياباني جمعتهما عاصمة فرنسا وصحبهما التميذروسي أيام صولتنا

ودولتنا أيام اسماعيل باشا الخديوى الاسبق فماذا جرى . وقع ذلك الروسى بين عاملين وجاذبين يتجاذبانه هذا الى الشهوات والطرب والغناء ومحاسن الصور وذاك مغرم بالاختراع الجديد والاكتشاف وبدائع الهندسة وغرائب اللوغارتم وجمال الفلك وعجائب النجوم : هذا رقيق البشرة جميل الشكل طويل القامة قليل العمل وذلك أصفر اللون قصير القامة كثير العمل قليل الكلام فمال ذلك الروسى بالطبع الى أجملهما شكلا وأقلهما عملا ثم وقعت الحرب بين الروس واليابان فكتب فى الجرائد قضى الامر الذى فيه تستفتيان وبان الخبر للعيان أني يستوى الرجلان اني يستويان . هؤلاء على ضلال مبين وأولئك علي هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . هؤلاء سارعوا الى الشهوات وهم لها سابقون وأولئك سابقوا الى العلا فسابقونا نحن الروس فهم لنا غالبون وهؤلاء فى سلاسل الاستعباد مكبلين وتحت الاحتلال خاضعين وأولئك غلبونا معاشر الروس بما كانوا يعلمون هذا مثل ضربناه حقا واقعا فويل للقوم الذين لا يقرأون ولا يسبرون وويل ثم ويل للذين لا يعقلون قضى الامر واستبان جليا ان الامم على سطح البسيطة كالحواس فى جسم الانسان اذا اقتنصت حاسة منها الروح وشغلت الجسم ركدت الحواس الاخرى فاذا سمعت أيها الانسان آلة ضرب أو نظرت صورة محبوب شغلك ما سمعت وسحرك ما نظرت حتى لا تعى ما يقول الحاضرون ولا تنظر ما هو أقرب اليك من حبل الوريد فهكذا الامم وترى العاملة منها القوية الفاتحة تكاد تبتلع الامم جمعاء فتغشى على عيونها واسماعها وأبصارها فلا يكاد المغلوبون يحسون ولا يشعرون ويظنون أنهم خلقوا من الخبال وعجينة الجهال هذا سحر مستمر سحر العقول وازاغ

الانصار . ياقوم مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل العلم اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الحيوانيـة من الحياة الانسانيـة فما متاع حياة الحيوان فى جانب حياة الانسان الا قليـل تمسكم الحوادث عـذابا أليما يوم تقلب الوجوه فى النار نار الجهل والذلة وتزوغ الابصار وتبلغ القلوب الحناجر وتتشعب فيكم الظنون. فمار على مصر والمصريين وألف عار

يستكثر الغربيون عليكم كلية واحدة فكونوا عظاما نخرة وعبيدا أذلاء اذا لم يكن لكل مليون مدرسة كلية من كان في العار لايحس به فلا ريب ان الامم تضحك الآن علينا تقول لا كلية لدى المصريين وأحقر الامم واصغرها لديها كليات ألم يأنِ ان تكون لكم جمعية ثابتة ووفود دائمون لاانقطاع لهم ولا بوار

قد ضربنا لكم مثلا للامم بالحواس وان العاملة منهن تكاد توقف شعور أخواتها نعم يكون ذلك حتى اذا قويت المغلوبة وصدقت عزيمتها وازداد احساسها فناوأت العاملة واتخذت مكانها واسترعت الاسماع وأزاغت الابصار

واضرب لهم مثلا رجلين ذوى حقلين متجاورين زرع الاول أرضه نباتا وشجرا وحدائق غلبا فاثمر فاكهة وثمرا فوضع السيف فى الرقاب ورفع العصا على الظهور وقال للآخر اياك أن تزرع أرضك والا فأين ترعى ماشيتى أرضى للاشجار وأرضك للكلأ والبرسيم أرضى مأكل الانسان وفواكهه وأرضك مراتع الحيوان ومسارحه ومشاربه فلو قال له هذا المسكين أرضى وأرضك سيان قال كلا فان حقولى جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الانهار فيها من كل الثمرات هذه خير أم حقولك التى لاتنبت الا الكلأ

والعشب فان قال له الضعيف دعنى أزرع بما فاز الارض واحدة والاستعداد متحد قابله الغالب بالازدراء والاحتقار وقال ارفع رأسك فما هو السحاب الاسود غاشية من عذاب المدافع ودخان البارودوفيه شواظ من نار فلن تغرس شجرة الا قطعتها وحرقتها ولتقولن انا لمغرمون بل نحن محرومون

فالحقول فى هذا المثل كالعقول والاشجار كبار الرجال والنبات صغار الامم والرجلان القوى والضعيف الغالب والمغلوب . معرفة عامة الناس للاغذية بالحواس ودراية التلاميذ منهم للعلوم بالمبادىء الاولية فى المكاتب وعرفان الخاصة السائحين في الارض بالعلوم. وارسال الوفود قسمان أحدهما الاستفادة العلوم كالهندسة والطب وهؤلاء شبان أذكياء يصطفون من خيارهم والثاني لاقتباس نظام المدارس وترتيب العلوم وهؤلاء يكونون من كبار الرجال المشهورين كالاطباء والمحامين والمهندسين فاذا فرغنا من كتب القراءة ووضعها والكليات ونظمها والوفود وارسالها وقارنا بين طلاب الامم وتلاميذ المدارس وصروف الآخرين وعلوم الاولين وجب أن تفيض فى موضوع اللغة العربية ونوضح ان العامة يعلمون من لغة مصر حظاً صالحا وان عامة المصريين بلغة العرب عارفون ولكنهم بذلك لا يشعرون فانتظر البيان

المقالة السادسة والاربعون

(لغة الآباء كنز ثمين)

﴿ لغة الفلاحين هى العربية الصحيحة ﴾

من خالط عامة المصريين فى الحقول والقرى وجدهم يعرفون من لغة مضر حظاً صالحاً ويحفظون من متن اللغة العربية أثراً صحيحاً فتراهم يقولون النار دخنت ويقول العرب دخنت النار من بابي نصر وضرب فهى داخنة وأدخنت أيضاً وتقول العامة فى مصر دخن الطعام واللحم وغيرهما وفى كتب اللغة دخن الطعام كفرح ويقول العامة دخنت النار اذا القيت عليها حطباً فأفسدتها به حتى يهيج لذلك دخان وفى القاموس بهذا المعنى عينه ولكنه من باب فرح ويقول العامة عبق البيت بالدخان وفي القاموس عبق من باب فرح بهذا المعنى ويقال في الثوب أيضاً. ثم أن الدخان مفرده داخنه ودخان جمع دخنة وتقول العامة ثار الدخان وثار الغبار وغيرهما أى هاج وهكذا فى القاموس وتقول العامة يافلان عججت البيت دخانا وهكذا فى القاموس عججت البيت دخانا فتعجج أى ملأته فتملأ وتقول العامة رمدت الفطير والخبز وفي كتب اللغة رمدت اللحم وغيره وترى العامة يقولون فى نبات الفول بعد جزه من الارض قصلا والمفرد قصلة وفى كتب اللغة ان الزراعة مادامت غضة فهى حامة فمتى جز الزرع يقال انه قصل بالبناء للمجهول قصلا واقتصل كذلك وهو القصيل والقصل هو القطع فالقصيل بمعنى المقطوع وتقول العامة القمح قنبع أى لم يخرج سنابله وفى كتب اللغة قنبعت السنبلة أى لم تخرج من ساقها وتقول العامة القمح سبل وفي كتب اللغة سنبل القمح وأسبل

وتقول العامة السبل جمع سبلةوفى كتب اللغة السبل هو السنبل

وتقول العامة السبل قمح يربدون صارفيه حب وفى كتب اللغة أقمح السنبل جرى القمح فيه وتقول العامة أدرك القمح وفى القاموس أدرك السنبل اذا أبيض وتقول العامة (هاتوا لنافريكة من الغيط) وفي القاموس فركت الحب أفركه فركا وتقول العامة نحصد القمح وفى القاموس حصد يحصد من بابى ضرب ونصر والعامة اختصتها بباب نصر . وتقول العامة أرسل البقر فى الحصيد وفى القاموس الحصيدة أسافل الزرع التي تبقى ولا يتمكن المنجل من استئصالها والحصيدة أيضا المزرعة وتقول العامة أعطى شمال برسيم واعط الحاصد شمال قمح وفى القاموس كل قبضة قبض عليها الحاصد تدعى شمالا بكسر الشين ويقول الرجل لابنه هات لنا جرزتين من القمح وفى القاموس الجزرة الحزمة من القمح بضم أولها ولكن العامة تنطق بالكسر ويقول العامة عرمت العرمة وفى القاموس بمعنى يقارب هـذا فيقال عرم يعرم تعريما وتقول العامة اذهبوا فالقطوا من الحصيدة وفى القاموس يقال لماسقط فى الارض من السنبل لقطة بضم ففتح والجمع لقط بضم ففتح ويقال لالقاطه اللقاط بفتح اللام وكسرها وتقول العامة وضعنا القمح فى الجرن بضم فسكون وفى القاموس الجرن بضمتين جمع جرين ويقال فى الجمع أيضا أجرنة فكأن العامة جعلت الجمع مفرداً ثم جمعوه في بلادنا فقالوا اجران ونسمع العامة فى بلادنا يقولون درسنا القمح ويقولون أيام الدراس وهكذا فى القاموس ويقولون الدياس والدقة وكل هذا في القاموس قد دق الناس وداسوا وأداسوا ودوسو وهكذا تقول العامة وقال الشاعر فى درس القمح

تقول خود ذات طرف براق هلا اشتريت حنطة بالرستاق

سوداء مما درس ابن مخراق

ويقول العامة النورج وهو معروف استعمله العرب

تقول العامة احنا ندرى القمح وفي القاموس ذريت الطعام وذريته وذروته واداته المذرى

وتقول العامة المدارية محرفة ويقولون التبن وهو جمع تبنه وبائع التبن تبان وتقول العامة تبنت البقرة علفتها تبنا وهكذا فى كتب اللغة

وتقول العامة فى القمح المجتمع عرمة ولفظ العرمة بفتحتين فى اللغة لكل ما اجتمع من الطعام والجمع العرم فهو في الاستعمال قريب

وتقول العامة لما خلط من القمح والشعير بغيته وفى اللغة بغت الشيء خلطه بغيره فالصواب بالقاف ويقولون في هذا القمح غلت وصوابه غلث بالثاء وهو بمعنى الخلط أيضا

ويقولون البصل حنبط أى غلظت أنبوبته وقصرت والصواب احبنطأ يحبنطيء لكل ما قصر وغلظ والناس تقول للنعل من الخشب قبقاب بضم القاف وفى اللغة قبقاب بفتح أوله بهذا المعنى وتقول العامة حنابده بالحناء وفي القاموس حناه يحنئه تحنئة فتحنا خضبه بالحناء وتقول العامة فى الرجل يرفأ الثياب رفأ وهو فى القاموس رفأ الثوب لأم خرقه وضم بعضه الى بعض وهو رفاء وتقولا العامة لخرزات منظومات من الذهب لبه وفي اللغة اللبة بفتح اللام واللبب موضع القلادة من الصدر فكأن العامة استعملوها مجازاً وتقول لما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرجل لبب وهو هكذا في القاموس وتقول العامة عن نبات معروف لبلاب بكسر اللام وهو فى اللغة بالفتحها وتقول العامة فلانة تلابلبت على ولدها وهكذا في القاموس

البلبة الرقة على الولد وتسمع العامه يقولون اذا أحسوا بحيوان صغير يتأذى به الناس اذا كثرت المستنقعات « هذا الصعو يؤذينا » يريدون البعوض الصغير وفى القاموس صعي يصعى كسعي يسعي دق وصغر فكل صغير يقال له صعو والاولى وضع هذه الكلمة بدل المكروب كما استعمله العامة في بعوض لم يروه والصعو مؤنثه صعوة والجمع صعوات بفتحتين

لعلي أطلت القول عليك أيها القارىء فانا لم أطل فى هذا المقام لغرض لغوي اني ما ذكرت ذلك لا ايقاظا لتلك اللغة المنتشرة بين العامة يسمعها الطفل بين أبويه في الدار والحقل والطريق حتى اذا دخل المدرسة رأى منها اعراضا عن أكثر ما سمع مما لم يره فى الكتب المعتادة ويعد ماعداها الفاظا عامية ويا ليت شعري كيف نضيع كنزا ثمينة ورثناه عن آبائنا وكيف نذر ماحفظنا عن الآباء زعما انه لغة العامة مع ان القاموس لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من تلك الكلمات الا أحصاها . وانى لأعجب غاية العجب من هذا التقهقر المشين المحزن . يشب الطفل وهو يعلم من متن اللغة حظا صالحا حتى اذا ماانخرط فى سلك التلاميذ نسي مالقنه أبواه حتى اجمعت أوربا ان لغة المصريين غير العربية فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم ان اللغة محفوظة وهي عربية لا ينقصها الا الاعراب نعم ان بعض الالفاظ حرف شكله كالمذرى جعلوها مدراية وكلفظ عبق جعلوها على وزن فعل بالتشديد وهكذا

وان لي فى ذلك رأيا وذلك ان يؤلف كتاب يجمع لغة المصريين في الوجهين القبلي والبحرى وينشر بين عامة المتعلمين ثم تجعل كلماته فى مواضع وتصير كتب مطالعة للطالبين في المدارس الابتدائية حتى يحفظوا ماورثوه

عن الآباء ويبقى كنزا لهم فى انشائهم ومحاورتهم وبهذا يتم اصلاح النطق بالمحرف على ألسنة المتعلمين ويظهر للملأ اننا نعرف العربية البحتة كما هو الحق واعمرى ان اصلاح اللغة العربية فى بلادنا يتوقف على هذا فاذا لم تشكل لجنة وطنية تجمع رجالا من الوجهين القبلي والبحرى ويضعون ذلك القاموس مع حضور بعض العامة الاذكياء الذين هم أدرى بلغة العامة وتدون تلك الالفاظ المطابقه للقاموس ثم ينشر الكتاب نشرا عاما اذا لم يتم ذلك فى مصر فكل اصلاح فى العربية سواه ضعيف قليل الثمرة وان أول واجب بذل الجهد فى هذه السبيل وما سواها لخلل

المقالة السابعة والاربعون

﴿ الشعر والتاريخ ﴾

الشعر والتاريخ فنان بينهما علاقة ونسب يجتمعان ويفترقان يكادان يكونان طبيعة في الانسان وكما ان الكهرباء سرت فى عامة الاجسام خلقت معها ركبت فى طبائعها ومقدارها يغلب في الاجسام الحيوانية فالجواهر المعدنية ويندر فى النباتية ونحوها فهكذا ترى اناسا نبغوا فى الشعر وآخرين يتشبهون ويتقاربون ويتكلفون وقد يصلون . ان شئت فقل الناس شعراء ومؤرخون

قم واجلس في مجلس فلا تسمع الا قول الناس فى سمرهم ألا سعد فلان وشقى فلان وتارة يحلون المجالس بالشعر والموالى أو يذكرون تخيلا شعريا غريبا

لم تترفع هذه عن صغرى الطبقات كما لم تتسام عنها أرقى الطبقات ثم نرى الامم فى مبدا أمرها تكون فى الشعر أطفالا وفى البلاغة صغارا يعجبهم

ما كان غريب اللفظ عويص المعنى كأنهم يخضعون لما تقصر عنهم طاقتهم فاذا أخذوا فى الرقى قليلا ما ثلوا الشبان في العقل فاحبوا الخيال والنكت البلاغية غالبا فاذا ارتقوا مالوا الى جمال المعانى واعتبروا من اللفظ رونقه ومن الخيال سبكه ونظمه وغاصوا على الحكمة وجمال المعنى هذا ما عن لى فى درجات الشعر فمتى رأيت الرجل تدهشه تلك الكلمات وغرابتها فاعلم انه عامى ألا ترى أن العامة يقولون لكلام لا يدرون معناه هذا فصيح اذا كان معربا وان رأيته لا يقف الا عند الخيال ويعجب به فهو فى الطبقة الثانية فان مرق من الخيال الى مافيه من حكم ووازن بينه وبين الحقيقة المقصودة من التأثير فهو في المرتبة العليا

قلنا أن الناس أجمع يميلون للشعر ويحبونه ومنهم فريق استمر فى قرضه فمدح الملوك وذمهم فياليت شعرى لم غرست هذه الطبيعة فيناوهل ما رأيناه من الذم والمدح لغلبة الشهوات كان مقصود تلك الفطرة السامية. الله أكبر وأجل ان يضع هذه الغريزة لمثل هذه الصغائر

وانظر كيف كان أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفى المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ فى جهة سواد بغداد كان عظيم القدر شريف المنزلة سامى النفس ومع هذا يقول الشعر ارضاء لشهوات النفوس

فكم مدح سيف الدولة وكم ذمه وكم مدح كافوراً وكم ذمه يقول فى مدح الثانى وذم الاول تعريضا

تجاذب فرسان الصباح أعنة	كأن على الاعناق منها أفاعيا
بعزم يسير الجسم فى السرج راكبا	به ويسير القلب فى الجسم ماشيا
قواصد كافور توارك غيره	ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها وماقيها
نجوز عليها المحسنين الى الذى نرى عندهم احسانه والايادىا

وهذا من قصيدة يمدح بها كافورا الاخشيدى اذ ورد عليه وأكرم مثواه فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هجرية

ثم ذمه بقصائد منها قوله

اني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا يقبض الموت نفسا من نفوسهم ألا وفى يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصى أمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ لو انه فى ثياب الخز مولود
لا تشتر العبد الا والعصا معه ان العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبنى أحيا الى زمن يسىء بي فيه عبد وهو محمود

ولسنا نطيل النقل فمثل هذا الشعر مع حسنه وضع فى مقام غير شريف تفرح به الامم فى أول أمرها وشبابها فاذا وصلت للحكمة أبتها طباعهم ولا يرون لامثال هذا قيمة وهكذا كثير من قصائد أبى تمام والبحترى واضرابهم يمدحون ويذمون لتلك الشهوات .

وهذا لعمرك ما صرح به القرآن اذ قال (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون) فانظر كيف وصفهم بالهيام في كل واد من أودية المدح والذم كما توحى اليهم الشهوات وتسعدهم بالمخيلات .

اذن لماذا غرس الله هـذه الفطرة فى نوع الانسان ؟ أجمع العلماء ان كل عزيزة فينا ذات حكمـة شريفة وللشعر منزلة سامية فى النفوس . لعل نفوس كثير من الشعراء حادث عن الطريق المستقيم . لعل هذه الفطرة تجنح الى وصف مانراه من جمال هذه العوالم وبهائها نصف السحاب. تصف النجوم والشمس والقمر . تصف الأنهار تلك الحكم الزاهرة الباهرة الشعر كهرباء الارواح الانسانيـة تشع منهـا الى النفوس فتطوف هـذه العوالم المشاهدة فتستخرج المنافع المادية والمعنوية يقود النفوس الى الفضائل يبتعد بها عن الرذائل فى العوالم المشاهدة عجائب وغرائب فيها حكم وبدائع وانما يستخرجها الشعراء بقرائحهم

وانه ليعجبنى ما يتغنى به شـعراؤنا اليوم من وصف الكون وحكمه والتشويق للعلوم وتحبيبهم للوطن والالفة والرقى أذلك خير أم أولئك الذين يذمون ويمدحون كأنهم للشهوات عابدون. المدح والذم صفتان عرضتا للشعراء اذ حاد الملوك عن القصد ونأوا عن الصراط السوى فاستعطفوهم واستجدوهم: الله أكبر كلما مالت الحكومات الى النيابية الى الاستبدادية مال الشعر الى الاشخاص ووصفهم وكلما عدلت الحكومات اعتدل الشعر وسار ملكا للامة يحرض أبناءها ويرشدهم الي المعالى، يغريهم بمكارم الاخلاق واني لارى اننا لا نختار من الشعر الا ما يقوى ارادة الشبيبة ويهديهم الى طرق الرشاد اما شعر المـدح والذم فلن يفيد الا حسن الالفاظ وجمال الخيال وهو خال من كل فائدة هذا هو الذى أراه فى تعليم الشعر . مثاله ماقال أبو الطيب في الحكم

هون على بصر ماشق منظره فانمـا يقظات العـين كالحلم

يقال شق الامر عليـه صعب والمعنى هون على عينك ما يشق عليها

منظره فان ماتراه فى اليقظة شبيه بما تراه فى المنام وكأن الحياة احلام ولم الحزن على حوادثها

ولا تشك الى خلق فتشمته شكوى الجريح الي العقبان والرخم

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الالم

الدهر يعجب من حملي نوائبه وصبر نفسي على احداثه الحطم

ومن حكم أبي تمام الطائي حبيب بن أوس المتوفى سنة ٢٢١

خطوب اذا لاقيتهن رددنني جريحا كأني قد لقيت كتائبا

ومن لم يسلم للنوائب أصبحت خلائقه طرًّا عليه نوائبا

ومن أجمل ماينسب لعنترة

ولا حمين النفس عن شهواتها حتى أرى ذا ذمة ووفاء

فلئن بقيت لا صنعن عجائبا ولا بكمن فصاحة البلغاء

ولاجهدن على اللقاء لكي أرى ما أرتجيه أو يحين قضائي

ومن حكم أبي العلاء وهو يشهد لما قلنا

وما شعراؤكم الا ذئاب تلصص في المدائح والسباب

أأذهب فيكم أيام شيبي كما أذهبت أيام الشباب

فان كان ولا بد من مدح فليكن بما عرف من فضائل الممدوح واشتهر ثم يجعل ذلك قدوة لاهل وطنه فيرجع المدح الى ترغيب الناس فى الا قتداء به وهذا كأنه درس اخلاق وما عداه فلا أمدحه ولا أرضاه

الشعر والتاريخ لا يقصد ان لذاتهما انما يراد ان لانماء العواطف والحض على المكارم وما عدا ذلك فمنبوذ فالشعر الذى قصد به الشهوات يهيمون به

فى كل واد فاما الآخر فهو ماذكره الله بقوله الا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً الخ أراد به الشعر الذى قصد بهغرض شريف ونفع عام وهكـذا التاريخ أرى أن يصطفي من حوادثه مايقود الشبيبة الى المنافع والثمرات . التاريخ يراد منه اثارة الحمية والغيرة في الرؤوس . التاريخ وصف شجاعة الشجعان وخذلان الجبان وسياسة العادل وحب صالح الوطن ورجال الامة وعظمائهم حتى يكون ذلك داعية الى رقى الامـة والعمل لها وأعجب مارأيت تلك القصص القرانية فما رأيت حكاية قصيرة أو طويلة الا وتخللها حكم ومواعظ وأمثال وترغيب أو ترهيب كأنه يرينا كيف نعلم التاريخ كأنه يقول ليس التاريخ فنا معبودا الاّ انما التاريخ آلة لنمو القرائح وانارة العقول للغرض الذى توجه اليه الامة ومتى عرىعن هذه الاغراض فانما هو من سفاسف الامور وضياع الوقت وقراءة بعض كتب الافرنج شهادة بذلك فيما يكتبون

المقالة الثامنة والاربعون

﴿ الرق فى الاسلام ﴾

لا نزال نسمع آناً بعد آن الطعن على دين الاسـلام باستحلاله الرق الذى تمقته الانسانيـة وتأباه الرحمة ويدمغه الشرف وأنا ما أدرى أيذمون بهذا الاسلام أم المسلمين أم كليهما . ؟ ما فعل الاسلام فى الرق ؟

الرق شريعـة الانسان من مبـدأ الخليقة بل أساتذة الانسان وهى الفئات ذات المدنية والنظام من الحيوانات كالنمل اتخذت الاسرى ونظمت

الجذجاء الاسلام فماذا صنع ؟ اجعل الرق من علم أصول الدين بحيث من تركه يكون خارجا من الدين كشهادة ألااله الا الله وان محمداً رسوله . هل اتخذها من أمور الاسلام وهى العبادات الظاهرة كالصلاة والزكاة هل اتخذها سننا يثاب فاعلها كصيام ايام من كل شهر ؟ لا هذا ولا ذاك

رأى الاسلام الامم جاهلة منحطة والمسيحيون يشرهون على الرق والكنيسة لاتمنعه وان كانت توصى به خيرا فلم يسعه ابطال الرق مرة واحدة وكيف يبطله والامم جمعاء تبيحه . أيمنع المسلمين منه اذ ذاك والامم المحيطة بهم تنقض عليهم من كل حدب تختطف أبناءهم وتستحيي نساءهم وهم صامتون لا يقابلون الفعل بالفعل ؟

لو فعل النبي عليه الصلاة والسلام ذلك لكان مثل المسلمين مع من جاورهم كمثل المصريين وقمبيز اذ سار الاخير اليهم بخيله ورجله فانقض عليهم فماذا صنع المصريون ؟ قابلوه بالمثل وحاربوه وانتصروا عليه وذلك فى الاسرة السادسة والعشرين

فلما أعيته القوة لجأ الى الحيلة الدينية فصف الحيوانات المعبودة بين الصفين فتحرج المصريون عن قتل الآلهة وانقض الفارسيون على العابد والمعبود فأفنوهم واحتل الفارسيون مصر

فلو ان النبي صلى الله عليه وسلم حرم الرق على المسلمين لانقرضوا فى قرن واحد فكنت ترى أبناءهم ونساءهم أسرى وهم لا يبدون حراكا ولا يقابلون العدو بالمثل

كان يعترض على الاسلام لو أوجب الرق في الاسلام ولكنه اتخذ طريقاً وسطا بين الطرفين فاباح الرق فلنا فعله ولنا تركه ولقد صرح في

القرآن به اذ قال فامامنا بعد أى بعد الحرب واما فداء فاباح الفدية وأباح المن عليهم والافضال باطلاق سراح الاسرى فكأن الرق خصلة من ثلاث وهي اخلاء سبيل الاسرى وفديتهم واتخاذهم أرقاء وجعل الامر موكولا الى فطنة رجال السياسة بحيث يراعون ازمان والمكان . ان القرآن والمسلمين يستقبلون ابطال الرق بالبشر والفرح والسرور ومن العجيب ان أسرى المسلمين وارقاءهم كانوا أكبر ممثلي أدوار السياسة في الاسلام

لما رأى الشارع ان الرق يضطر اليه القائمون بالامر فى بعض الاوقات حوله من الضرر الى النفع كما يتخذ الاستاذ صفة الغضب في التلاميذ ذريعة لعلو الهمة والغيرة والنشاط كنهر فاض فاتخذت له القناطر والسدود والحواجز ليحول الى سقيا الارض عن الافساد فيها وكما يحول الطبيب حب المرأة للزينة والجمال الى المحافظة على الصحة فيتبعها بقاء الجمال

وكما يجد علماء الاخلاق فى تحويل وجهة المقامرين فى الاموال الى المغالبة فى الفخار و حوز المجد والشرف والرفعة ويقولون لهم « اماهلكاواما ملكا » كما يقول المقامر اما غنى كامل واما فقر شامل وكما يحول حب الجمال الى رقة الشعور والوجدان وكما تتخذ رذيلة كثرة الكلام فضيلة فى الوعظ والخطابة لئلا تضيع سدى أو تضر ضرراً عظيما

على هذا جعل الاسلام الرق مدرسة عظمى يتخرج منها أولئك الجهلاء فى الامم المنحطة فهو بهذا درأ شراً باتقاء الامم المغيرة وجلب نفعا عظيما بجلب الارقاء وتعليمهم وتدريبهم وتمليكهم مقاليد السياسة فكان العبيد وعبيد العبيد يتولون الادارة والمالية والجندية ثم يتولون الملك ويدعى لهم على المنابر ولعلك أيها القارىء تسمع عن بني الاخشيد وهم عبيد الدولة العثمانية ملكوا

مصر والشام والحرمين ثم قام كافور الاخشيد وهو عبد عبيدنا فصار ملكا على مصر ومدحه المتنبي وقرنه بسيف الدولة بل فضله عليه فى منتصف القرن الرابع

جلب المعتصم الاتراك وولاهم الجنديه فنظم أمرهم وصار الامر بأيديهم وكان من ذلك الاخشيديون والطولونيون وما كان بيبرس والمظفر والمماليك البريه والبحرية الا مماليك المسلمين تولوا أمرهم

أبعد ذلك يشك عاقل فى أن الاسلام حول رذيلة الرق الى فضيلة عظمي وهو التدريس والتعليم . الرق فى الاسلام كان كلية كبرى ويعلم فيها أبناء الامم الضعيفة التى تأبى نشر التعليم فى بلادها ومن ذا الذى يرجو من العساكر الانكشارية الذين قويت بهم الدولة التركية زمنا طويلا أن يتعلموا ويتهذبوا في ديار آبائهم الجهلاء . هذا ما رأيته فى مسئلة الرق فى الاسلام فليأتنا رجال العلم والسياسة باروبا بمثال واحد من اتباع وصايا المسيح عليه السلام الذى نحبه كحبهم ونجله أعظم اجلال ليأتوا انا ببرهان واحد على أنهم ولوا العبيد السود أو البيض ادارة صغرى أو كبرى فضلا عن الملك ؟ نحن لا نعترض على المسيحية لانا نجل صاحبها وان اعترضوا على الاسلام فأيماننا بعيسى كأيماننا بالله لا نفرق بين أحد من رسله وانما نحن نحكم التاريخ ونسألهم أين ذهبت عناصر أمريكا الاصليون وقد وعظ رجال الدين القسيسون والرهبان فمن ذا الذى أجاب نداءهم وما لاستراليا يتقهقر نسل الوطنيين فيها وما لنا لا نرى رجالا من العبيد يمثلون تاريخا فى أوروبا أو أمريكا كما مثلوه في الشرق

لاجواب علي هذا الا ان المسلمين اعتادوا على صدق النية فى التعليم

والارشاد واتباع نصائح دينهم لاسبيل لسرد وصايا النبي الان ولكن نذكر ملخصها فى قول وجيز : أمر ان يجعل العبد في مقام الابن فعمل بها المسلمون من كان فى شك من ذلك فلينظر أحوال مصر الآن فانك لتجد لبقايا المعتوقين فى بلادنا من المال والعقار والابهة والجلال ما به يستعبدون الاحرار ويسودونهم من غير انكار . كم يفضل المسلم عبده على كل قريب وبعيد أيستطيع ذلك المعترض على الاسلام ان يعاملنا بما عاملنا به أرقاءنا فيتخذ أصغر الطبقات عندنا قواد الجيوش فى انكلترا وسائر الجزائر البريطانية فيحل الفلاح محل ادوارد فوق عرش الملك وتضرب له الموسيقى كما ضربها المسلمون لكافور الاخشيدى عبد عبدهم الاسود ؟ ان مقترح مثل هذا يعد فى جملة المهوسين . واذا لم تستطع أوروبا ان تتخذ أدني الطبقات عندنا في ادارتها في بلادها فضلا عن أرقى الطبقات عندنا بل لم تسمح لها نفسها الكريمة باعدادنا لحكم بلادنا بانفسنا بل تركنا أكثر الدول عدلا ورحمة تحت نير الاستعباد الحقيقى والتظاهر بالرحمة أمداً طويلا

ليترك العالم الاسترقاق ولتمد الدول أيديها معا للاشتراك فى محاربة هذه الوصمة الانسانية ونحن معاشر المسلمين أول المسارعين لها وهل أنبئك بكيفية تقسيم بيت المال على المصارف ؟

جاء فى القران الشريف فى سورة التوبة ان المحصول المجتمع من أموال الصدقات المستخرجة من الارضين والتجارات والزرع وزكاة الذهب والفضة وغيرها تقسيم ثمانية أقسام (١) للقوم الذين اشتد فقرهم (٢) وللمساكين الذين هم أقل فقرا (٣) ولموظفى الحكومة (٤) وللقوم الذين نصطفيهم لمحبتنا كسفراء الدول وأهل السياسة وذوى المودة معنا من المسيحيين وغيرهم

وعامة النزلاء فى بلادنا والمترددين الينا من المعاهدين (٥) وقلم الرقيق لابادة هذا النوع من الوجود أو تقليله وفى مساعدة أولئك الرجال العظماء الذين يغرمون الاموال في اصلاح ذات البين وهكذا فى قضاء الديون التي على أبناء الامة حتى لاتضيع أملاكهم فيهلك الدائن والمدين

٧ وللاعمال العامة من الرى واصلاح الطرق والهندسة والجيش وبناء الحصون وغيرها مما تعم الحاجة اليه

٨ ولبناء النزل للاضياف من السائحين الواردين علينا من البلاد القريبة والبعيدة واكرامهم مع شروط وأحوال خاصة في جميع ذلك وهى هذه الاية

(انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله)

عجبا كيف يقول فريضة فى هذا التقسيم حتى يحتم على المسلمين اخذ جزء كبير من أموالهم لاغاثة الارقاء وابطال هذه الصفة ويقرنها فى القرآن بمصالح الحكومة والبلاد من الرى والهندسة والطب ثم نراه عند الاسترقاق لا ينطق بشىء بل يقول (فاما منا بعد واما فداء)

اذن فنحن نعلن الملأ أن الاسلام ينبذ الرق نبذا ويكرهه أشد الكراهة ويأمر بالمساعدة فى ابادته متى آن الزمن وها هو الوقت أزف فها نحن معكم وأموالنا نقدمها لهذا الغرض الشريف متى كانت لنا دولة ورجع الرق الي انه أمر سياسى بحت فدعوا الكلام فيه مع الاسلام وخاطبونا نحن المسلمين نجبكم

المقالة التاسعة والاربعون

﴿ جاموسه في جنازة ﴾

الجاموسة مذكرها جاموس والجمع جواميس كلمة فارسية (كارميش) والفعل منها جمس بمعنى جمد والجنازة بفتح الجيم وكسرها الميت أو سريره ويتجوز بها عن الميت ومن يشيعونه ولئن تعجب أيها القارىء من هذا العنوان فعجب معناه ولئن استغربت مبناه فما أغرب مغزاه

كم نشاهد نعشا يحمل جثة خاوية يتقدمها العساكر والجنود وصفوف وبنود وصدقات من طعام محمول وجواميس تقاد والناس ينظرون ويقولون هؤلاء الى الله يتقربون ويفدون الميت بما يذبحون ويذكرهم الاهل والجيران بما يحبون ويثنون عليهم بما يظهرون . هذا ماينوخاه عامة الناس فى قربانهم وما ينوونه فى صدقاتهم ولكن تمال معى أيها الاخ الصادق الثاقب الفكر تأمل معي وانظر وحل هذا اللغز المعمى . حل معي هذه السطور الاربعة : النعش والجنود والوفود والقربان قل لى فديتك : الى م تشير وما الذى تستنتج بنور بصيرتك . سطور أربعة لها معان أرقى مما يفهم الجاهلون لو كانت سطوراً فى كتاب لكانت أقرب فهما وأسهل تناولا يفهمها من أوتى حظا من لغة التخاطب ولكنها سطور مجسمة مصورة كبرت كلمات على العقول وعزت معاني على الافهام

لعلها تهدينا الى أخلاق ذوى الاموال وقد كتب عليها بحروف مكبرة لذوى البصائر (انما يتقربون وهم ميتون) الجثة الخامدة في غنى عن القربان وهذه النفوس بخلت بالمال فى حياتها وادخرته وكنزته فجاء الوارثون فاقتطعوا

منه قطعات رياء للناس وسمعة . عجبا المال مال الوارث وقد نفض الميت منه يديه . بخل هو فتصدق الوارث وما نسبة ما يصله من الثواب الا كنسبة ما بين جسم ذى حياة وجسم خامد خاو من الروح

هذا ضرب مثل للامم الجاهلة . فلهم كمثل هذا الجاهل كنز المال فى حياته الحيوانية وهو يشاهد بلاده تتخطفها الايادى من كل جانب ويقتسمون الثروة والغلات والحاصلات والشركات وقد طاف طائف الجهالة على العقول فبخل على الكليات بدراهمه وعلى المعوزين بطعامه حتى اذا جاء أجله وقضى نحبه وعلم الوارث غلطه وجهله تصدق بدريهمات وكسرات وصنع الولائم وبذل النفقات فاستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير وغشي على عقول الجهلاء بما جهل الآباء

ليس المقام في أن الميت هل يناله الثواب فلسنا فى حل المسائل الفقهية فسواء وصله أم لم يصله فنحن فى مقام الكرم والفتوة

المال كَكرة الحرير تنسجها الدودة وتنام فيها نومة مستدفئة بها فاما أن يشتد عليها الحرير فتموت وأما أن تجاهد وتخترق الحجب وتخلص الى نسيم الجو ونعيم الحياة وتتشكل تلك الدودة حشرة تطير فى سعادة وحبور

فهكذا الغنى فان غفل فى سجين المال ونام في ظلماته ونعس مستدفئا في رباط حريره حتى مات فلا ذكر له بعد موته ولا فضل له على أمته ولا سعادة له في آخرته ثم يقبض الوارث على ما نسجه في حياته فيحله بيديه ويقذف بتلك الجثة الخاوية الى الهاوية فأما أولئك الذين أسعدوا نفوسهم بالانفاق وحلوها من الوثاق فهم الذين اخترقوا الشهوات وأنفقوا القربات وقدموها بأيديهم وخلصت بذلك ارواحهم من الجمود واخلال البخل وطارت

أرواحهم بعد موتهم الى عالم سعادتها ونعيمها وأشبهت دودة الحرير اذ مزقت كرتها وفكت أزرارها وقطعت حريرتها وطارت بأجنحتها وأنشدت تغنى بما قال عنتره :

ولا تخرق فراشا من حرير ولا تبسك المنازل والبقاعا

كم من قارىء يسمع هذا فيقول هذا ضرب مثل لا حقيقة له . نقول على رسلك فلقد أثبت الفيلسوف اسبنسر المشابهة بين أرواحنا ورقيها وبين أحوال هذه الحشرات اذ تكون دودة فتطير حشرة فأرواحنا تتربى الآن فى أجسادنا فاذا جاء أجلها رجعت الى عالمها مظلمة أو مضيئة غبية أو ذكية طالحة أو صالحة

المال قربان لارواح الاحياء تنجو به من ظلمات البخل وقوارع الذم وقوارص الكلام

يقول فى الكتاب (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)

ومثل الامة كمثل الشخص الواحد يقبضون أيديهم عن العمل ويجمدون على المال فتنحل عصبيتهم وتذهب ريحهم وتخرج روحهم وتحمل جثثهم على اعناق رجال من أمة أخرى وتفرق أموالهم بايدى الذين ورثوهم ويقال لهم

نرى فيئهم في غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات

تنادى الامم الخامدة الجاهلة القابضة على أموالها اذا خرج الامر من أيديهم (أنفقوا طوعا أو كرها لن نتقبل منكم انكم كنتم قوماً فاسقين)

واني انذركم الطامة الكبرى والصيحة العظمى أنذركم يوماً يشيب فيه الولدان يوم يسحب أبناؤكم فى نار الذل على وجوههم ويقال لهم ذوقوا مس سقر الاستعباد . ذوقوا ما كنتم تكسبون . ذوقوا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون يوم تصير الامة كالميت المحمول والجنود بها يحيطون وأموالهم تفرق شذر مذر

هذا مايفهمه العاقل من تلك السطور الاربعة المجسمة . وانها طلسم الامة ولغز يحله العاقلون فيوازنون بين حياة الرجل الجاهل وموته وجنازته وتفريق وارثه أمواله وبين حياة الامة الخاملة وموتها وجثتها الخامدة المحمولة على نعش أمة قاهرة حوله الجنود وتفريق أموالها بأيدى أولئك الوارثين من تلك الامة القاهرة

انفاق المال

لعلك تقول فى أى سبيل أنفق الاموال . كم تصادفنى عجوز قد حنى الدهر من عودها وأنقض ظهرها وانكمش جلدها وخارت قواها فسألتنى درهما فأعطيتها وكم كسوت عارياً وأطعمت جائعا

ولقد أنفقت على الكتاب وشيدته وسأوقف أطيانى على الحرمين الشريفين وربما بنيت رباطا وشيدت مسجداً . أقول هل أنبئك بخير من ذلك مثوبة عند الله والناس ذكر فى الدنيا والآخرة

أنفق مالك في تأسيس الكليات الجامعة الاسلامية . فوالله لان تربى رجلا واحداً حراً عاملا خير لك وأبقى من بناء كتابين وتشييد مدرستين صغريين واطعام الفين وبناء تكيتين

العلوم العصرية صارت واجبة على المسلمين فعلمهم بمالك فهو أفضل

وأبقى من أولئك الذين يأكلون في التكايا وهم نائمون رب رجلا في مدرسة كلية يكفك مؤونة ألف عجوز هو يبنى لك المساجد يحيي الارض بعد موتها يطبب الناس يقضى بينهم بالحق ينشر الفضيلة يشير لهذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم (لان يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم) والمراد بها الابل الحمر وقد كانت أشرف أموال العرب تسألك العجوز كسرة خبز . الامة عجوز أبناؤها أيتام لا كافل لهم لا أب لهم يشفق عليهم ويعلمهم فكن أنت الرؤوف بأبنائها الرحيم بهم الشفيق عليهم لتكن أنت أباهم البر الرحيم

المقالة الخمسون

أدب الهرة والانسان

بصرت بهرة تخطر فى فناء مدرسة لاأنيس به حتي أتت حائطا فوقفت لحظة فحفرت حفرة وقضت حاجتها ودفنت ماأحدثت فهالت عليه التراب مرة ولما أدركت أن الارض لم تسو هالت التراب مرة أخرى وسوت الارض وولت سائرة

صنعت هذا وأنا أراها ولا تراني أتدرى ماالذى اعتراني . جال فى خاطرى الفضيلة والرذيلة والطبع والتطبع والرقى والوقوف والتدلى وقلت ياليت شعرى أهذه غريزة فى هذا النوع أم تعلم من الانسان . ينقض الاول مانشاهد فى بعضها من تركها ذاك ولئن تعلمه من الانسان فكيف صار فضيلة راسخة . نقول فضيلة لان علماء الاخلاق لايسمون الخلق الحسن

فضيلة مالم يصر ملكة راسخة فى الانسان . هذه الهرة قلدت الانسان اتخذ بيوت الخلاء فوارى فيها خبائثه . استمسك الهر بالفضيلة فعلها فى خلوته لم يره أحد لم يفعلها لرياء الناس أو خوفا من عقاب فانه لم ير أحداً حوله نعدها له فضيلة وان كان علماء الاخلاق لايسمونها الا للانسان فأنا لست فى مقام الالفاظ والتسمية . الامر عجيب كيف يأخذ الحيوان عن الانسان وقد أخذ الانسان عنها دفن الموتى اذ قلد الغراب تعجبت من الهرة وطهارتها ونظافة شعرها وتطهيرها الارض ثم تقول من القضايا المقررة ان الانسان بل العالم كله في ارتقاء مستمر وهاهو الانسان يستر جراحه خشية أن ينفر الناس منه ويتحاشاه الاصدقاء فضلا عن المعارف ولكنه لا يزال يجهل مركزه فى الحياة . تنبعث في براكين أفواه أقوام حمم العداوة والبغضاء يقذفون بها فى المجالس وهم للفضيلة كارهون يعادون أصدقاءهم لصدور الفضائل على أيديهم .عجزوا عنها ويئسوا منها فحاربوا أربابها وياليتهم يدفنون مايكنون ويسترون ذلك العضو المريض وهو اللسان فيقفلون عليه المصاريع الاربعة أو لاينظرون الى العامة يسترون جراحهم حتى لا ينفر منها الناظرون فهلا ستروا ماهو أدهى وأمر من صفات الباطن الخبيثة المتفجرة ينابيع على جوارحهم والناس يكرهونها ويكتمون . فأين رقى الانسان اذن ؟ لعل رقيه في الماديات اما الاخلاق فهى في وقوف ان لم تكن تدلت الى الحضيض

نحن الآن أحوج الى الاخلاق والفضائل منا الى الماديات . يظن أقوام أن الشرقيين فى هذا الحين عاكفون على الفضائل عالمون بها اكثر من الماديات ولكن المتأمل يعلم العكس تقهقرنا فى الفضائل أشد من تقهقرنا فى المادة . المادة ثمرة العمل والاعمال باتحاد العمال ولا اتحاد بلا

أخلاق كم دارس قشور العلم جاهل بحقائقها عاجز عن نشرها ينتبذ من بيته مكانا قصيا ويأخذ في سباب من يعلوه فضلا بغيا وحسدا أولئك الذين قال فيهم ابن حزم مانصه

(من بديع مايقع في الحسد قول الحاسد اذا سمع انسانا يغرب فى علم ما هذا شيء بارد لم يتقدم اليه ولا قاله قبله أحد فان سمع من يبين ماقد قاله غيره قال هذا بارد وقد قيل قبله وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للقعود فى طريق العلم يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال) هذا ماقاله ابن حزم القرطبي المتوفى سنة ٤٥٦ من الهجرة يصف أولئك الاقوام الذين لاتخلو منهم أمة لاسيما في بلادنا وقد طفحت بهم

ياقوم قل العاملون فى بلادنا وان كثر المتعلمون ألا فلاتكونوا لهم أعوانا لاأعداء

يقول فى الحديث (كن عالما أو متعلما أو محبا أو مستمعا ولا تكن الخامسة فتهلك)

لاتخاطب بهذا من رسخت فيهم الرذيلة وصارت ملكة ثابتة فأولئك كالذباب والحيات والعقارب تأوى الى الاماكن العفنة فتلتقط القمامات الحاملة للصمو (المكروبات) فتكون أغذيتها من خبائث المواد فتتولد سما قاتلا حتى اذا اقترب من أمكنتها أحد لدغته فأوبقته وأهلكته وترى الذباب لايغتذى الا من الاقذارولا يعلو الوجوه الا ليستخلص منها لنفسه ماخبث من بقايا المواد العفنة

والجعلان اذا اشتمت ريح الورد استضرت ولا تألف الا ما عشقته طباعها وأحبته نفوسها من الخبائث والقاذورات

الاغذية تنقسم الى قسمين طعام الاجسام وعلوم ومعارف للارواح والطعام الخبيث لا خبث الحشرات وأدنى الحيوان والغذاء الجيد لاعلاها نوعا وأشرفه وأرقاها

هكذا الاغذية العقلية أعمدة من النور وأخر من الظلمات فذوو الحكمة والادب تغتذى أرواحهم بأجمل المعاني وصور العلوم البديعة فتشغلها عن السفاسف والرذائل لاشيء في الوجود معطل الدنيا دار شغل ونصب فهؤلاء ملأوا عقولهم بما جمل من الآراء وحلوها بحلى الاخلاق وحلت في نفوسهم صور الفضائل محل صور الرذائل فازدانت وابتهجت وآخرون خلوا من الفضائل فحسدوا الفريق الأول فاستحبوا العمى على الهدى فقطعوا أوقاتهم بذم الاولين فاشبهوا الحيات والعقارب تمتص العفونات وتأكل المكروبات وتلدغ من دنا من الامكنة الخربة رحمة بالعالمين . الاماكن الخربة عمرت بالمكروبات والاكسيد والهواء الفاسد فالمقترب منها أدني الى الامراض من قاب قوسين فكانت تلك العقارب نذيراً مبينا فتعرضت للدغ المقتربين من تلك الامكنة وصورت لهم صورة الامراض من ملاقاة المكروبات وصورة السم المقذوف فى الملدوغين

هكذا حملة الاقلام وأهل العلم قد يغفلون عن الفضيلة فى أقوالهم وأفعالهم فنصب هؤلاء أنفسهم لالتقاط القاذورات اللاصقة بأخلاقهم ثم يزيدون اثما وفرية ويقعدون لهم في كل مرصد ويناصبونهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا لحربهم أطفأها الله بظهور فضائلهم ويسعون فى الارض فسادا والله لايحب المفسدين

فريق الجهال لايختص بالاميين بل هم أقرب للفطرة وأدنى للسلامة

فريق الجهال هم أولئك الذين سابقوا الى الفضائل فسبقتهم فذموا ساداتهم فكان ذلك ناراً فى قلوبهم ونوراً لاعدائهم

عداى لهم فضل على ومنة   فلا أبعد الرحمن عنى الاعاديا

هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها   وهم نافسونى فاجتنبت المعاليا

يزيدون فى ذمهم فيلفتون الانظار ويوقظون لهم العقول فينتشر فضلهم ويبعد صيتهم يختلقون لهم الا كاذيب ويفترون عليهم رحمة بهم لتكون تلك المساب أشبه بحصن حصين لاولئك الفضلاء وهداية لهم وانذارا فيما عساه يقع منهم فى مستقبل أمرهم . أولئك زنابير الامم وذباب الاجيال وجعلان الرجال خلقوا فى نوع الانسان أشبه بمن يكسحون المراحيض ويكنسون الطرقات

نفوسهم تطالبهم بأغذية روحانية لانها عاطلة فلا يستجيدون الا ماخبث من لحوم ساداتهم ساء مثلا القوم الغافلون وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب (بالكسر) لتحسبوه من الكتاب (بضم الكاف) وما هو من الكتاب . ان هو الا جل نبذه العلم فانتبذ مكانا قصيا ومنهم أميون لا يعلمون القول الا تقليداً وأماني ومنهم قوم استكبروا وقالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا وما بلده علمنا وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وكبروا أن يتعلموا فصغروا عن الرقى و قصروا عن العلا

والمستكبرون يجاوزهم العلم وان قرأوا قشوره ودرسوا قواعد اللغات وما اللغات الا رسائل الفهم . منزلتها من العلوم منزلة الرسول من الكتاب فكيف بقواعدها وبلاغتها وصرفها . فهؤلاء عن الفهم معزولون

(سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا

كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)

وليس من هؤلاء فريق المصلحين الذين ينتشلون اخوانهم من وهداتهم الى الاتحاد ويسقونهم بماء الحكمة ليتسموا بالفضيلة فتمازج أرواحهم وتتشاكل شمائلهم ويكثر فرحهم بكثرة أشباههم وأمثالهم فتتزاوج عقولهم تزاوج أصوات الموسيقار في موسيقاه تزداد اطرابا كلـما تناسبت كيفياتها وتكاثرت كمياتها (ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) اهـ

المقالة الحادية والخمسون

الرسالة القازانية

وهي عبارة عن اجابة سؤال وجهه اليه أحمد شبان اقازان يقول « أبلغ علماء الاسلام المتقدمين النهاية فلا نفكر نحن بعدهم أم بقي لنا مجال للتفكير في أمر الدين » وهذا الجواب نشر في ثلاث مقالات ٥١,٥٢,٥٣ تنشيطاً للقراء وتسهيلا للفهم

أيها العزيز : سألتني عن مبلغ ما وصل اليه علماؤنا السابقون وهل شادوا صروح المدنية ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد اليهم من القيام بما يكفل للامة ثباتها ودوامها ويكلأ غدوها ورواحها . سألت من أحسنت به ظنـا ومن لي بأن أكون ذلك الخبر الخبير العالم بأسرارهم المحيط بعلومهم المطلع على جلياتهم وخفياتهم وما كان لي أن أقف حكما في موقف عظيم مهيب طأطأت لعظمته رؤوس الرؤوس وخضعت لجلالته اكابر حكماء الشرق واساطين الحكمة في الغرب قوم يقول فيهم سديو الفرنساوي في كتابه ان هؤلاء الاطباء الفخام والفلاسفة الكبار والمهندسين الاجلاء والعلماء الاعلام في قارة اوربا [illegible] تلاميذ علماء الاندلس المسامين . وبرهن

على ذلك بآيات بينات و حجج واضحات جليات . قسم كتابه أبوابا وأبان فيه ان كثيراً من مخترعات الاوروبين واكتشاف المكتشفين كانت قبسات من أنوارهم وتفحات من أسرارهم عثر عليها الباحثون في كتبهم فنقبوا عن أسرارها واكتنهوا كنهها ثم ترجموها فأحرقوها وأسندوا الاكتشافات الي أنفسهم ولقد فصل ذلك تفصيلا فى الفلك والطبيعة والكيمياء وذكر أسماء أناس غربيين فى نحو القرن الرابع عشر ادعوا اكتشاف عجائب من الفلك فدحض حججهم بأنه اذ ذاك لم تكن صروح للرصد قائمات ولا بروج لبلوغ أسباب السماء مبنيات فى عواصم الشرق

أناس كانوا نورا الله للناس فازدانت بهم الدنيا وأشرقت بهم الارض فافاضوه على غيرهم من الامم الغربية

هذه مسئلة دوران الارض حول الشمس تجدها مسطورة فى كتاب المواقف وقد وضحها الشارح هناك أيما ايضاح وذكر الخلاف القائم بين المذهب القديم وهو دوران الارض المعلوم قبل أربعة آلاف سنة وبين المذهب الحديث وهو ثبوتها فى المركز ودوران الشمس حولها وهو مذهب بطليموس قبل الميلاد

أليس الناس أصبحوا يقولون ان دوران الشمس هو المذهب الجديد وينسبونه الى كوبرنيكوس العالم الاوروبي الحديث المولود بعد تأليف المواقف بل بعد شرحه بمائة سنة

أليست أوروبا تفتخر علينا بمثل هذه وتقول هي مذاهبنا الحديثة وهي مسطورة فى كتب المسلمين تقرضها الفارة تحت جدران الازهر ودور كتب الاسلام جاء عالم من علماء أوروبا فى عصرنا وسار فى البلاد شرقا وغربا يدعي

اختراع الكتابة بالفضة على الزجاج وأعطته الحكومة المصرية مبلغا عظيما من المال فقام فى ذلك اليوم حكيم من حكمائنا وأرانا رجلا لا يؤبه له يصنعها بالميراث عن الاساتذة المصريين فى هذا الفن

عثر على مبارك باشا على كتاب فى رسم المنحنيات فاستعجم عليه واستغلقت معضلاته عليه فلم يوفق لفتح كنوزه ولم يهتد لحل طلاسمه وأشكل أمرها عليه فاستعارها منه عالم افرنسى فغاب عشر سنين وأرسل كتابا فى رسم المنحنيات ضخما مفصلا تفصيلا ونسب الاختراع الى نفسه فعض الباشا على يديه وسقط في يده وقال ياحسرتا على ما فرط الشرقيون

منذ شهر قابلنى استاذ من أجلاء علماء الانكليز المستشرقين فاخبرني أن عالما المانيا طار صيته فى الآفاق بالفلسفة أقبل عليه الغربيون أيما اقبال وأهم ابحاثه التفريق بين المحسوسات والمعقولات ثم قال ولقد عثرت على ابحاثه في الفصوص لابن العربي وسأترجمها باللغة الانكليزية ليطلع علماء أوروبا على ألوية العلم التى كانت منشورة على ربوع الشرق قبل يوم تنفس صبحه على أوروبا فى ليلها الاليل وضلالها القديم

لعلك تريد بالسؤال علماء الدين كالائمة الاربعة رضوان الله عليهم فمن بعدهم . أولئك كانوا مصابيح الدجى وأنوار البصائر وشموس الحق فى آفاق الشرق

وما تقول في قوم يستنتجون علوم العبادات والحيض والنفاس والطهارة والنجاسة والحج والصيام والزكاة والقضايا والدعاوى والميراث وأحكام الزواج والطلاق والصيد والذبائح والبيع والهبة والوقف والاجارة والعارية واللقطة وغيرها من [illegible] من الاحاديث معدودة وآيات من القرآن

محدودة لا تصل المائتين

وهاهو الشافعى رضي الله عنه استنتج دليلا من أدلة الفقه الاربعة وهو القياس (كقياس النبيذ على الخمر فى التحريم) من آية واحدة وهى قوله تعالى (فاعتبروا ياأولى الابصار) وهى واردة فى تحذير قوم من الكفار واخافتهم من ظبات الهند والمثقفات السمر وخزاً وطعنا فيحل بهم البوار اذا حمى وطيس الحرب بينهم وبين المسلمين بعد ان أذاقوا أمثالهم عذاب الخزى فى يوم بدر وسقوهم كاس الموت الزؤام واصلوهم ناراً حامية على قليب بدر . عجب عجاب يقتبس الشافعى من آية في تحذير من حرب اقيسه فقهية لانهاية لها يحكمها فى أحوال المسلمين عامتهم وخاصتهم . هذا المثال الصغير سيريك بأجلى بيان وأوضحه ما كان لهؤلاء العظماء من توقد الذهن والحرية والاقدام وكبر العقل وبعد الهمة أولئك استفرغوا مجهودهم فى ضروريات الحياة ورتبوا أحكامها بما يطابق أحوال أزمنتهم وأمكنتهم فاحسنوا صنعا واحكموا وضعا

أيها العزيز : اقرأ رسالة الشافعى رضى الله عنه تجده يقول مافرض الله على المسلمين فى الفقه اكثر مما يعرفه العامة جيلا عن جيل وطبقة عن طبقة وجماعة عن جماعة الى زمن النبوة فاما مازاد عليه فهو فرض كفاية يعرفه رجال من الامة بحيث يستطيعون كفاية الامة وشمولها والا عذبها الله مرتين وأصلاها نارين ذل الحياة وسعير الممات ولم يفرق رحمه الله بين التبحر فى الفقه الاسلامى وفى غيره من علوم الحياة من جميع الصناعات كالطب والهندسة وما نحتاج له فى حياتنا

أيها العزيز : تنحصر أعمال أولئك الائمة العظام فى أمرين خاص وعام

فاما الخاص فذلك تفصيل فروع الفقه اذ لم يقم غيرهم مقامهم وهى أمور ضرورية كفصل الخصومات والدعاوى والميراث والعبادات

وأما العام فانهم قالوا ان عامة العلوم والصناعات التى يحتاجها الناس في حياتهم الدنيا فروض كفايات يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم وأسعدهم استعدادهم لحملها ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره ففكت العقول من عقلها ونهضة الامة من مرقدها وانتشرت الحرارة الحيوية وأشرقت شموس العلم على ربوع البلاد فظهر فيهم أمثال المنصور والرشيد والمأمون وترجموا الكتب اليونانية الى العربية وقامت الحركة الفكرية وساروا شوطا بعيداً فى ميدان الحياة والسعادة

طويت تلك القرون كطى السجل للكتاب وحصر علماء الدين هممهم فى فروع الفقه وحدها وقصروا هممهم على القضايا الفقهية وجالوا فيها جولات وحمى بينهم وطيس الجدال فى ميدان الخلاف وتسابقوا لاصولها وفروعها ولم يعيروا غيرها التفاتة بل زادوا الطين بلة ووضعوا ضغثا على ابالة اذ ذموا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة

وقد علمت انهم نظراؤهم فى قيامهم بركن من أركان الحياة وسعيهم معهم الى رقى الامة وسعادتها

ولقد حملهم على ذلك أمران . الاول انهم رأوا الأئمة العظام رضوان الله عليهم هم الذين دونوا هذه الاحكام باجتهادهم ولم يفطنوا أنهم أوجبوا العلوم على السواء ولم يفرقوا في الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه وقيامهم به وحدهم لانه أهم فتقديمه محتم وتركوا النظر فى العلوم الاخرى لسواهم . الثانى انهم اذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استطالة على الاقران ولا

تولى الادارات القضائية والاحكام السلطانية نبذوها بل ذموا القائمين بها فانقسم الناس اذ ذاك فريقين فريق للعلوم وفريق للدين

ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الغزالي ورأوا ان السلف الصالح خاف من بعدهم خلف أضاعوا العلوم وانكبوا على فروع الفقه وصرفوا كثيراً من الناس عن علوم الحياة والعمران والطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة وتوهموا ان الدين يطلبها كالفقه سواء فاخذوا يحملون الناس على قراءتها وعدوها علوما دينية

ألف الغزالى كتابا سماه (احياء علوم الدين) ومزج الفقه كالحلال والحرام بعجائب الحكمة الالهية كالسحاب والهواء والماء والارض والانهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وعجائبها ونواميس الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس

ولقد شرح في كتاب الشكر من الاحياء أنواع السعادات وجعلها ١٦ قسما وأدخل فيها العلوم أجمع وترى الغزالى أتي بعجب عجاب فى حكمه فتارة تراه يذم الفلاسفة ويكفرهم وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالقصور والجهل ثم أشار فى كثير من كتبه الى انهم من العامة هم ورجال علم التوحيد

ولقد فكرت فى ذلك كثيرا فتهمت أن الرجل رأى المسلمين قد أشربوا كراهة العلوم بما أوحى اليهم أولئك العلماء القاصرون فأنحي على الفلاسفة فى تعاليمهم وكفرهم موافقة للعامة ولكن فى نحو ثلاث مسائل لاغير ثم رجع الى أولئك العلماء القاصرين فأوسعهم ذما وتقريعا ليطلق الناس من أسرهم ويفك قيود تقليدهم

ولما أعلن ذلك عمد الى مسائل الفلسفة فوضعها فى قوالب اسلامية

فتراه ذكر في باب الشكر نواميس كثيرة وفي باب الفكر عجائب الصفة الالهية وتراه اقتبس أقيسة المنطق الاربعة فى كتاب القسطاس من القرآن استئناسا لقلوب عامة المسلمين لحوز هذه العلوم واخراجا لهم من حظيرة الجمود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى فحرموا المسلمين العلوم العقلية والحكمة واتبعه بن رشد وناقشه فى بعض القول واوضح فى كتابه فى التوحيد ما يجب على علماء الاسلام من معرفة العلوم الكونية وانحى على الجامدين الجاهلين وأناخ بكلكله على طريقة تعليم التوحيد واشار الى من بعده ان يمزجوا علوم الكون بالدين ويجدوا فى اكتسابها واكتناه كنهها والتشمير في طلابها ثم خلف من بعده خلف رأوا وعورة الطريق وبعد الشقة فاستصعبوا الامر وأوجسوا خيفة أن يصغروا في أعين اتباعهم فحكموا بكفر أولئك المرشدين وصارت تلك سنة في الغابرين كلما جاءهم عالم بما لاتهوى أنفسهم من الجمود والجهل استكبروا عليه ستراً لجهلهم وحفظا لمراكزهم وصونا لمقاماتهم أن تسام بسوء ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون . ولئن سألتهم لم نبذتم هذه العلوم قالوا قلوبنا غلف وفى آذاننا وقر

ولعمرك اذا كفر الرازى وابن رشد والغزالى واضرابهم وهم الذين طأطأت لهم رؤوس الماضين والغابرين من العلماء فليس على وجه البسيطة مؤمن

ومن العجيب ان العلماء يعظمونهم عند ذكرهم واذا قلت لهم هؤلاء دونوا العلوم التى يقرأها صغار التلاميذ في المدارس وأهل أوروبا يدرسون علومهم في مدارسهم ينغضون اليك رؤوسهم ويقولون مالنا ولهذا . اننا نقرأ الوجيز و البسيط للغزالى وما عداه فليس من الدين فى شيء

وبينما نرى هؤلاء يبغضون العلماء من وجه نرى زعانف الصوفية « لا أكابرهم » يمرحون فى الارض بغير الحق ويقولون : العلم حجاب بينك وبين الله فاجعل صورة شيخك في خيالك والله من ورائها واياك والعلوم . يقولون ذلك لئلا يستضيء الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الدجالين وينبذونهم نبذ النواة فأرسل الله طائفة أخرى ظالمة غشتهم بغاشية من عذاب الظلم فأرهقت الامة واستعبدتها وأخذت تلعب بالعلماء وتقرب زعانف الصوفية وتصطنعهم آلات كهربائية تحرك بهم صوراً من الرجال وأشباحاً من الجهال فى مراسح الحياة وتمثل بهم فصولا فى الحياة والسياسة . فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث ونامت الامم الاسلامية أجنة فى الدهر خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث سلط عليهم سيولا جارفة وصواعق محرقة من أمم الافرنجة فأذلوهم واستبعدوهم ومزقوهم كل ممزق وتفرقوا أيدى سبا

المقالة الثانية والخمسون

أيها العزيز : اذا اختصرنا نقول أضاع الاسلام ملك ظالم وصوفي طامع وفقيه جاهل اتحدوا على جهالة الامة لينالوا حظ الرئاسة

أما وربك لو انهم رجعوا الى القرآن لرأوه سوى بين العلوم على تباين مشاربها

ليس الفقه تلك الفروع المدونة ! ألا أنما الفقه هو الفهم فليس مختصا بنحو فروع الحيض التى قد تبلغ أربعة الآلاف

أليس القائل فى الحيض (ويسألونك المحيض قل هو أذى فاعتزلوا

النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) هو بذاته الذى أنزل قوله تعالى (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فاني تؤفكون) ثم هو الذى لم ينزل آية حيض النساء الا بعد أن سئل النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل ناموس النبات وعجائبه بدون سؤال أليس ذلك برهانا قويا وحجة لا معة على ان هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجوب على الامة من تلك الفروع الفقهيه التي يشيب الدهر ولا يسأل عنها سائل لا بل أصبحت كأنها عبادة يتعبد بها الناس وهم لا يعلمون مابها يصنعون

لم يجب عن الخمر والقمار الا بعد السؤال

فقال (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس)

ولكنه أنزل بيان عجائب الليل وبدائع الصبح واشراق الآفاق وبين بديعة من العجائب بلا سؤال فقال

(فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم)

وهو الذى لم يجبهم عن معاملة اليتامى وهى أحرى بالعناية من غيرها الا بعد السؤال فقال (ويسألونك عن اليتامي قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح) مع انه هو الذى أنزل بلا سؤال بيان عجائب النجوم وعجائب تكوين الاجنة في بطون أمهاتها وأركام السحاب وانه به ابتهجت الارض وأنبتت من كل زوج بهيج عجيب الاتقان بديع الحكم مفصل تفصيلا عجبا ولم يكفه البيان حتى أمر بالنظر

في الثمر ونضجه والنبات وبدائعه فقال

(وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بهـا في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحـدة فمستقر ومستودع قد فصلنـا الآيات لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء فاخرجنا منـه خضرا نخرج منـه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانيـة وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغـير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)

فتراه ذكر النجوم وهديها والنفوس البشرية وخلقها والسحاب وأمطارها والنبات وبهجتها والاثمـار وأنواعها والنخيل وقنوانها والاعناب وجناتهـا والزيتون والرمان وتشاكل أوراقها وتباين أثمارها وأمرنا بالنظر فى الاثمـار ونضجها

وجعل معرفة هذه خاصة بالعلماء والفقهاء والمؤمنين . أنزل الله ذلك وقرأها النبي بلا سؤال من أحد وما ذلك الا لان هذا من علوم الدين وان نبذه من لايعلمون

وهل الذى يقول فى الكتاب (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعـام مختلف ألوانه كذلك) يذكر المـاء والثمرات والجبال وألوانها الحمر الناصعات والبيض اليقفات والسود المدلهمات وهكذا الدواب والانعام ثم يقول عليها (انمـا يخشى الله من عباده العلماء) أنزل هذا بلا سؤال من أحـد وجعل أولئك المفكرين فى هـذا هم العلماء

وحصر الخشية فيهم من ذا الذى يرى هـذا ثم يشك فى أن الذين يعلمون هذه العلوم أعز مقاما وأرفع جاها وأعظم قربا عند الله ممن أضاع العمر فى مسائل الخنثى المشكل ودقائق الحيض والنفاس ومسئلة الخفين وغرائب النجاسة

أيها العزيز

أليس الذى أعلمنا أن الوالد ينفق على زوجته مما آتاه الله حولين كاملين اذا أراد اتمام مدة ارضاع طفله بقوله (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس الا وسعها لاتضار والدة بولدها اليس هو نفسه الذى أبان أن السموات رفعت على الاثير الذى لا نراه وانه أدار الكواكب والشمس والقمر وفصل هذا العالم تفصيلا عجيبا ودبره تدبيراً محكما ففصل السموات عن الارض فمدها ودحاها وثبت فيها الجبال وأجرى الانهار ونوع الثمرات فصلها ذكرانا وأناثا وألقحها بالملقحات من الهواء والحشرات وجعل في الارض مناطق مختلفات متجاورات وحقولا مختلفات وزرعا ونخيلا تنوعت أثمارها وألوانها وطعومها وروائحها مع اتحاد الماء والهواء أبان ذلك كله فى قوله

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)

هو الذى أبان القاح النبات جليـا واضحـا فى قوله (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وقوله (جعـل فيها زوجين اثنين) وقوله (وأرسلنا الرياح لواقح)

أيها العزيز : انى أخالك تسألنى عن أحكام الدين من الطلاق والخلع والنفقة والعدة وما شاكل ذلك مما قد يتخذه بعض العلماء حرفة يحترفون بها انى أنبئك عن ذلك

أنبيء الشبان ان قوما من العلماء يستمسكون بمذهب من المـذاهب أو رأى عالم من العلماء ولو أرهقوا الناس عذابا وحرجا وضيقا وأصـلوها ناراً حامية . ترى بعض الفقهاء ينظر بعينه المرأة وقد انتبذ منها الزوج مكاناً قصيا وتركها لا هو يطعمها ولا هو يدعها تأكل من أرض الله وتتزوج بمن يعولها ويرى كثيراً من الازواج يذرونهن يتخبطن فى دياجير الحياة ليتكففن الناس يسئلنهم القوت الحافا ويثبتون الاعسار عند ذلك القاضى ثم لا يطلق عليه فيقال له وهلا اتخذت معها سبيلا وسلـكت بها نجاء غير هذا المذهب يجيبك هذا قول أبى حنيفة النعمان وهومذهب السلطان . فان قيل له وهلا قلدت السلطان وقد سلك برعيته أحسن مسلك واتبع أبعد المذاهب وآنذرها وأغربها تسهيلا على الناس فلم يزج بنفسه فى ضيق مذهب واحـد من الاربعـة بل جاوز ذلك وقلد سواها أفلا يسعك ما وسع خليفة المسلمين فيقول لك (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) كان لا يتجاوز ذلك ويذر النساء يسرقن ويزنين ويقتلن أولادهن تحت أذقان الامة استهزاءاً بها واستخفافا بحقها عمداً ليحصل على منصب فى يديه ولا يشرك معه في الحكم شافعيا أو مالكيا ويكون أهون عليه أن يكون الحكم بقانون الرومان أو آراء نابليون . فأما

مذاهب الاسلام فلن يجيزها طمعا وشرها واستكباراً . حرام عليكم ان تصمتوا على هذا العار ان هى الا غفلة وأي غفلة هذا الخلق ورثه القوم كابراً عن كابر جيلا عن جيل

أيها العزيز : أيرضى ذلك الذى انزل فى الكتاب ناموس الترقى فى الحياة وضرب له الامثال بجمله كالزبد يعلو الماء اذا سقى الارض واغرقها وهكذا أزبد آخر يطفو على مايطبخه الناس فى قدورهم وما يعلو المعادن عند تذويبها ثم تطبيخ تلك الازباد والرغوات التى أشبهها الباطل ويبقى مايصلح الناس من ماء تنمو به الزروع وطبيخ تسمن به الابدان وجواهر وحلى وصناعات كيماوية تتحلى بهاء الصدور والرؤوس وتصلح بها أحوال الحياة هكذا ضرب مثل الحق والباطل في قوله « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال) ألم يقل (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب)

هذا ناموس الرقى فى هذه الحياة الذى افتخر به علينا الافرنج وهو فى كتابنا ونحن عنه غافلون وربما تغنى به المتغنون فى القرآن ثم اذا أيقظتهم الى العمل به والسير على موجبه تولوا وأعرضوا وقالوا حسبنا مانحن عليه . وهل الله الذى يقول (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) يكلف الناس أن يخضعوا العالم يرهقهم ذلة ويغشاهم بشواظ من نار ونحاس من جهل فاذا غضب قال أيها الثقلان لا تنتصران

أيها العزيز قل للشبان ارفعوا رؤسكم أقيموا وجوهكم لا تطيعوهم واهتدوا أنتم واسئلوا رجال أمتكم اصلاحا اسئلوا أهل الذكر وذوى الحل والعقد من الامة أن يستلموا وجوه الاصلاح ويذروا أوجه الاضرار ويسنوا سننا تكفل الناس بالعدل وتشملهم بالرحمة ويطبقوها على آراء توافقها من آراء المسلمين أيا كانوا من المذاهب الاربعة او غيرهم يفعلون هذا مادامت الامة فى سكرتها وما فتئت فى جهالتها فانهم يخلدون الى آراء القدماء يطمئنون لما أوصى به العظماء فاما اذا استناروا بعد هذا الجيل فلتكن آراء رجال الامة وعظمائها وحكمائها الموافقة للكتاب والسنة هى الآراء الاجماعية ويكون حجتهم جديدة (لا تجتمع أمتى على ضلالة) ولا يظن ان ما ارتآه ملايين من علماء الامة فى الف وثلثمائة سنة لا يسع الناس في دينهم ودنياهم كلا لقد ساسوا الناس بآراء وأحكام لها علائق بالزمان والمكان والكتاب ولا يوقفنكم عن الرقى أولئك الجامدون الذين يطببون الناس أجمعين بدواء واحد ويطعمونهم جميعاً طعاما واحدا

أيها العزيز : ان المستقبل للشبيبة فلا تتكلوا الا على أنفسكم قل تعالوا أتل ماحرم عليكم ربكم الا تذروا الاصلاح اتباعا لفقيه متعصب ولا تكونوا للطب تاركين وللهندسة ناسين وعن العلوم الكونية معرضين ولا تكونوا عالة على الامم الغربية بل اسعوا سعيهم واقرأوا علومهم وسيروا معهم بسلام ووفاق وتذكروا قوله تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون)

أيها العزيز : لئن جاءكم فاسق بنبأ الخذلان والجهل فتبينوا خبره ولا يصدنكم عن سبيل الله فقيه متعصب فانما التعصب لقوته لا الاسلام ولا

يحر منكم شنآن الصوفية للعلوم وبغضهم للمعارف ولا يرهقنكم الامراء بالجهل ابتغوا الوسيلة للمعالى بالعلوم ولئن اتبعتم أكثر من في الارض يضلوكم عن سبيل العلا والشرف . ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون

ابغضوا كل رئيس لا يعين على العلوم وأحبوا كل أمير وعالم وصوفي يحثكم على مجاراة الغربيين

أيها العزيز : انا لنرجو منكم فوق ما سطرناه نرجو ان تكونوا قدوة الامم اجمعين فما بالنا أصبحنا أذنابا عاجزين وفى أخريات الامم قاصرين وفى قيافى الجهالات تائهين وعن سبيل الاصلاح معرضين

المقالة الثالثة والخمسون

أيها العزيز : ليكن كل قدوم ومنشار وابرة وبخار وحرارة وكهرباء مما عملت أيدينا ومتى أعوزتنا الايام الى ابرة أو مدفع مما عمل سوانا فذلك اثم كبير على المسلمين نعذب به مرتين مرة فى الحياة وأخرى في الممات

أليس الذى قال فى الكتاب (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) هو الذى يقول (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الامم وعمرانها وخرابها وسياساتها كما أوجب الحج فى ميقاته على المستطيع . أتدرى لماذا ترك الناس الاول وأدوا الثانى لان الحج سهل معروف أما السير فى الارض فما أحوجه الى اللغات وفهمها والاموال وصرفها والعلوم وجمعها وذلك أصعب الامور وأشق على الجمهور. فاستحب

الناس العمى على الهدى والراحة مع الذلة وذل الاستعباد مع التخلف وطبع على القلوب فهم لا يفقهون

طمس على قلوب كثير فاتبعوا أهواءهم وصدوا الناس عن سبيل الاصلاح . صرح بهذا الكتاب فقال :

(أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)

وفى هذه الآية من التقريع والذم والتوبيخ على الكسل والتخلف عن السير فى الارض مايدلك على ما ذكرناه

وتراه لم يكتف بذلك التوبيخ بالعمى بل صرح بان ايمانهم معدوم فقال (قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) ثم هدد بالعذاب فى الدنيا فقال (فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين)

وقد أكد ذلك الانذار والتهديد بقوله

(قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) ثم ذاق المسلمون انهم تفرقوا شيعا وتمزقوا طرائق وتفرقوا خرائق واقتتلوا أجيالا طوالا وهو قوله (يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) وسلط عليهم أخس المماليك وأحقر الصعاليك فاذلوا ملوك العباسيين والدول الاسلامية كالمماليك البرية والبحرية وهل ينظر المسلمون اليوم الا انذار العذاب من السماء الذى نص عليه بقوله أن (يبعث عليكم عذابا من فوقكم) وتراه أشد وضوحا وذكر مشروحا في قوله عز وجل (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء

والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء)
وفي قوله (وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم)
أتدري ما ذلك الكسف المركوم والعذاب الموعود ؟ تلك البالونات الهوائية
والاساطين الجوية والمدافع المكسيمية وتلك الآلات الجهنمية تعدها
الآن الامم الغربية فاذا وقعت الواقعة وانشقت المرائر وأمطرت السماء
مطراً من سجين وتنزلت الصواعق على الغافلين فعند ذلك لا ينفع نفسا
أيمانها من المسلمين الا الذين آمنوا ونظروا وعلموا وجاروا الغربيين أولئك هم
الناجون من ذلك العذاب الواقع. ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع على أولئك
المسلمين الذين لا ينظرون ولا يفكرون ولا يعتبرون بالاندلس وهلاكهم
وخراب ديارهم وأهل أمريكا وعذابهم وفنائهم فالى متى أيها الناس أنتم ساهون ؟

أنذركم صيحة فاجئة وحروبا واقعة فاذا جاءت الطامة الكبرى
وشاهدتم سحابا مركوما بالمدافع والجنود وأرسلت الصواعق من البارود
وزمجرت الرعود وأمطرت السماء حجارة وحديدا ودمدما ورصاصا فأول
واقع في العذاب هم الجاهلون ولن ينجو من هولها الا العالمون الذين يصلحون
فى الارض وهم يعقلون واتخذوا لهم حصونا فى الهواء ولن يكون ذلك الا
اذا أتقنت الصناعات وقرئت الرياضات وفهمت الطبيعيات وعلمت النواميس
ودرست السياسات وصرتم أمة كالامم

هذه نصيحة لكم فافقهوها واياكم أن تضيعوها فوالله انى لاعلم ذلك
يقيناً وكاني بالميدان يجرى في السماء كالسحاب والدول تصطدم فى الهواء
أساطيلها وتقتتل على بلاد الاسلام جيوشها والمسلمون ينظرون ولا
يتكلمون الا من يعقلون منهم ويعملون فانظروا لانفسكم قبل أن يأتى ذلك

اليوم المشؤوم لعلكم تتخذون لكم مع القوم سبيلا وأنذرهم يوم تصطف المراكب الهوائية وهي تقترب من السحاب هنالك تنزل الصواعق وتهطل الحجارة وشآبيب شآبيب تدك الصروح وتهشم البيوت وتدهور القصور يوم تمور السماء موراً بالجيوش الحربية يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس فى الشرق والغرب هذا عذاب أليم ربنا اكشف العذاب انا مؤمنون

أيها العزيز : أنذر المسلمين الصيحة العظمى والبطشة الكبرى (أأمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير)

ها هو اقترب زمان الدخان يغشي الناس من فوقهم من تلك الاساطيل الهوائية التى تعدها الدول لمحاربة الأمم الجاهلة (لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون) ولا يعلمون تلك النواميس العجيبة المدهشة

تلك الصواعق تنزلت على الناس لتنتاشهم من مرابض جهلهم الى اعلاء عرش العلم والحكمة

أنذر الله الناس وحذرهم ثم هو يعد لهم الاساطيل الهوائية ترميهم بحجارة من سجيل حتى يكونوا كعصف ماكول (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر)

ولعل فريقا يقولون انما وعدنا هذا يوم القيامة وها نحن الآن فى الدنيا نقول على رسلكم فما من صورة فى الآخرة والقيامة الكبرى الا ولها أخت نظيرتها فى الدنيا

(ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الاخرة أعمى وأضل سبيلا) ولئن سألتهم لم تدهور المسلمون وارتطموا في وهدتهم وزلوا من حالق ليقولن الفقهاء أنهم عاصون مجرمون ليسوا على الصراط السوى . ولئن سألتهم عدوا المعاصى لاجابوك : هى الزنا والخمر والميسر والانصاب والازلام

وكلها رجس من عمل الشيطان والغيبة والنميمة وهلم جرا

يجيبونك بهذا الجواب الابتر الناقص ويذرون الذنوب الكبرى والمعاصي والموبقات العظمى وهي سحائب الجهل المركومة تغشى عقولهم وتحجب نورهم وترسل عليهم غاشية من نار ودخان بجهل تلك التي يسمونها فروض كفايات

العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا

رأوا بعد الشقة وطول السفر ووعورة الطريق ومشقته فأعرضوا عنها وتولوا ولم يذكروا للناس من المعاصي الا أسهلها وهي التروك . من ترك شيئا فقد عاش بغيره وما أسهل ترك الخمر والقمار والاصنام الترك أمر سهل فاعرض عن الشيء يعرض عنك

فاما العلوم فلن تنال الا بمشقة وسهر وتعب أمد العمر فكانت الكلفة فيها أشق والعمل أصعب والفكر فيها أدق والحيلة لجلبها أغمض والقيام عليها أدوم وأعظم لذلك هربوا منها ولم يحوموا حولها وقالوا للناس ما أهلك المسلمين الا تلك المعاصي المعلومة ونسوا حظا مما ذكروا به من فروض الكفايات ولم يذكروهم بنحو قوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض) الاية (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) (كذلك كذب الذين من قبلهم حتي ذاقوا بأسنا) هكذا كان حتى قرعت القارعة وانشقت المرائر وأحيط بنا وأصبحنا مضغة الافواه

أيها العزيز : اليكم أوجه خطابي وأدعوكم للعلم والعمل فقد بزغت شمس الاصلاح وبشرت بوادر الامور بالاقبال فالامال بهذا الجيل معقودة

فابشروا بالنجاح وتذكروا قوله تعالى (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

المقالة الرابعة والخمسون

﴿ البدع والضلالات ﴾

﴿ محادثة مهمة ﴾

« بين أستاذ وابنه الصغير »

سأل الاستاذ ابنه أى بنى لم ارتعت من الحجرة منفردا وهلعت من العزلة وخفت من الظلمة كما خبرت بذلك ؟ أى بنى مم تخاف وماذا تحذر ؟

الغلام — انى انما أفرق من العفاريت وأخاف من الجان وأهلع من ازيائها وأشكالها وصورها المزعجات في ظلمات الليل أولئك يفتكون بالانسان ويقتلون الرجال ويهلكون الاطفال

الاستاذ — أى بنى ماذلك الا خيال من خيال ووهم وضلال. الجن لانراهم ولم يشأ الله أن يسلط علينا جنوداً لاقبل لنا بهم ولم نر وجوههم . الله أكرم أن يظهر للبشر مايحصدهم حصداً بلا رحمة ولا رأفة . ان هى الا أساطير الجاهلين وخرافات العجاز والعاجزين

الغلام — اذن كيف أسمع صوتا يشبه صوتى وأنا صاعد فى درجات المنزل وسلالم الغرفات . أو منحدر فى درجات أسفل الدار

لعمرى لقد سمعت عجبا ناديت أختى فسمعت صوتا كصوتي أليس ذلك فعل الجان ومناداة الشياطين وكلام العفاريت

الاستاذ ـ انما ذلك الصدى

الابن ـ لاأدرى ماالصدى

الاستاذ يابنى ان الانسان وما على الارض جميعا فى بحر لجي من الهواء والجميع فيه غارقون . نحن فى الهواء كالسمك فى ماء البحر منه تنفسنا وبه حياتنا ألست تتنفس قال نعم ؟

الاستاذ ـ هذا النفس جزء من الهواء يدخل فى أجسامنا ومنه يكون الكلام أتعرف تموج الماء ؟

الابن ـ نعم ياوالدى واني لاذكر اذ سافرت الي القرية وأخذت أحرك الماء بيدي وهو يصنع أمواجا متتابعات من .ـلات عرفا تقوى وتضعف على مقدار حركات يدى فى الماء (هنا تذكر الاستاذ ماقاله العلامة الفليسوف ـ بنسر من أن ألاعيب الاطفال وايقادهم النار ونحوها كلها اكتشاف للحقائق ونظر فى الموجودات وتعلم من الطبيعة) وتذكر قوله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها)

قال الاستاذ ـ أى بنى هكذا حركات اللسان وما حوله فى الافواه تحدث أمواجا متتابعات متناسقات مرسلات في الهواء فتصطك بالحيطان وتصطدم بالاركان فى الحجرات وتلاقى أجزاء الغرفات والدهاليز وكل بيت قليل المنافذ فيشبه الصوت الحادث من ذلك التلاقى الصوت الاول وهذا هو المعبر عنه بالصدى

الغلام ـ ياأبت اذن ماالناس لايفتأون يذكرون العفاريت ولا يقولون كما نقول ، ان صبيا من أبناء جيراننا خبرنى أن عفريتين ذوى رأسين طالت أعناقهما واسودت ـ وربما رأخاف منظرهما قد برزا فى المنزل وفعلا

الاعاجيب

الاستاذ ـ هؤلاء يابنى هم الجهلاء الذين لم يثقفهم التعليم ولم تهذبهم التربية أولئك يعيشون جاهلين أذلاء يهلعون من حشرات الارض ويهرعون من خشاشها ويفرون من الفأرة ويولون الادبار من الارانب

وأنا ومثلى نعلمهم حتى يكونوا ذوى عقول لنخرجهم من الظلمات الى النور ونبعثهم من اجداث الجاهلين ونحشرهم فى زمرة العالمين

يابنى انى كنت وأنا طفل أتلقف مثل هذه الضلالات من أفواه الجاهلين وأرويها من أولئك الخاملين الغافلين فما زلت فى غفلة من الساهين وفي جهالة مع اللاهين حتى قرأت فى العلم ان ذلك ضلال فاقلعت عنه ولكن بقيت فى النفس بقية من آثار جهالة الصبي فأخذت أقتلع جذور تلك السيئة من أصولها فانتبذت من أهلى مكانا قصيا وقد أرخى على الليل سدوله وكسانى خلعا من جلابيبه وأحاطني بجيوش من ظلامه حتى دخلت المسجد بجانب القرية وتبوأت مغتسلة ووقفت أسامر الظلام وأساور الاوهام لاعلم نفسى فضيلة الشجاعة وخلق الكمال فبقيت هناك زلفا من الليل ولما أن غربت نجمة المساء كررت راجعا وعدت لمثل هذا الليلة الثانية وهكذا حتى ثبت قلبي على الشجاعة وتمرن على الاقدام وتعلم الجرأة وقويت عزيمتي واقد كان الرجل من أهل قريتنا يجتاز المسجد فيحس بى ويهلع فرقا ويجزع خوفا ويقول ألا ان هذا هو العفريت

هنا لك تبسم الصبي ضاحكا ثم أغرق فيه وقال أهكذا كانوا يظنون قاتل الله الجهالة ؟ كنت أخاف من كل ما أسمع في الظلام كفأرة بيوت الادب أما الآن فلن أخاف أبداً

ثم انتقل الغلام من خيال الى صور حقيقية ألبست ثوب الخيال أو خيال ألبس ثوب الحقيقة واخترع له الوهم ماهجس بباله وذكر معلمه بالمدرسة وقد أنشب به أظفاره فقال قد كنت ومعلمي يوجعني ضربا ويؤلمني بسياط أتمنى أن أقلب الى عصفور لعلي أفلت من بين يديه فأطير وأنجو من العذاب الاليم سمع الاستاذ ذلك فاغتم وعلم ان وحشية التعليم لاتزال ضاربة أطنابها بالبلاد منيخة بكلكلها مميتة للعواطف قاتلة للصبيان وان هنالك علاقة بين الهلع من العفاريت ووهم الخوف من فزع العصى وضرب السياط وان تصور الشاب نفسه أن يكون عصفورا خيال كما تخيل الجان في الاذهان

هنالك انتقل الغلام الى حديث شيوخ الاضرحة لعلاقة المشابهة بين الطرفين فقال ياأبي أرأيت هؤلاء الشيوخ فى برازخهم أوليس الناس يرونهم أنا لاريب عندى فى ذلك فقد روى الناس وأبناء الزقاق أحاديث صحاحا عن شيخ هذا الضريح (العمرى) وقد شاهدوه ونفعهم وأضر أقواما عصوه

الاستاذ — يابنى هؤلاء كانوا قوما مثلنا وامتازوا بالصلاح والعلم وتقوى الله والعبادة ونفع الناس فاحبوهم فلما اختطفتهم المنون وأدخلوا فى قبورهم انقسم الناس فيهم فريقين عالمين وجاهلين فأما العالمون فأخذوا يزورنهم اعتباراً بموتهم وتذكاراً لطريقهم واهتداء بهديهم وسيرا على منوالهم ليكونوا عظماء فى الامة نافعين للناس مثلهم حتى يحبهم الناس ويرجعوا الي ربهم ويفوزوا بلقائه فيدخلهم جنته كما أدخل أولئك الاولياء الصالحين والشيوخ المقبورين الغابرين فى دهر الدهارير

وأما الجاهلون فقد ضلوا السبيل واتخذوا من الموت حياة واشتقوا من القبر طبيبا وتوهموا في الاجداث أملاكا أو أربابا ونادوهم بالغياث فى

الاجداث أولئك هم الجاهلون . يابني انظر بعقلك وتأمل بفكرك اذا كانوا ينفعون أو يضرون

فما بالنا نتعلم وما بال الصبيان يغدون ويروحون الى المدارس وما بال الزارع يزرع والحاصد يحصد أرأيت ان صح ذلك أفلم يمكن الاجدر بالناس أن يصطفوا حول تلك البرازخ خاشعين ويخروا لها جثيا خاضعين ثم يطلبون منها الغوث مخبتين فاذا رأيت هؤلاء فقل لهم سلوا ربكم وافعلوا ماتؤمرون سنة الله في خلقه علم وعمل واعتماد عليه بالقلوب

هنالك تبسم الغلام وقال حقا انه لمن أعجب العجب أن تلج تلك الاضر من رمدت عين أبنتها أو اصيب ابنها بعرج ثم تسأل الشفاء أفلا يسألون الله وهو الذي سخر الطبيب وخلقه لهذه الامراض اه

ياوالدي حقا حقا الكلب يحرس المنازل ويخفر البيوت مادام حيا ينبح فاذا اختطفته المنون وأذيق الحتف فكيف تحرس البيوت عظام نخرات وأوصال ممزقات وجلود مقطعات وأحشاء مفرقات أم كيف يخفر الاحياء الاموات وما يستوى الاحياء ولا الاموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور انتهى

هذا الحديث حقيقي بهذا الترتيب ومعناه ولم يزد عليه الا الصورة اللفظية

المقالة الخامسة والخمسون

الدولة الفاطمية

(واللغات الاجنبية)

منى الشرقيون عموما والمسلمون خصوصاً بما قتل عواطفهم وأمات وجدانهم وأهلك حرثهم وأباد نسلهم . ذلك ان قادتهم طالما غشوا على أبصارهم فهم لا يبصرون طالما أوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة واتخذ شيوخهم الاولون من الباطنية رموزاً ابتدعوها وأشكالا اتبعوها وبدعا استحدثوها فاتبعها المرؤوسون فضربوا على آذانهم فى كهف الجهالة سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون

تلقف الخلافة الاسلامية قوم عن قوم حتى اذا جاء الفاطمية على رأس ثلاثة القرون اتخذوا شعارهم السلطة الروحية وولوا وجوه القوم شطر خلافتهم وكان نداؤهم فى الاذان (حى على خير العمل) ونداؤهم فى السر (لا يعرف العلوم الا امام معصوم احتجب عن الانظار وأدركته البصائر والناس أجمعون دونه جاهلون) أولئك أعدوا أنفسهم سدنة العلوم وخزنة الجنان وباب الرحمات ومناط الاحكام وأرباب الشرائع فلا غرابة اذا سمعنا ما استحدثه الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر من الفتك والقتل والتحريم والتحليل والتضليل والافك على الله والناس حول قصره مستصرخون وبه عائذون وله والهون وعلى رحمته الزهرمية متكاون . قفي على آثارهم

أقوام وضعوا رموزاً وأساطير وقالوا للناس هى أسرار لا يطلع عليها أقوام أمثالكم وأخذوا يستنتجون العلوم من جمل الآيات كقول قائلهم لفظة (رفيع) فى قوله تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش) جمل لفظ رفيع يبلغ ٣٦٠ وهى الدرجات التى تقطعها الشمس فى الفلك أعنى دائرة منطقة فلك البروج وهكذا كل دائرة سماوية وحمل الدرجات على درجات الفلك والله يعلم والعالمون أن معنى ذلك أن الله رفيع القدر سامى المنزلة تقدس عن المادة واتصف بأجمل الصفات وأبهاها وكقول قائلهم ان جمل لفظ (محمد) بجمل الميم المشددة بميمين بحسب التلفظ به يبلغ ١٣٢ وهو عدد حروف الفاتحة اللفظية أى التى يعول فيها على اللفظ دون الخط وأراهم يرجعون جميع العلوم الى الاستنتاج من النقطة تحت الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ولقد رأيت كتابا مع درويش فيه مائة فصل كل فصل مشتمل على خلق من الاخلاق أو فضيلة من الفضائل وضعه واضعه كأنه استنتاج من النقطة تحت الباء فى بسم الله ولا حاجة للاشارة الى أن ذلك شروح في كتب أخرى مفصل فيها أجمل تفصيل معلوم بين أهل العلم

قلت لذلك المقلد المسكين ياهذا ذلك يعلمه المجاورون وأهل العلم وبعض تلاميذ المدارس وليس خاصا بشيوخك الغابرين ولاهو من اسرار الماضين وانما هى علوم عرفها المحصلون فعبس وبسر ثم أدبر وقال هذه أسرار غامضة وانما يعرفها الواحد بعد الواحد

قارن بين هذا وبين تعاليم المصريين القدماء تجدهم حذوا حذوهم الا قليلا والقاعدة العامة (خذ الناس بالقوة وأوهمهم أنهم قاصرون) ولقد سرى ذلك الى ابن سينا فقال فى الاشارات لا يعرف الله الا الواحد بعد الواحد

بل نقلها عنه الغزالى فى الاحياء ولعمرى أن مسئلة الاقطاب والانجاب والاوتاد وقطب الغوث اركان الانديه الفاطمية السرية وجمعيـة أهل الباطن لاتزال تطن في الآذان واصبحت لغزا معمى بين الطبقات الجاهـلة يكررونها ويفهمون فيه ما يوحيه لهم المسيطرون الساحرون بتلك الضلالات والاوهام ماتت العزائم وطمست البصائر وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنـذرهم فهم لا يفهمون ذلك نوع من السحر وضرب من التضليل وباب من التملك والقهر

على أنه لم تسلم منه أمة من الامم المتمـدينة بل ذلك تنويم مغناطيسى للامم كتنويم الافراد ولكن تنويم الامة يحتاج الى عناء وعمل وزمن كثيرة ومكر عظيم ينوم الرجل الرجل والامة الامة

اللغات الاجنبية

وليس تغرير الباطنية وارهاب شيوخهم وغرائبهم وترنماتهم ورموزهم بأقل اضلالا وادهاشا مما تضعـه الامم الفاتحـة من العقبات للامم المقهورة بهم . يقولون أيهـا الناس لاتقرأوا العلوم الا بلغتنا لا يلقنونهم الا قليلا من العلم مع حفظ قاموس لغتهم ثم يقولون ليس لهذه العلوم فى دياركم مقام وليس لهـا الا أقطاب الوجود وخزنة الاسرار وحملة العرش أولئك هم ساداتكم خلقهم الله لذلك بفطرهم خلقوا للقيادة وخلقتم للعبادة خلقوا للعلم وخلقتم للجهل خلقوا للعز وخلقتم للذل هم السادة ولهم السعادة فهم الملوك عليكم وأنتم العبيد الى القيامة فاذا اختلط المحكومون المقهورون بسواهم وعرف غش الفاتحين ومكر المسيطرين ثم قالوا لسادتهم أفيضوا علينا من ماء العلم أو مما رزقكم الله من الصناعات أو خلونا وشأننا نختر لنا طريقا فى بحر الحياة اللجي" ناداهم أولئك

السادات أن الله حرم العلوم والصناعات على الضالين لاسيما الشرقيين ثم اذا لم ينجع القول رفعوا سيوفهم على رؤوسهم وقالوا بعزة جبروت فرعون انا لنحن الغالبون

يذكر القاهرون المقهورين بتاريخ أسلافهم وابطالهم وشعرائهم وشعرهم وتاريخ لغتهم ووقائعهم وجمال بلادهم وفضل قومهم عجبا عجبا ياقوم ان الحياة ضلال فى ضلال وفى ظنى ان رجال أغلب الامم جهال

ماللناس لايفقهون ماللقوم لايعقلون أف. للأغنياء أف للفقراء أف للكتاب أنى يؤفكون

ياقوم انى لكم نذير مبين سيعذب الاغنياء على شحهم على بناء الكليات يعذبون مرتين مرة فى الدنيا بالعذاب والخزى فى الحياة وموت أسمائهم من التاريخ ومرة في الآخرة فتكوى بأموالهم جباههم وجنوبهم وظهورهم ويقال لهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون. تكوى ضمائرهم بألم الاحزان في دار البرزخ يعضون أيديهم حسرة وندامة يعذبون بنار تطلع على أفئدتهم به يخزون فى الحياة الدنيا وفي الآخرة سيعذب الاغنياء بالاموال والاغنياء بالعلوم والشعراء اذا بخلوا بما عندهم كل امرىء بما كسب رهين كل منكم ياقوم مسؤل على مقدار مامنحه الله من المال والحكمة. أنذركم صاعقة أهل أمريكا الاصليين صاعقة الامم البائدة أزف الوقت فاستمعوا: لئن اتسم بالشح الاغنياء وكتم العلم العلماء وما نظم الشعراء فبشرهم بعذاب أليم

التلميذ ابن الاستاذ فان هو لم يعرف بمد اسلافه وتاريخ رجاله وعظمة ملوكه وأداب قومه فمن أين يتخذ له قوما أويبنى له مجدا

هذه نصيحتي لكم ياقوم وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون

المقالة السادسة والخمسون

هـذا كتاب من المؤلف الى صـديق له من الانكليز باللغـة الانجليزية ثم نقله الى العربية وقد رأينا من المفيد نشره لانتفاع الناطقـين بالضاد من حكمه الباهرة قال·

« صديقى الفاضل

انه القى الى منك كتاب كريم فشكرت لك لما بذلت من العناية فى تحبتى وما أبديت من الحكمة فى تحريره وودت لو يتاح لى سـعة الوقت وقرور العين فاشرح ماأجمل صديقى من الحكمة وما أبدع من المعانى اذ قال (المرء يسعى فى الحياة ويجد فى طلاب العلم لسد عوزه وتحصيل قوته وجلب لباسـه حتى اذا ماوفي أربه وأشبع بطنه وكسى جلده أخذ يستهيم بالعـلوم لذاتها ويخطبها للذاتها ويدلمها الناس على حبها فتراه بالشعر هائما وبالموسيقى مغرما وبالفنون الجميلة ولعا وكلما أوغل في طـلابها زاد في حبها ومنهم من قرأها ليتعرف بها الهه لاهواه وكلما ازداد علما ازداد من ربه قربا حتى يصير من المصطفين الاخيار)

هذا مافهمتـه من فحوى خطابك ومضمون مقالك واني لموضح ماأدمجتموه بعض الايضاح مع تبيان واستحسان نمط مغاير بعض المغايرة فاقول

الانسان والعلم

عجبا للانسان وأطواره وغرائب أحواله يستلذ الاعاجيب ويفرح بالصور والتماثيل حتى أن الفتاة فى قرى الفلاحين لتصور التماثيل من طين وتتخذها سلوة اللاعبين وقوة المرتاضين

ولئن سألت العامة ماالسبب فى أنكم بهذه الألاعيب مولعون ليقولن (هذا مافطر عليه الانسان) ولكنك ان سألت أكابر الحكماء ومديرى المدارس والمدرسين لشرحوا لك السبب . ذلك ان صور المخلوقات وتماثيل الموجودات وهيا كل الحيوان وأشكال النباتات دروس التلاميذ . هنا يعرف الانسان الحكمة فى ولع الناشئين بالصور والتماثيل

وربما ترى طفلا يلعب الكرة وهو بها جذل فاذا دخل الدرس آنس كرة صورت العالم كله فما كان لعب الصبي أضحى علما فى الشباب وعقلا فى الكبر وربما ترى ابن المكارى (الحمار) يجرى وهو يجر وراءه حبلا قد شد فيه حلقة تجرى كانها عجلة وهو بها فرح حتى اذا كبر كانت العجلة المفروح بها عربة يعيش منها فتبارك ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى

وهنا مثل آخر . ذلك ان عامة الناس والصبيان يعجبون من جذب الكهرمان للتبن والمغناطيس للحديد ويضحكون لتلك الألاعيب ويتخذونها هزواً ولعباً يضحكون منها وهم ساهون ولئن سألتهم عن السبب لقالوا هذا ماوجدنا عليه نوع الانسان ولكن الروح الانسانية العامة فى هذا النوع المبدعة من الحكمة الالهية هى التى أوحى اليها هذا السر ففرح به عموم الصبيان وعامة الجاهلين واختص بسرائر الوحي أكابر العلماء والمصطفين من الحكماء فكان الوحي الفطرى الالهي اليهم ان امزجوا المغناطيس بالكهرباء ودعوهما يتمددان

فى الاسلاك تستعينوا بهما على الكلام فى آلة التلفون ولئن نطقت هذه الآلة لقالت (أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) فتعجب معى ياأخى من هذا الانسان العجيب أمره البعيد غوره . تسابقت لذاته العقلية وشهواته الجسمية فهو أبداً مابين ملك وبهيم ونعيم وجحيم وحياة الملائكة والشياطين والملوك والحدادين وان الانسان ليحار أيهما عليه أغلب ؟ حرمت الديانات السماويه تتبع خطوات الشيطان بتعاطى الشهوات وأباحت اللذات العقلية بل جعلتها أهم السعادات الخ ما قالوا ولكن أصبحت بعض أممها خاضعين أمام عبيد الشهوات الجسمية من الامم القاهرة بالاسلحة النارية وأباحت المدنية الحاضرة اللذائذ الجسمية ولم يفرق كثير من الناس فيها بين الانسانية والحيوانية فها نحن نرى أكثرهن ترفا وفسوقا أقربهن فناء وأسرعهن انتقاصا كمثل بعض دول أوروبا الذين تناقص نسلهم وبعض البوذيين اذ تناهى الاولون فى شهوات الاجسام وأفرط الآخرون في سعادات الارواح فأخذ يسرع فى الفناء الاولون واستعدلان يداس بالاقدام الآخرون وهذا من التناهى فى الافراط فى الشهوات الجسمية والروحية وهى ماوضعها الله فى نفوس الناس الا لتشوقهم الى الحكمة والفضيلة والدأب في طلاب الحكمة بالعقل فلا آخر لشوق الانسان للعلوم كما لا آخر لها

والجاهل من يظن نفسه أعلم العالمين يحدد الطفل الارض بآفاقها المنظورة والرجل الكبير يعتقد أن الدنيا أوسع دائرة وأرحب فضاء من الارض هكذا ترى الجاهل يحدد العالم بأوهامه ويتخذ من معلوماته لها حدوداً وأكابر الحكماء لايجدون فى نفوسهم لها حدا ويعترفون بالتقصير فيما حصلوا ويعتقدون أن ماتركوه اكثر مما أخذوه

ان فيما نشاهـد من المحسوسات لعبرة للمعقولات . نرى السائحين يرسمون فى سيرهم سبلا في الجبال والاودية ويخترقون الآفاق تسهيلا لمن بعدهم وان لم يفقهوه وتمهيدا للجيل المقبل وأن كانوا لا يشعرون كما كان الآباء لنا يمهدون أفلا يجد الذين أوتوا نصيباً من العلم ليمهدوا السبل لابناء الجيل المقبل كما كان الاولون لنا يفعلون

لعمرى للعلماء أجـدر بالعمل وأحرى بالمنهج الأقوم والسبيل الابلج والعلماء فريقان فريق بالعـلم يرتزقون وآخرون به ولعون وله والهون وبه جذلون . ولعمرك ان الاولين لا يورثون وانمـا المورث هم الآخرون وهم الرائعون للأمم المجددون لمجدها السابقون لخيرها . فويل لامة قل نصيبها منهم والويل ثم الويل لامة عدمتهم

يمثل الشيخ الغزالى وابن سينا فى الامة العربية واسحق نيوتن وسبنسر فى الامة الانكليزية سادت الامتان ولم يعلمهما الا الفرقدان

المقالة السابعة والخمسون

﴿ الحقائق في الحدائق ﴾

﴿ العالم كتاب لا يقرأه الا المستبصرون ﴾

« صديقى الفاضل

لمـا ان فرغت من رسالتى السالفة انتبذت مكانا قصيا خارج المنازل لاريح النفس من عنائها ولأزور صـديقا حميما فقصدته فألفيته في حديقته فجلسنا بين أشجار خضرات وغصون نضرات وأوراق وارفات والنثـر

ظليل والنسيم عليل وقد حلا السمر وطاب الخبر وترى ثمر البرتقال يبدو
بين الغصون فى اشراق بهيج ثم رأيت جلال الافق مدى البصر يمتد الى
مشارق الارض ومغاربها وشمالها وجنوبها . عجبا أنا أرى نصف الكرة
الارضية أرى نصف المعمورة لقد نسيت ان ما أراه من الافق يحدد الكرة
بقسمين متساويين تقريباً ماأوسع الافق وما أضيق العين ان تراه فكأنى
أراه ولا أراه كم من حقل مخبوء في طى كتابه وكم من قرية وبلدة وأمة وقارة
ونهر وواد وبحر ملح أجاج وسهل وجبل كل هذا مندمج فيما يحيط به
بصرى الآن . ما أضعف بصر الانسان وما أكثر الحكم المودعة فى عجائب
الدنيا ومن ذا الذى يقدر أن يصوغها فى قالب التعبير ومن ذا الذى يحصرها
فى سطور التحرير بينما أنا هائم فى هذه الاعاجيب مغرم بهذا الافق الرهيب
اذا صديق صاحب الحديقة يقول لقد رأيت عجباً في حديقتنا رأيت حشرة
ابى دقيق ذات ألوان بيض وحمر وصفر مختلف ألوانها مشاكلة لما تعيش
أبنه من الازهار وما يقيهامن الانوار . لاحظت ذلك فى أماكن فيها فكان
الزهر الابيض يسكنه البيض والاحمر الحمر فتبارك الله أحسن الخالقين

فقلت مهما بحث الانسان ودقق فلن يصل له من العلم الا قليل ولم
يتجاوز ولن يتجاوز فى الاجابة على مثل هذا الا بالاجوبة الغائية المسماة
بالبراهين الأنية أى التى يقال فيها لان كأن أن يقال هكذا خلقت حشرة
أبى دقيق مشاكلة لما حولها لتنجو من كيد عدو يفاجئها فتختبىء في أزهارها
فلا يمسها المغيرات عليها بسوء ولو اختلفت الالوان لكانت مع الهالكين
كما يرى فى الآساد المشاكلات لجبالها والنمور المشابهات لغاباتها وطيور
صيد السمك الخضر لمشاكلة زرقة أمواج البحر لئلا يهرب منها السمك المطلوب

صيده . بمثل هـذا يجيب الانسان المحصور علمه فى دائرة ضيقة من المعرفة كم حيوان فى هذا الشأن رقيق الجثة صغير الخلقة لاتراه عيوننا لدقته وعجز أبصارنا عن رؤيته ولئن رأيناه لاعجزنا وصفه فلم تفقه ظاهر خلقته فضلا عن باطن حكمته فما أضعف الانسان . لننظر في الافق كم حوى فى دائرته من مخلوقات لاتراها وما نراه فلن نصل منه الا لما ظهر من صورته فالمعرفة اجمالية

ولئن ألف العلماء ووصف الشعراء مظاهر الكون فلعمرك ماوصلوا فى وصف دقائقه وتبيان حكمه الى غاية أكثر مماوصل البصر وهو يشاهد هذا الافق وهو ماعرف الا النزر اليسير فما يراه العلماء ببصائرهم نسبته الى ماهو غائب عنها كنسبة مااختفى عن الابصار فى دائرة هـذا القضاء لما استوضح عند البصر ووضح للنظر

أيها الانسان انظر وتفكر وتأمل أنظـر واكتب واياك أن تكتب أو تتكلم بلا نظر وفكر

الله عز وجل خلق الانسان وصوره وجمله وفضله على الحيوان واصطفاه ليكلمه . من الانسان حتى يكلم الله . من الانسان وهو من الطبيعة خلق والله مقدس عنها . كيف يتكلم الاجل العالي مكانه البعيد مناله مع الضعيف السحيق دارة . كلم الله الانسان فالانبياء بالوحى والالهام والحكماء ورجال الامم والمجددين لمجدها بهـذه المخلوقات الطبيعية الله كلمنا بها رتب العناصر كالحروف الابجدية وربما جاوزت السبعين فهي اكثر اللغات حروفا ثم جمعها كما نجمع نحن الحروف في هواء الفم وركب منها الاشجار والاثمار والازهار كما نركب نحن الكلمات ولعمرى لن يعقل هـذه الكلمات الا

العلماء ولن يفقهها الا الحكماء ثم نظرتها أبصارنا فانتزعت صورها واحتوت ظلالها . الحدقة كالخزانة المظلمة ترسم صور الاشياء على شبكتيها ترسمها بغير زجاج موضوع ولا ذالك السائل الفضي الذى يظهر الصورة العين ترسم الصورة رسما حقيقيا تبقى فيها ثم تبقى ثابتة ثباتا فى الخيال أدوم من ثبات الصور فى أوراقها تتذكرها بعد حين بل عند الموت تخزن الصور فى الخيال ثم يجعلها العقل أفكارا وآراء وحكما وعلوما ويحولها اللسان كلمات فالقلم الى حروف وسطور

أيها الانسان هذا كتابك المقروء المكتوب بيديك منسوخ عن أصله ممسوخ أربع مرات فما هو الا ظل نور انعكس أربع مرات في العين وفى العقل وفي اللسان وفى الكتاب

ولعمرك ماقرأ قارىء فى كتاب الا غيضا من فيض مظاهر الصنع الموجودة وأعلام الحكم المنشورة فى صفحات الوجود لن تبلغ فى نسبتها الى الحقائق المنظورة مقدار نسبة صورة الشمس المنظورة في الماء الى قرصها فى السماء . من لم ينظر لها فى هذه الحكم المودعة فهم الصم البكم الذين لا يعقلون

أما الناظرون فيها فأولئك هم الحكماء والعلماء انما يخشى الله من عباده العلماء وهم لعمرك السابقون السابقون بالخيرات لامهم الرافعون لها المجددون لمجدها

وما فرغت من قولى حتي احتجبت الغزالة بالحجاب وتوارت وغادرت السحاب وقد أقبلت جيوش الظلام ولبست السماء حلة زرقاء صافية الاديم مرصعة بجواهر الدرارى مطرزة بالسحاب موشاة بالشفق ذهبية الطراز تشوق الناظر وتبهر العاقل .فنظر صاحبي نظرة في النجوم فقال أليس لك

ان تنظر النجوم والسحاب وما فيهن من عجب عجاب . ان فكراً فيها يعلو بالمرء من دركات الجاهلين الي درجات الحكماء العالمين .فقلت بل الى أفق الملائكة فى جوار العالم الاعلى هؤلاء الناظرون أجل العالمين

كان الليل والنهار فصلان تمثلهما الشمس فاذا أشرقت القت على السماء ستراً يحجب مايكنه من الصور الحسان والجمال وترفع عن الارض ستارها الحالك فتتجلى مناظرها زينة للناظرين حتي اذا غربت أبدت المستور وأغطشت (أى أخفت) المنشور فترفع ستر السماء فيبدو جمالها وينجلى سناؤها وتلق على الارض ستارها فيتجنى بهاؤها ويحتجب رواؤها ونحن فى موقفنا نشاهد أجمل الفصلين منظراً وأحبهما مخبراً فاذا سحاب تبدى جمل منظره الادهم وكأنه الجبل فى هيشة وهيبة يتخلله أودية زرقاء نباتها النجوم الزاهرات لاالنجوم المخضرات (أى النبات اذ هو يسمى بالنجم أى ماعدا الشجر) وما أجمل الوجل يتجلى فى هيبة ووقار وفؤاده بالانوار جذل وقلبه بالعلم فرح كما يتجلى هذا المنظر البهج أيها الانسان اني لك ناصح أمين

اقرأ كتاباً حروفه كبيرة لاصغيرة وكلماته مخضرة لامسودة فيها العلوم الواسعة لافضلاتها وشلها اقرأها بعينك وعقلك لابلسانك عن الكتاب المفتوح عن كتابك الذى خطه اليراع اه

المقالة الثامنة والخمسون

﴿ أنشودة وطنية ﴾

يأيها المصرى قم ... وخذ الحذار ولا تنم
انا سنقرئك الحكم ... انا نريد بيانا

قوموا الى رفع العلم ... وخذوا بقوة القلم
ولكم رجوت لكم وكم ... ان تلحقوا اليابانا

فابكوا على مجد سلف ... واستنهضوا همم الخلف
واسترجعوا ذاك الشرف ... لاتصبحوا عبدانا

لاتتركوا علما ولا ... فنا يقوم به الملا
الا عرفتم مجملا ... ومفصلا تبيانا

كن عسكريا باسلا ... أو هندسيا عاقلا
أو كن طبيبا فاضلا ... لتقوم الابدانا

من لم يذق طعم العلوم ... فهو الذى يلقى الهموم
والمال ليس له يدوم ... دوما يرى الحرمانا

من لم يذق طعم الادب ... فهو الذى يلقى النصب
والمال ليس له نسب ... فافهم به الاوطانا

فابنوا المدارس فى القرى　　والجامعات كما يرى
فى كمبردج ولندرا　　فزمانه قد آنا

يامصر ياأم القرى　　سيبين مجدك للورى
ويلوح سعدك مسفراً　　بشبابنا مزدانا

قد كنت سيدة الامم　　ودليلنا هذا الهرم
فيك المصانع والحكم　　عظمت بعزك شانا

مامصرنا والقاهرة　　الا كمركز دائره
وهما الرياض الزاهرة　　ماأجمل البستانا

كم فى البرابي استتر　　من كنز علم ماظهر
والاجنبي به افتخر　　بالعلم عن علمانا

آباؤنا غر كرام　　أسلافنا أعلى الانام
عار علينا أن ننام　　ويرى الشجاع جبانا

انا لنا أصل الشرف　　لم لا نكون كمن سلف
فاجهر بقولك لاتخف　　كى ترفعوا البنيانا

انا بنو العرب الاول　　كانوا الملوك ذوى الدول
ملكوا الجزيرة والجبل　　واستعبدوا الاسبانا

ملكوا الهنود بلا خطر وعلوا على جبل القمر
منه الى أرض التتر والروم تحت حمانا

قولوا لمن لم يعرفوا مقدارنا أو ينصفوا
من ذا أعز وأشرف حتى يقال علانا

كنا الجهابذة الكبار كم قائد سلك القفار
وبجيشنا قطع البحار وطغى على أعدانا

منا الرشيد الاروع والراشدون الاربع
والحميرى وتبع والشم من غسانا

أسفي عليهم حسرة فابكوا ممالك حرة
ومحافلا وأسرة والبيض والتيجانا

انا ملكنا المشرقين انا ملكنا المغربين
ولقد قرأنا الحكمتين العلم والايمانا

ياقوم ماهذا الكسل والله انى فى خجل
ان قلتموا كيف العمل قلت اتبعوا حكمانا

مالى أراكم نمتمو والصين قام وأنتم
فى غفلة لم تعلموا ماأيقظ الجبشانا

نشر النجاشي نشرة — واليك منها صورة
لتعش بلادي حرة — وتعم العـــرفانا

~~~~~~~~

ان شئتموا فضلا على — أهـل البسيطة أولا
فتأدبوا بين المـلا — كي تصبحوا اخوانا

~~~~~~~

فالوالدين أطعهما — وبكل مالك علهما
وببذل روحك صنهما — وارفق وقل احسانا

~~~~~~

وكذا القريب اذا أسا — أحسن اليه وقل عسى
فمساه ينتزع الاسى — والغـــل والاضغانا

قال الفلاسفة الكبار — الخمر عار أي عار
لاتقربوا كأس العقار — كم أهلكت شبانا

~~~~~~

قال الفلاسـفة الاول — الخمر صاعقـة الدول
تسطو فتخترم الاجل — وتدمر العـــمرانا

~~~~~~

ان الخمور بأرضنا — جلبت لنقرض نسلنا
جلبت لتخرب دارنا — وتدمـــر اليونانا

لاتضحكن بـلا سبب — الوقت قيمته ذهب
فاصرفه في أمر وجب — كي لاترى ندمانا
~~~~~~

من كان يأخـذ رشوة　　من أهل قطرك خفية
فاذقه ذما جهرة　　هـذا الذى قد خانا

واذا رضيتم بالرشا　　وسكتم حتى فشا
أنذرتكم مالا أشا　　ء وذقتم الاشجانا

لاتقربوا الاثاما　　لاتظلموا الايتاما
مثل النبي دواما　　لتسابقوا البلدانا

واذا غدوت مهندسا　　لاتظلمن الانفسا
ياويحه قلبا قسا　　واستوجب الخسرانا

ياقوم ان لم تعدلوا　　بالقرب يوما تبتلوا
ويقول قوم عجلوا　　واستبدوا عدنانا

ان كنت ياهذا ظلوم　　فقيامة المصرى تقوم
ويقال فى نادى العموم　　أعطوهم الحرمانا

فنبيكم قال ارحموا　　هذى الخليقة ترحموا
اياكم ان تظلموا　　أو تغضبوا الرحمانا

أقنت لربك طائعا　　أعبد الملك خاشعاً
اطعم فقيراً جائعاً　　فنبيك الرضوانا

المقالة التاسعة والخمسون

﴿ الدرس الافتتاحى ﴾

﴿ لتفسير القرآن الشريف ﴾

الذى القاه حضرة المؤلف على طائفة من متخرجى المدارس العليا ليلة الاثنين أول يونيه سنة ١٩٠٨

ان حال الامة اليوم داع للتفكير في أمرها والتذكير لنشئها ـ ومن يقرأ اليوم كتابها ويقلب صفحاتها ويتصفح وجوهها ويخالط طبقاتها يجدهم أخذوا يصبون لاعلاء شأنها ورفعة مجدها ولكن حركة النهوض الاختيارية لاتزال فى ابتداء نشأتها تمد يدها للمعونة وتسأل ذوى الرأى قدمهم وأولى الالباب حكمتهم .الامة هيكل كبير وجسم عظيم تكون من أعضاء وعظام ولحم وشحم وعروق وأوتار وأعصاب ومفاصل وبالجملة كل ما من شأنه تكوين جسم مفرد غير ان فرق ما بين الجسمين ان عناصر جسم الامة أفرادها المختلفون وعناصر جسم الفرد شرحه المشرحون ويعرفه الاطباء الطاسيون ـ عناصر الامم عقلاء وعناصر الاجسام خوال من الادراكات لجسم الامة غذاء ودواء كجسم الانسان غذاؤها العلوم التى بها حياتها كالحكمة النظريه من الطبيعيات والرياضيات والامور العامة من النظر فى أحوال الامم والتعرف لآثارها . ودواؤها تهذيب النفوس وتمحيصها من الرذائل وتهذيب الاخلاق وتخليصها من كل خلق يدعو للباطل . واجتناب باطلها واتباع حقها والاخذ بيدها كى لاتلقى فى التهلكة وابعادها من الغرق في ظلمات الجهل والاثم وحمايتها ان ترعى في مراتع الهلكة أو تستمرئ مرابع

الاثام ثم حياطة تلك الاخلاق بالقانون كى لايتعدى الآثمون الظالمون على غيرهم فيكون الهرج والمرج

نتج ماذكرنا ان الامم تعيش وتحيي بما به يتغذى هيكلها العظيم المهول من العلوم الطبيعيات والرياضيات والصناعيات وغيرها فاذا لم تستطع عقاقير الاخلاق شفاءها وعجز الاطباء الحكماء عن علاج ماانحرف من نفوس جامحة وشهوة طامحة ولم يبق في قدرة سائس النفوس ترويضها فالقانون من ورائها والقضاة أسوارها قوامون على نظامها حافظون لكيانها

اذا تقرر هـذا فلننظر فى حالها اليوم ولنقرر مافهمناه فى صورتها المنعكسة فى مرآة أعمالها وصقيل أقوالها فنقول نظرة واحـدة للحركة الفكريه تكفى للحكم بأن اتجاه الاصلاح اليوم للقضاء والقانون ونرى أكثر من يشار اليهـم بالبنان القائدين للرأى العام هم القائمون بالشرائع والقضاء والحكومة والامة فى هـذا العمل مشـتركون فممت الحركة الفكرية لترقيـة القضاء الشرعي والاهلى وسارت الامة أجمعها فى هـذا النهج تطلب تمهيد السبيل للاصلاح القضائي العام فليبارك الله فيها ولنطلب المزيد والتوفيق

فاما العلوم التى بها حياة الامة والاخلاق فالعنايه بها ضعيفة ولن يقرأها الطالبون الا ليجوزوا الامتحان ثم ان من الاطباء وعلماء الرياضة من شاقهم جمال العلوم وبهرهم حسن وجوهها فعشقوها غراما بها وطلباً للمزيد ولكنهم قليل وكثير من أولئك العاشقين النابغين لم تعرف الامة مكانهم فهم فى زاوية الهجران هاجعون

حرام على أمة تسنم ذرى المجـد الا اذا شغف أبناؤها بالعلوم لذاتها

وخالط أفئدتهم بشاشة جمال المعارف وعشقوا الفضائل ـ القوانين الشرعية والاهلية وضعت كانها كى النار اذا يئس الاطباء من غناء العلاج ـ حياة الامم بعلومها وصناعاتها ودواؤها أخلاقها وقانونها كآخر مايلجأ له الاطباء من العلاج

ولو ان الامم حسنت أخلاقها واتسمت بالفضائل وابتعدت عن الرذائل لكان في نفوسها مايضمن سلامتها ويلم شعثها ـ البراعة فى القانون لاتدل على رقى الامة ان هو الا برهان على حفظ الموجود طيبا أو خبيثا حسنا أو قبيحا

العلوم الكونية مما نشاهده فى الكائنات وما ذرا الله فى الارض والسموات أفضل العلوم وأجلها وأهمها ويليها علوم الاخلاق والقانون من ورائها محيط

حق علينا اليوم أن نوقظ ما كمن من الفطر السليمة ونحرك ما سكن من العقول الخامدة ونستثير العزمات ونرهف نصال الذكاء ونبذر ما اختزنته الآباء في مخازن دور الكتب فى هذه الارض الطيبة حتى نبتت نباتا حسنا ورياضا ناضرة مزدهرة

الامة القاصر تعليمها على القانون فقيره ضائعة. الغذاء أفضل من الدواء

ان نظرة واحدة في فاتحة الكتاب الكريم التى يتلوها المسلمون فى صلواتهم ويقرأونها فى معاهدهم ويكررونها فى دعواتهم ويناجون بها ربهم في خلواتهم توضح لنا هذه المحجة وترينا أية هذه الحجة

علماؤنا في القرون الاولى قالوا ان الفاتحة تشير الى ستة علوم . علوم الطبيعيات والرياضيات . علوم العبادات . علوم الاخلاق . تاريخ الامم

الفاضلة . تاريخ الامم الجاهلة والمغضوب عليها . معرفة أحوال القيامة وما للانسان بعد الموت وبيانه ان الناس الى الله مسافرون ولا مناص لهم من معرفة المقصود وهو الله عزوجل وسير من أنعم عليهم وقصص من غضب عليهم وأحوال الموقف امامه ولابد من طريق وزاد ومعرفة الله انما تكون لافعاله وآثاره وهي علوم الطبيعيات والرياضيات كالطبيعة والكيميا والتاريخ الطبيعي والهندسة والجبر والفلك وما يلي ذلك من الآلات والصناعات فالتفكر فيها للايمان والعمل بها لحياتنا وبقائنا يشير لهذا كله الحمد لله رب العالمين أي الذى ربى العالمين جمع عالم وهو كل ماذراه الله فى العالم العلوى والسفلى من عناصر ومعدن ونبات وحيوان وانسان وجو وسحاب ونجم وقمر وشمس وروح ونفس . ويشير لنوعى التاريخ . أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وأحوال الموقف قوله مالك يوم الدين أى الجزاء وللطريق وهو علم الاخلاق اهدنا الصراط المستقيم وللزاد اياك نعبد وقد قرر العلماء ان أهم العلوم المذكورة في الفاتحة العلوم الدالة على أفعال الله تعالى وهي الطبيعيات رغماً عما عليه المسلمون اليوم اذ عكسوا القضية وعصوا علماءهم وربهم وناموا ستة قرون في كهف الجهالة وتحسبهم ايقاظا وهم رقود يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال فى شمال الارض وجنوبها وشرقها وغربها

ياقوم هذا كلام علمائكم من القرون الاولى الذين تظنون بهم الظنون وتسمونهم بالجمود قرروا ان الطبيعيات أهم علومهم وكفر بهم العامة وعاندهم الجهلة فوضعوا رموزهم فى صحفهم وودعوا العالم وانصرفوا الى ربهم فرضى الله عنهم ورضوا عنه . ياقوم انا سنستخرج مادفنوه فى كتبهم ونوضح ماأجملوه ونبين ماقرروه

قام فيهم أمامان حكيمان من نحو ٧ قرون فقرروا ماقلنا اليوم وأوضحاه فاتهمهم المسلمون بالكفر والزندقة فلما ماتا ترحموا عليهما وعدوهما حجتى الاسلام ولكنهم عصوا أمرهما وبقى الناس فى ظلمات الجهالة تكتنفهم قطع من ليلهم المظلم

نريد ياقوم ان ننشر للناس ما كتمه الخاصة فى القرون الاولى فى قلوبهم

ياقوم أن الحاجة ماسة والامة لاتزال فى صباها كان قدماؤكم يقولون ان المعاملات الفقهية من بيوع وهبات وغيرها وعلم التوحيد ماجعلا الا لحراسة الامم فى سيرها نحو سعادتها

تسير قافلة الحج ومعها زادها ممهدة سبلها تؤم مقصدها يكلؤها حراسها ولعمرك ماعلوم المعاملة الشرعية والقوانين الوضعية والتوحيد الاحراس على الامم في سيرها لسعادتها لئلا يتعدى امرؤ على أمرى وهم سائرون فى سفرهم فينتهب زاده المعد لسفره الضرورى لحياته أو يزلزل عليه عقيدته الراسخة في قلبه الناظمة لعقد جمعهم اللامة لشعثهم الملائمة لما بين طباعهم

فاهم العلوم عندهم الطبيعيات والرياضيات والفلكيات فالعبادات فالاخلاق فالتاريخ غلب العامة العلماء قديما على أمرهم واجتزؤا بالقشور ونبذوا اللباب فماذا صنع حكماؤهم اختزنوا بذورهم في أدمغة لاتصلح المزرع حتى تستقل بها الرياح فتحملها الى أرض صالحة طيبة فتنبت نباتا حسنا فان البلد الطيب يخرج نباته سهلا والذى خبث لايخرج الا نكدا . فما الذى صنعوا ؟

لقنوا تلاميذهم أيات علم الطبيعيات والفلك وعجائب الحكمة وماذارأ الله فى السموات والارض ليقرؤها عقب الصلوات وأوصوهم تكرارها

نحوان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها الخ مما سنوضحه بعد كررها القوم عقب صلواتهم وهم غافلون عما يشير اليه وعما كان الآمرون بها يرون ولم يعلموا . انهم يكررون بالسنتهم مادرسته أوروبا بالانهم واكتشفوا غوامضه بعقولهم . بذر قدماؤكم هذه البذور فى أرض غير صالحة وماتوا ولكن أثمرت فى بلاد بعيدة ياقوم أنذركم صاعقة العذاب الهون اذا لم تتلافوا أمركم بأيديكم أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أنذركم ماأنذرت به أهل أمريكا الاولين والاندلس

اني سأجمع الايات المشوقة للعلوم الطبيعية وأشرحها بالحكمة والعلم حتى تكون شائقا معشقا للنشأ فيدرسوا العلوم لجمالها ويقرؤها للذاتها ثم تجمع آيات الاخلاق حتى تكرر على الاسماع وتحلو فى الاذواق ونشرحها التربي فى الامة ملكة عشق العلوم والفضائل .

ياقوم اننا نريد ان تكون المناظر البهجة والرياض الفناء واجواز الفلوات والحدائق الجميلات وبساتين الحيوانات داعية لجولان الافكار ومناجاة الارواح لامسارح الصبا ومرتع الشهوات غفل الناس وحق لهم ان يغفلوا . من ذا الذى أيقظهم :!

سائق القطار فى سكة الحديد يدعو الناس وينبههم بصفير بخارة ويعرض الصناع مصنوعاتهم وترى السيماوى يدعو الناس بناقوره أو يزمر لهم بمزماره فيهرعون اليه فيبهرهم بخفة يده وعجائب أعماله

ومن يريد ان يصيبه الانتخاب فى البلاد الاوروبية أبان للناس قدرته فعرفوه

فلكل عمل داع يسوق الناس اليه وماء للعلوم ولا للاخلاق اليوم من داع في هذه الامة الاسيفة وأجل ماندعو به اليوم آيات العلوم وآيات الاخلاق وهى تبلغ نحو ١٦٠٠ أية فلنبدأ بها فى تفسيرنا ولنحلها بالحكمة والعلم والبراهين العقلية حتى ندعو المؤمن بها الى اليقين ولا ينبو عنها من لا يؤمن بها لحكمتها العقلية ـ انا لا ندع فى تفسيرنا حكمة الا وعيناها ودعونا اليها ولنشرح فيه العلوم والاخلاق وعلم الاجتماع ونظام الامم وعجائب الخلقة وبدائع الحكمة حتي نشوق النشء الحديث للعلوم والمعارف ولن يهدأ بالنا أو يسكن روعنا أو يقف قلمنا حتى نرى عشق العلوم حل من القلوب محل اللهو والصبا ونرى الفضيلة نمت أشجارها وأزهرت غصونها وأثمرت عسى ان يخرج جيل يهيم بالعلوم لذاتها ويحابره هذا الميل أفئدة الناشئين لتكراره على اسماعهم وتعويدهم النظر من مبدأ حياتهم فلا يدعون شجرا ولا حجرا الا نظروا فيه وعملوا كما أشار عليه الصلاة والسلام فقال واذكر الله عند كل حجر وشجر عسى ان نجد نشأ يقلع عن الكذب وشهادة الزور لما يسمع منه تكرار قوله تعالى. (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) ويزول الاعتقاد الراسخ في الافئدة اليوم ان الشهادات تبع المصالح والعصبيات والجماعات مما يدعو لضياع الامة وذهاب شوكتها بين الامم ـ ولعلنا نجد من يفهمون حقوق الوالدين والاقربين واليتامى والمساكين اذا تلو قوله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين)

ولعلنا نجد من يفهمون نظام الامم وحياتها وأنها كالجسم وكل فرد كأنه عضو يعمل للجميع ويبدى لهم رأيه اذا سمعوا قوله تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم

الا كنفس واحدة واحده) وقوله تعالى (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار)

لتحذر الامم الجاهلة ضياع بلدانها وفقدان ولدانها أفلا ترغبون في العلوم لذاتها أين من أوصى بقسط من ماله على علم الحكمة النظرية ؟ أين من بنى مدرسة للعلوم الطبيعية ؟ أين من حبس من بعض ماله على مدرسة طبية ؟

ألا هبوا من نومكم واستيقظوا من رقدتكم واعلموا انكم اليوم مسؤلون (وقفوهم انهم مسؤلون مالكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون)

ياقوم قوا أنفسكم وأهليكم وأبناءكم ناراً بالعلم والتعليم وفتح المدارس حرام عليكم هجران العلوم اقتربت الساعة وانشق القمر . ووضح الامر

أنذر الجاهلين يوم هلاكهم ووالله لئن لم يتلافوا الامر في هذه السنين ليكونن أبناؤهم خدما لامم آخرين — أأمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا من تلك المراكب الهوائية (البالونات) يوم تأتى السماء بدخان يملأ الافق ويسد الجو والسهل والوعر من المدافع والآلات القاتلة حين ترتقى الامم ولا يبقى الا الضعفا عاجزين عن مساواة غيرهم أذلاء محسورين

فهلموا للعلوم فهاهو كتابكم يأمركم والمثلاث والنذر تحيط بكم من خلفكم ومن امامكم ومن فوقكم فاستعدوا للعمل وانتظروا الخير انا معكم منتظرون

المقالة الستون

ملخص الخطبة

التى ألقاها المؤلف ليلة ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٨ بقاعة عبد العزيز فى جمع حافل من الفضلاء بنادى دار العلوم مع محادثات له فى رد شبه اعترضت الموضوع

﴿ اتحاد اللغتين الفصحى والعامية بالبلاد المصرية ﴾

استهل الخطيب الكلام بمدح الاجتماع والنادى ورجاله والخطباء الذين سبقوه فى الاسبوع قبله ثم حدد الموضوع بأنه مقصور على اللغة المعروفة عند العامة المصريين بدون تحريف وأن المحرف قليل وكذا الدخيل وربما لايبلغ مقدارهما خمساً فى المائة من مجموع الفاظهم وألقى هذه الاسئلة بامعنى عامية ماالذى منعنا من استعمالها لغة التحرير أهى غير عربية أومبتذلة واذا ثبت انه لاابتذال ولا دخيل الا القليل فلم يبق الا الوهم السائد علينا نحن المصريين توارثناه وأخذنا نستتبع الالفاظ الدخيلة ونحن عما بين أيدينا غافلون وكأننا اذ الفنا الانتقاد واتبعنا طريقة الذم نبذنا الصحيح واعملنا الفكر فى الغلط وهو قليل ولع الناس فى بلادنا جيلا بعد جيل بما هو كالدواء لداء اللغة من النحو والصرف وعلوم البلاغة ونسوا ان متن اللغة كالغذاء وتلك العلوم كالدواء وأى فرد أو أمة اشتغل بالعرض عن الجوهر أو بالدواء وأغفل الغذاء كانت العاقبة أشد النكال والداء العضال

يقولون اللغة العربية فقيرة وما فقرها الا الوهم السائد السام ويقولون

لآخر لما وكلا الوجهين له صحة من وجه كما أنهما متضاربان ظاهراً والسبب الحقيقى هو تخبط الامة فى متن اللغة كما تتخبط العشواء نحن على هدى فى القواعد وفى علوم البلاغة ولكنا فى متن اللغة متخبطون

الامور التى نعبر عنها كثيرة كالفرح والحزن والفقر والغنى والغضب والرضا والشهوة والجبن والشجاعة والكرم والبخل والمسموعات والمبصرات والمشمومات والمذوقات وهكذا الي ماتصل اليه تفاصيل المقولات ولنذكر الليلة موضوعين اثنين مما يقع تحت حواسنا في المبصرات وهما الملابس والحبوب موافقة لما في كتب اللغة مع تحريف قليل في بعضها

الملابس

نرى العامة يقولون ثوب هلاهل ومهلهل وثوب هفاف ومضلع وشبارق ومشبرق والقصب وثوب بشوكه (جديد) وثوب مخطط ومسير ومسبهم ومنمق ومنقرش ومبرقش وحبرةوحبر ومنه حبرته فهو حبيروخيش والجمع أخياش وفوطه وفرط ونخ ونخاخ وبساط وبسط وشملة وبردة وغدفة ولحاف وقطيفه وعبعب وعباءة وعبايه وقميص وقمصان والجيب جمعه جيوب والقب وهو مايدخل فى الجيب من الرقاع وزر وزررته وأزررته والعروة مدخل الزر والبنائق جمع بنيقه وهومازيد فى عرض القميص تحت كمه والطره والكفه والشقه والكم والردن والاكمام والاردان

هذا في الاسماء المعروفة عند العامة فى الملابس. ويقولون ندفت القطن بالمندف والمنداف و حلجته بالمحلج والنداف نادفه والحلاج حالجه والحرفة الحلاجة ويقال الردن نوع من الغزل والمردن المغزل ومزعت القطن نفشته العبر مشاقة الكتان القنب ضرب من الكتان بسطت البساط وفرشته وهذا

بساط يبسطك يتمسك سجف وسجف وشف الستر رؤى ماوراءه أكبمته جعلت له كمين كما تقول أردنته جعلت له أردانا وهى أسافل الاكمام وكففت الثوب وشللته وكففته من باب ضرب وخطته بالابرة وخطت الشيء بالمسلة وثوب خلق وخلقان وشراذم (العامة تقول شلاضم) وذلاذل (قطع) (والعامة تقول دلادل) وزبرقت الثوب صفرته وتلفعت والتفعت والكمكمة التغطى بالثوب وأغدفت الثوب والازار أرسلتهما الى أسفل

الحبوب

يقولون قصلة وقصل وسبلة وسبل والقمح مسبل ومقنبع أى لم يخرج سنبله والحصيده (أسافل الزرع الباقية) وفريكه وشمال قمح (وهو كل ماقبض عليه الحاصد) والجرن وعرمت العرمه والجرزه كالحزمه لفظا ومعنى والقاط والدياس والدق والدراس وداس الناس ودرسوا ودوسوا والتبن والتبان ويقولون حصدنا الفول وشمسناه ولكن القصل ماحمل يومين حتى نشف والنولرج والمذراه (المدرايه) ثم قال الخطيب فهذه لغة عربية أغفلها الخاصة والمتعمون ولم يستعيضوا عنها بغيرها ولن يقدروا فنحن كالذى ركب حماره وهو يبحث عنه وعندى ان الفاظ العامة تبلغ خمسة آلاف أو ثمانية آلاف فى صحاح اللغه ولما ذكر الخطيب هذه الكلمات من بابى الملابس والحبوب ذكر أمثلة أخرى واستشهد بكلام العرب والقرآن وأتى بأقوال علماء البلاغة كالجاحظ والامام عبد القادر الجرجانى وصاحب المثل السائر القائلين بالافصاحة الا بما كان متعارفا مألوفا على شريطة حسن السبك الذى هو كالارواح فى أجسامها والانوار فى كواكبها وان المغربين مثلهم كمثل التركى مع العربي والانكليزى مع التركى ثم قال على أنه لو لم تكن هذه الالفاظ فصيحة

على فرض المحال أفليس جهل أهل العلم بما يعلم الفلاح فى حقله والمرأة في خدرها عاراً عظيما على أن ما ذكرناه من الالفاظ في بابى الملابس والطعام لا يتسنى لاحد أن يستبدلها بخير منها وانى لابذل عشر جنيهات لمن يستبدلها كلها بخير منها أو مثلها في موضوع بعد اسبوع وأقول انه على كل شيء فى البلاغة قدير وانه له ملك الفصاحة والبلاغة وليس لمتحديه من ولى ولا نصير

وعليه فمن المحتم الواجب الاعتناء بمتن اللغة والابتداء بما عند العامة والاستزادة عليه بما نشاء وما نحتاج اليه فى قاموس يدرس ويعلم ويكتب عليه المتعلمون فى الانشاء ويتناوله الكتاب قاطبة وقد اعترض على هذا القول طوائف فطائفة قالت

ان لغة المصريين مختلفة حتى انك لا تجد قريتين متحدتين ونحن نقول ان الاختلاف فى اللهجات وبعض الالفاظ وهذا لا يقدح في الاتفاق فى أكثرها وقالت طائفة أخرى ان هذا العمل لغو فنحن نعلم التلاميذ كيف يبحثون فى القاموس ونتركهم وشأنهم والكتاب والمنشئون كذلك ونقول جواباً عليه ان هذا كقول القائل لمن يخزن ماء فى الصهريج لا تفعل وارشد الناس للطريق الموصل للبحر ولمن يحضر الطعام للآكلين لا تفعل بل ارشدهم للمطبخ ودعهم يبحثون ولمن يتعلم الفقه راجع فى ابن عابدين وهذا تأباه العقول

وقالت طائفة أخرى لو أردت عمل قاموس لنا لزم التبلبل واختلف التونسي والسوري والهندى وهذا قول بين السقوط بنفسه والا لزم تبلبلها فى الاعراب بقراءة الكفراوى مختصرا من النحو الذي يسمه الاشمونى

والجزء الاول فى المدارس المختصر من الثانى وما بعده فليس الاختصار ضارا كلا بل هو تقريب للفهم والمعرفة

وقالت طائفة نحن لانستغنى عن القاموس العام فعجبنا منه أيضا وقلنا وهل يلزم من الجهل بعويص اللغة أن ندع الجلى الظاهر فاذا كان الجهل قاصرا على العويص كان خيرا من انضمام الجلى اليه فى الخفاء

وقالت طائفة لعلك تريد الاقتصار على لغة العامة فنقول لم نرد ذلك بل نزيد عليه مانحتاج اليه فى المدنية وقال آخرون أتريد ان نأتى بالالفاظ المبتذلة كلفظ (خش) بدل دخل قلنا هـذا نادر وانما علينا حفظ ماعداه ونحن لايتسنى لنا استبدال ماذكرناه الالة بغيره وقد غاب أكثره عن أهل العلم فواخجلتاه ثم قال والذى أراه ان يجعل متن اللغة علما يدرس في المدارس ويلقن للتلميذ ولا تترك ألفاظ العامة بل تعلم وتصحح اذ هى أقرب للتلميذ وأسهل وأبين وأقل زمنا وأكثر مجاراة للامم فانا مارأينا أمة تذر متن اللغة تبعا للمصادفات العمياء ولو فعلوا فعلنا لضاقت لغاتهم كما ترى لدينا اليوم وليتداول مثل هذه الالفاظ المنشئون والكتاب والصحف حتى تحيي بعد موتها وتنشر من أجداثها ويتعارفها الخاصة ثم لخص الموضوع فى سبعة عشر قاعدة فقال

خلاصة هذه المباحث

(١) اللغة العامية فيها الاصول الضرورية لمعاشنا

(٢) الدخيل لايبلغ خمسة فى المائة وكذا المحرف تحريفا بينا

(٣) اللغة العامية تبلغ أصولها وما قاربها خمسة آلاف كلمة على أقل تقدير وربما وصلت ثمانية آلاف

(٤) العامة يعتدون البليغ ماكان غريبا لأنهم يخضعون لما يجهلون والمتوسطون يعشقون سبك النظم وينبذون الغريب والحكماء يرون مع ذلك ماهو أدق فى المعنى وأنفع للامم

(٥) غلبت الفكرة العامية قديما فنبذ الناس ماينطق به العامة فتحول من الابتذال الى الغرابة

(٦) اللحن والدخيل والتحريف جعلنا نظنها كلها لغة فاسدة ولا يحكم على فساد الكل بالبعض

(٧) وردت ألفاظ أهل بلادنا فى القرآن والحديث وكلام العرب فليست مبتذلة

(٨) الحاجة ماسة اليها والامة تتكلم بها فمن العبث نبذها

(٩) تحقق أن الفصيح والبليغ ماعرفه الناس الذين نخاطبهم اذا سبكته بنظم عجيب واسلوب غريب

(١٠) لانريد بالعامة من كانوا فى الاجيال السابقين ومن لاحظهم فى خطابه اليوم فانه يكلم الموتى ولا يخاطب جيل المصريين الاحياء فليعلم الناس هذه الحقيقة وليعملوا بها

(١١) يجب أن نستوعب ألفاظها أولا ليستعان بها على أصول الحياة ونزيد عليها ماتمس اليه الحاجة

(١٢) كلا منا خاص بلغة التخاطب وعلى ذلك لايقال غريبة وعامية بل تكون كلها عربية صحيحة مع ملاحظة الاعراب على سبيل التدريج واستبدال الدخيل واصلاح المحرف عند الامكان

(١٣) ينشر هذا القاموس بين الطبقات المتعلمة حتى تدخل ملكة اللغة

بالتدريج فيكتفى به الناس في أعمالهم ومن كان مختصا بفن زاد لاجله من اللغة ماشاء من اصطلاحه وعالم البلاغة واللغة يجب أن يزيدامن اللغة العربية ماشاءأن يزيدا

(١٤) يراعى في القاموس الذى ينشر الآن يذر نباتا فى بلادنا المصرية ولا حيوانا ولا غيرها ولا صفة من صفاتها الا وضعه ورسمه والغفلة عنها عيب فاضح .

(١٥) يجب ادخال كلمات ذلك القاموس في محاورات صغيرة لما يحيط بنا من الامور الخارجة حتى يعرف أبناؤنا أحوال الحياة والعبارة عنها

(١٦) اذا شرع فى هذا العمل اليوم فلا يمضي عشر سنين حتى تصيرلغة الكلام لغة التحرير وتزول تلك الوصمة ويخرج جيل عالم باللغة عالم بأصول الحياة

(١٧) النتيجة بعد هذا الاصلاح تتحد اللغة

خاتمة الكتاب

﴿ الاصلاح العام ﴾

اصلاح الامم يتوقف على توخي أحسن المثل التى ينتهجها قادة الشعوب وانتهاج أوضح المسالك التى يسلكها المصلحون ـ ليسيروا مع الامم سير الاستاذ مع تلميذه وليأتوا البيوت من أبوابها وليخاطبوها بلسانها وكما ان الاستاذ يحادث قلب التلميذ بما يشاكل طباعه ويناسب طور استعداده فهكذا قادة الامم مع الشعوب هذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ومن غيرها فقد حاد عن صراطه المسنون وطريقه الواضح

على هذه النظرية كان تحدى الانبياء فموسى عليه السلام بالعصا لغلبة السحر وعيسى عليه السلام بابراء الاكمة والابرص الخ لغلبة الطب والنبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن لولوع القوم اذ ذاك بالبلاغة كالمعلقات ونحوها

في الامة اليوم أربع طبقات بينها عمومي وخصوصي وجهى

على قادة الشعب ان يوجهوا اليهم النظر علماء الدين ورجال الصوفية والصناع

رابعهن طائفة لها سلطان على صغار العامة وهم شعراء الربابة الذين لا يؤبه لهم ولا يعيرهم التفاتة المفكرون وهم مع دمامتهم أنفع للطبقة السفلى من ممثلى الروايات للعليا والوسطى فالاولون نفعهم أكبر من اثمهم والآخرون اثمهم أكبر من نفعهم ولقد قال سائح انكليزى اذ رأى هؤلاء الشعراء ياليت لنا مثل هؤلاء القصاصين فى بلادنا فانهم أخذوا بأيدى رعاعكم وانتشلوهم من وهدة الآثام ورفعوهم عن نظائرهم فى بلادنا

علماء الدين ورجال الصوفية لهم السلطان الاعظم على القلوب وهو أقوى

أثرا من سلطان الملوك ورجال السياسة على الاجسام وقد قال علماء العمران ان الاصلاح الديني أسرع تأثيراً في اسعاد الامم من الاصلاح السياسي

فاذا لم يتجه أولئك للاصلاح العام فلا سبيل لترقي الامة وسعادتها

الصناع قائمون بركن شديد من أركان الحياة الاجتماعية وبناء هيكل الامة فللاصلاح اربع دعائم

(١) الدعامة الاولى ان يسرع قادة الشعب في تعميم مزج علوم الحياة بالدين حتى يطمئن المتدين الى النظر في هذا العالم ويعشق العلوم عشقا قلبيا وما أسرع سريان هذا الشوق في القلوب وما أنفع هذه الطريقة للامة اذا انتهجها المصلحون

(٢) الدعامة الثانية ان تعم آداب الدين الاسلامي التي حصرها الامام الغزالي في سبعمائة وخمسين آية بين مشايخ الطرق الصوفية كاكرام الوالدين والجار والاهل واطعام اليتيم والمسكين والصدق والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس وغير ذلك حتى يقتربوا من اخوانهم طالبي علم الدين ويقودوا الشعب الى المدنية والعلم وما ذلك على ساداتهم المخلصين بعزيز

الدعامة الثالثة ان يشجع قادة الامة الصناع في المدارس وخارجها بترويج ما صنعوا واطرائه والاقبال عليه وهذا أمر ليس بالعسير

الدعامة الرابعة شعراء الربابة الذين يقصون أقاصيص خيالية اتخذها قادة الشعوب في الازمان الغابرة لما كانوا يقصدون ولم تزل بيننا تأخذ بالباب فريق من العامة الى ذكرى الايام الخالية والعظام البالية

ألا فلتهذب تلك الروايات ولتحول عن مجراها الى ما تحتاجه من الاخلاق الفاضلة وحب العلم ورقي الامة وليقم بهذا العمل أناس ساعدهم

استعدادهم وليرغبهم المخلصون من الامة وقادتها بالمال حتى يهذبوها وينشط أولئك الشعراء ولعمرى لسلطان هؤلاء على قلوب بعض العامة كسلطان علماء الدين ورجال الصوفية على الباقين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله المسلمين

تم كتاب نهضة الامة وحياتها بالقاهرة فى يوم الاثنين ٢١ جمادى الثانية سنة ١٣٢٦ — ٢٠ يوليه سنة ١٩٠٨

﴿ مؤلفات المؤلف المطبوعة ﴾

	الثمن	
(١) جواهر العلوم	٤ صـ	يباعان بمكتبة محجوب أفندي
(٢) ميزان الجواهر	٦	هنداوى بالحمزاوى
(٣) النظام والاسلام		نفدت نسخهما المطبوعة
(٤) جمال العالم		
(٥) نظام العالم والامم		ثمنه ٢٠ قرشاً يباع بادارة الحلمية بالطرقه الشرقية بشارع خيرت
(٦) نهضة الامة وحياتها	ثمنه ١٠ قروش	ويباع بادارة (اللواء) وبعض المكاتب الشهيرة

﴿ بسم الله ولا حول ولا قوة الا بالله ﴾

فأما تمييز الخطيء من الصواب فى الغلطات المطبعية فقد أوكلنا أمره الى مدارك أذواق أولى الألباب الذين تحتم عليهم مكارم أخلاقهم غفران الزلات والعفو عن الهفوات ولكنا احتراما لاصحاب بثينة جئنا هنا بالبيت الآتى على حقيقته وعجبة فى تلك المشوقة الطاهرة وعاشقها العفوف

إِنّي لأَرضَى من بُثَينةَ بالذي لَوا بَصَرَه الواشي لَقَرّت بَلابِلُه

الفهرست فهذه هى معالمه البينات وعلاماته المبينات ليسهل على المطالعين العثور على مطالبهم بسببه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت الفهرست ﴾

إن من غرائب الصدف وعجائب أعمال القدر أنى أيام طبع كتاب العمل المبرور كنت فى محطة السكة الحديدية منتظرا إبنة لى قادمة من الاسكندرية وعند جلوسى منفردا فى مجالس المنتظرين ألقى الالهام الربانى فى مخيلتى الابيات التى وضعت في هذا الكتاب عند تقسيم المرشدين وقد كنت أريد طبعها فى كتاب العمل المبرور فلم يساعدنى القدر وفي الليلة التى طبعت فيها الابيات رأيت فى الوقائع المنامية أنى ببلدتنا بجانب منار من خشب جعلوه للمؤذن هناك فرأيت غرابا فوق ذلك المنار فضربته على رأسه بعصا كانت بيدى فسقط فانتبهت من النوم وقد أوكلت تأويل رؤياي للمقادير وحوادث الزمن والأبيات هى التى أولها .

يا إلهَ العَرْش يامُولِي الفُرَصْ   قوِّ إيماني وَجنِّبني البَرَصْ